أول القصيدة . . . بسيطة

محمد غزلان

أول القصيدة .. بسيطة / رواية

محمد غزلان

الطبعة الأولى، ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة، ١ش المعهد الديني، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

رانا عمر

التنسيق الداخلي :

خالد عبد القادر

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٨١٨٩

أول القصيدة ... بسيطة

رواية

محمد غزلان

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهـــداء

إلى جهينة ..

أرضها وناسها

(١)

" بسيطة ".. يجزم كل من يسمع المشكلة أنها " أبسط من البساطة "، ولا تحتاج إلى كل هذا الهم الذى ركبنى .. صدقتهم، فربما تكون خبراتهم أعمق من خبرتى، ومعرفتهم بالدهاليز الحكومية أوسع من معرفتى، وأن التعقيد ينبع من نفسيتى المعقدة، وأن تشككى سببه سوء نيتى وعدم ثقتى بكل ما هو حكومى، ابتداء من علاقتى بتمثال الكاتب المصرى الشهير " العرضحالجى الأول "، وأقدم مرتشٍ ظهر على الأرض حتى رئيس الحى الذى أسكن فيه. يساورنى من حين لآخر، تساؤل حول قواى العقلية أو قوى الناس التى تسمع المشكلة وتجزم بأنها " بسيطة ". إذا كانت بهذه البساطة التى يقولون عنها ، فلماذا تستغرق كل هذا الوقت؟ فقد مضى أكثر من ربع قرن ولم تحل المشكلة .. نعم إنها كانت تظهر وتختفى ونقطع شوطاً فى حلها إلا أنها تعود للتوقف، ليتم استئناف النشاط فى إحيائها مرة أخرى بعد سنوات، ولكنها استمرت خمسة وعشرين عاما حتى الآن، ربع قرن لحل مشكلة بسيطة. فكم من الوقت تحتاج المشكلات الجسام ؟، السؤال يبدو أيضا بسيطاً ، إلا أن ما يثير جنونى أن كل من يسمع المشكلة يبتسم ابتسامة بلهاء، مؤكدا أنها " بسيطة "، بل هناك من أقسم بالطلاق، أنه يستطيع حلها

بأصبع قدمه، ومن هنا، وبالتليفون، دون أن يبرح مكانه للدلالة على بساطتها !.

يجمع الخبراء وأصحاب التجارب المماثلة أن المسألة من أولها إلى آخرها مجرد إجراءات روتينية. أوراق ومراسلات وبعض الأختام الرسمية، ابتداء من ختم النسر القديم، إلى ختم صقر قريش الجديد، وقليل من المستندات الحكومية وصور منها وقرارات وزارية، وبعض المذكرات التفسيرية واللوائح التنفيذية، بالإضافة إلى حكم قضائى فى غاية الأهمية، صدر منذ سنوات بعيدة ، وينتهى الأمر ويصبح كل شى تماما ! .

الأمر يحتاج إلى بعض المرونة وقليل من التساهل وبعض الصبر وحفنة من الابتسامات. أرشَها على كل من أقابله من الموظفين والتظاهر بالإنصات واحترام ما يقوله صغار الموظفين قبل كبارهم ومبلغ من المال، يُدفع فى شكل إكراميات لمن يتطوعون لأداء الخدمات.. المبلغ يدفع على سبيل التسهيلات وليس الرشوة إذا كنت من المؤمنين بأن الراشى والمرتشى فى النار. ودلنى أهل الخير على الطريق وأخذوا بيدى. الحديث عن المشكلة مع الموظفين الصغار أو الكبار يجب ألا يكون فى صيغة من يُطالب بحق، فالحقوق مهدرة ولا داعى للدخول فى هذه المتاهة. الحديث يجب أن يكون حول خدمة .. طلب خدمة، ولا مانع من التنازل عن بعض الكبرياء. ولا داعى أن تذكر الموظف أيا كان موقعه الوظيفى بأنه

مطلوب منه أن يفعل كذا أو كذا.. عليك بعرض المشكلة بشيء من الترجي أو التوسل وبأن الأمل يملؤك بأن هذا الموظف بالذات سيحل لك مشكلتك لوجه الله.. رغم أن المطلوب ، كل المطلوب، هو مجرد نقل أوراق من ملف حكومي إلى ملف حكومي آخر في حوزة الحكومة، في مكان آخر.. وقيل أنها لم تعد ورقة أو أوراقاً، ولكنها بيانات مخزنة على جهاز كمبيوتر، هذه البيانات سيتم نقلها إلى جهاز آخر، في مكان آخر، عبر أسلاك وعن طريق الضغط على أزرار في لوحة مفاتيح .

المشكلة أن كل هذه الأماكن حكومية، يديرها موظفون. جيش من الموظفين.. رُتب مختلفة، تحت أيديهم مئات من الموظفين الصغار، منتشرون في مكاتب بطول مصر وعرضها.. الورق أو البيانات مفروض نقلها من صعيد مصر إلى قلب القاهرة. ثم يرفع من قلب القاهرة إلى جهاز كمبيوتر ينبض بالحياة. يجزم الجهلة أن أجهزة الكمبيوتر لا تخطيء، وأنها شريفة، ولا تعرف الرشوة وتخاف من الحرام، وأن جهاز الكمبيوتر الذي دخل الخدمة في جميع وزارات مصر شأنه شأن كل الموظفين، له تاريخ تعيين وقرار وزاري ولائحة تنفيذية وتنظيمية، وما يتم وضعه في قلب الجهاز يغلق عليه قلبه ولا يفتحه إلا بكلمة مرور، كما أن ما يوضع فيه لا ينقص أبدا ولا يزيد، ولا تأكله الفئران، ولا يعبث فيه الموظفون بالحذف أو الإضافة، كما أنه فوق هذا كله، مربوط بشبكة كمبيوتر قومية

تغطى القطر بأكمله، ولم يسمع أحد أن جهاز كمبيوتر ضـــبط بتلقى رشوة رغم أن الأجهزة الرقابية فى كثير من الأحيان ما تلقى القبض على أجهزة الكمبيوتر وتنقلها إلى جهات التحقيق !

جزء من موظفى الحكومة – قد يكونون أقلية أو أغلبيـــة– أصبحوا مثل أجهزة الكمبيوتر، لا يعملون إلا بكلمـــة مـــرور. وهى ليست بكلمة ولكنها أوراق بنكنوت تختلف فئاتهـــا طبقـــا للمهمة أو مكانة الموظف وما يمتلك من سلطات ونفوذ.. هـــذه هى البساطة التى حاول صديقى هانئ الكفراوى أن يخرم فـــى رأسى ثقباً ليدخلها، وكلما اكتشف أن الثقب ليس متسعاً الاتساع الكافى لإدخال الفكرة، عمل على توسيعه وأصابنى بالـــصداع يصر هانىء على أنه يعلم أكثر منى، وخبرتـــه أوســـع مـــن خبرتى، كما أنه يكبرنى بعشر سنوات أو ما يزيد قليلا : " أكبر منك بيوم، يعرف عنك بسنة " في رأيه أن هناك موظفاً، كلمة السر لديه لا تقل عن " عشر برايز "، وآخر كلمة السر لديـــه تقل أو تكثر طبقاً لأهمية المشكلة بالنسبة لصاحبها ودرجة قلقه وعصبيته وحرصه على إنجازها وتوقيت الإنجاز انجاز المهمة له قيمة قد يحددها الموظف صاحب الشأن إذا كان متمرساً في أمور الرشوة، أما إذا كان يخطو خطواته الأولى فهـــو يتـــرك تحديد الأمر إلى كرم طالب الخدمة .

هانئ الكفراوى يرى ـــ وكل ما يراه صحيحاً ـــ أن الموظف يقرأ ملامح المواطن طالب الخدمة قراءة جيدة متأنية، ورغـــم

جهل الموظفين بعلم النفس ومداخله إلا أنهم يتمتعون بقــدرات خارقة فى فرز الناس والتدقيق فيهم، واكتشاف استعداد القــادم على الدفع أو المراوغة أو الاكتفاء بعبارات الشكر والثناء التى لم تعد مجدية لا دخول فى مكان إلا بكلمة السر وأصبح الجنيه مضروباً فى عشرات أو مئات هــو المــدخل الرســمى فــى القطاعات الخدمية الحكومية. الواسطة لــم تعــد مجديــة وإذا حصلت على توصية يرسلك الموصى إلــى مــرتش لإنهــاء الخدمة! المشكلة ليست فى الموظف المرتشى، فالتعامل معــه أسهل من جدول الضرب الذى كان يحفظه تلاميذ المدارس فى الزمن القديم.. المرتشىـــ كما يصفه صديقى هانئ الكفــراوى قلبه من حديد، يقفز فوق اللوائح والقوانين، بل لديه من القوانين ما لا يعرفه غيره.. المشكلة فى الموظف الملتزم النظيف الذى توارى مع ظهور التتار الجدد، إلا أنه قد يظهر فجــأة. كــلام الكفراوى ينم عن معرفة حقيقية بالموظفين، فقــد بــدأ حياتــه موظفاً نظيفاً، إلا أنه لا يخفى إعجابه بالمرتشين، فهم فى رأيه القادرون على الإنجاز. قضى الكفراوى حياته قبل انتقاله للعمل فى الصحافة يخشى أن يقع فى المحظور، فهو بحكــم تربيتــه ونشأته واسم عائلته فى المحافظة التى عُين فيها، لم يستطع أن يكون موظفاً فاسداً وفشل فى أن يكون موظفاً ملتزمــاً.. قــدم استقالته وتوسط له أحد أقاربه الكبار وعمل بالصحافة. بدأ فيها من زمن ويستعد الآن للخروج إلى المعاش. لم يُغــادر القــسم

الذى عُينَ فيه " مشاكل الناس "، وعرف من الخبايا ما لم يعرفه سواه وسمع عن صور الفساد ما لم يسمعه غيره وتعامل مع نماذج من البشر، طحنها الفقر والظلم وبعضهم سقط بسبب الغباء.. ومشكلتى أنا على وجه الخصوص فى رأى هانئ الكفراوى تنم عن غباء فطرى.. يرى الكفراوى أن " قروشاً قليلة تمنع بلاوى كثيرة "، ولا داعى لتسميتها بالرشوة، فإذا كان التعطيل مكلفاً فالإنجاز لابد من دفع قيمته أيضا.. لا يهم المسميات، وإن كان تعبير " إكراميات " أحب الكلمات إلى قلبه .

يحكى هانئ الكفراوى عن الفساد فى كل أنحاء العالم، وفى كبرى الشركات العالمية، وعن فواتير بمئات الملايين من الدولارات أو الجنيهات، وأن هناك بنداً ثابتاً فى هذه الفواتير تحت مسمى " نفقات غير منظورة. " يضحك ملء شدقيه ويستفسر عن معنى هذا البند. قبل أن تجيبه بأنه رشوة، يزيح الهواء بيديه من أمام وجه محدثه، مؤكداً أنها " إكرامية "، مبدياً إعجابه بالموظف المرتشى، وصاباً غضبه ولعناته على الموظف الذى يظن نفسه أنه ملتزم ونظيف اليد والجيب .

يسخر الكفراوى منى ومن الموظف الشريف الخائف الرعديد، الذى يخشى رئيسه فى العمل ويخشى التعامل مع الجمهور ويتحصن وراء لوائح وقوانين يظن أنها تحميه من الوقوع فى الخطأ، إلا أنها تعوقه عن أداء مهام وظيفته ويقضى

عمره يخشى عرضه على الشئون القانونية أو وضـــع " لفـــت نظر " فى ملفه الوظيفى أو يطلب للحضور للإدلاء بشهادة أمام النيابة الإدارية. يضحك وكأنه قضى عمره الوظيفى ضـــاحكاً. يلقى بأمثاله وحكمه على أمثالى قائلا: ألم تسمع عن " خيـــركم من نفّع واستنفع "، ألم تقرأ عن " هين قرشك ولا تهين نفسك "، ويوزع علبة سجائره أو ما تبقى منها على الجالسين، ويسألهم عمن دخّن سجائر " الونجز " فى الزمن الجميل، مؤكداً أنه أول تعبير ظهر فى مصر لتقنين الرشوة، عندما قـــال حكـــيم مـــن المدخنين : " إذا أردت أن تنجز فعليك بالونجز ".. الموظـــف المرتشى لم يعد يدخن سجائر " الونجز "، أو " البلومونـــت " ، فهو يفضل حالياً " المارلبورو "، أو " الكِنت " والـــذى اقتـــرب سعر العلبة منه من ثمانى جنيهات ! فمن يدفع ؟! .

مشكلتى ليست فى الموظف الملتزم أو المرتـشى، ولكننـــى أبحث عن مخرج، ومن لديه القدرة على إنهائها دون الانتظار إلى ربع قرن آخـــر. أبحـــث عـــن موظـــف لينقـــل الأوراق والمستندات من مكان لآخر أو من جهاز كمبيوتر إلى جهـــاز آخر وأن يهتم هو بأختام النسر أو صقر قريش أو غرابها ولا يلقى بالأوراق فى سلة المهملات.. لقد أقنعنى هانئ الكفـراوى بضرورة دفع بعض المال، ليس على سبيل الرشوة ولكنه ثمن للدخّان. إلا أن كل الموظفين الذين تقابلت معهم.. وذهبت إليهم، وجدت جدران مكاتبهم مزينة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية عن

ثواب الذى يقضى حاجات الناس وعن أجر من يتقن عملــه ، وعن الراشى والمرتشى وأن كليهما فى النار .

صحوة دينية فى الدواوين الحكومية لم تشهدها مصر مــن قبل.. مصلى فى كل دور.. الأذان يرفع ظهراً.. يترك أغلبيــة الموظفين مكاتبهم لأداء صلاة الظهر جماعة.. علامة الــصلاة فى جبهة الكثيرين من المــوظفين.. علامــات الإيمــان فــى مفرداتهم اللغوية التعاملية.. إذا قلت " غداً " دون تقديم المشيئة، تجد من ينهرك ويلقى على مسامعك ضرورة أن تــذكر: " إن شاء الله " وإذا دخلت على موظــف وألقيــت عليــه التحيــة المتعارف عليها فى مصر " صباح الخير ".. زجــرك بعينيــه قائلا : " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ".. كيف تفكر فــى الرشوة، فى هذا الجو الإيمانى البديع ؟ ! .

فى النهاية اقتنعت بحرمية الرشوة وانحصر تفكيرى فى ثمن الدخّان أو مسمى " الإكرامية ". أدركت أن مــشكلتى بالفعــل "بسيطة .. وأبسط من البساطة "، ولكن ماذا يحدث إذا توكلــت على الله وذهبت إلى الموظف الخطأ وتعاملت مــع المرتــشى على أنه ملتزم أو العكس بالعكس ؟!.. قد يعنى هذا الانتظــار ربع قرن آخر! مجرد إحــساس زاد مــن احتقــان مــشكلتى " البسيطة " والتى تتلخص فى ضم فترة خدمــة ســابقة فــى الحكومة إلى ملفى التأمينى الحالى ظننت أنها ضُمتْ تلقائياً بعد تقديم الأوراق المطلوبة، عندما تم تعيينى محرراً فــى نفــس

الجريدة التى يعمل بها صديقى هـــانئ الكفـــراوى، إلا أننـــى اكتشفت ــ وبمحض الصدفة ــ أنها لـــم تُـــضمْ، وبالتـــالى لا استحق معاشاً كاملاً عند بلوغ سن التقاعد .

الحديث عن المعاش وكيف يـستم حـــسابه وعـــدد ســـنوات الاشتراك، قصته طويلة تحكمها قواعد عتيقة، ونظم أكلَ عليها الدهر وشرب، إلا أن الحفاظ على أموال الدولـــة والحكومـــة وحمايتها من المواطنين الغلابة، من أهم أولويـــات الموظـــف المرتشى قبل الملتزم .

المعاش الكامل يستلزم اشتراكاً تأمينيـــاً لمـــدة ٣٦ ســـنة، ويحسب معاش الأجر الأساسى بواقع ٨٠ % من متوسط الأجر فى السنتين الأخيرتين بالنسبة للعـــاملين بالحكومـــة والقطـــاع العام.. التأمينات ومشاكلها لعبـــة الأســـتاذ هـــانئ الكفـــراوى المفضلة.. يحفظ قوانينها وينشرها من وقت لآخر فى الجريـــدة رداً على استفسارات المواطنين، أما من يسأله من الزملاء عن التأمينات، فقد صور ورقة واحدة عـــشرات الـــصور ويقـــوم بتوزيعها على كل من يسأل، كما يوزع سجائره .

(٢)

قبل أن يحال الأستاذ هانئ الكفراوى إلى المعاش بعدة شهور بدأ يتردد على مكتب التأمينات لغرضين، الهروب من المكتب للتسكع فى الشارع ساعة " الصبحية " وقبل اشتداد الحر وللتأكد فى نفس الوقت أن الفترات التى قضاها فى أجـازات بـدون مرتب، ودفع عنها قيمة التأمينات الاجتماعية، قد ضُمتْ إلـى فترة خدمته. ولم تسقط حتى يستمتع بمعاش كامل خاصة أنـه من المؤمنين بأن " الحياة تبدأ بعد سن الستين " .

بحكم الصداقة التي تربطنى به، كنت أزوغ مـن العمـل وأتردد معه على مكتب التأمينات، وبعد عدة زيارات لا أعرف عددها على وجه اليقين، وبعد عثوره على الموظف المخـتص والذى فيما يبدو " يزوغ " أيضا من عمله مثلنا ليتـسكع فـى الشوراع، أخبروه بعد الاطلاع على الملف، والذى كان مختفياً أيضا، أن فترة خدمته كاملة، وأنه سيحصل على معاشه كاملاً وزيادة في الاطمئنان بعد أن نقد موظفاً يعمـل فـى الملفـات " ثلاث برايز "، وأعطى لشريكه الجالس على جهاز كمبيـوتر " بريزتين ".. طبعا له ورقة بها رقمه التأمينى وتاريخ تعيينـه وتاريخ إحالته للمعاش وأول مرتب تقاضـاه وآخـر مرتـب سيحصل عليه وخانة أخرى مليئة بالأرقام بها الجنيـه جنيهـاً والقرش قرشاً والمليم مليماً تحت مسمى " الأجر المتغير " . .

وبما أن الكل تراضى.. الكفراوى والموظفان اللذان أعلنا استعدادهما لأى شئ يطلبه الأستاذ هانئ الكفراوى، طلب منهما بأدب جم أن يراجعا ملفى " أنا " الموجود على الكمبيوتر، ولاداعى لإحضار الملف الورقى من الحفظ، بعد أن قدمنى لهما قائلا: زميلى الأستاذ شاكر لطفى بنفس المؤسسة ! .

هذه هى طريقة هانئ الكفراوى.. الطرق على الحديد الساخن، فقد أعطاهما خمسين جنيها مازالت تنتفض فى جيبهما ومازالت الابتسامات تغطى وجهيهما واختيار التوقيت من أهم مهارات الكفراوى. بسرعة طلب الموظف اسمى كاملاً ورقمى التأمينى لمراجعة الملف على، مع التأكيد أن مراجعة ملفات الذين مازالوا فى الخدمة، ليست من اختصاصهما، ولكنها من مهام الأستاذ القابع فى نهاية الصالة أمام جهاز كمبيوتر مشابه، وأشار أحدهما بأصبعه إلى مكتب بجوار شباك لا يجلس عليه أحد ! .

استخرجت من محفظتى ورقة مطبوعاً عليها رقمى التأمينى وخلعت نظارة السير ووضعت بدلاً منها نظارة القراءة.. المكان مترب، جهاز الكمبيوتر متسخ وعليه سواد وهباب وكأنه فى محل لبيع الفول والطعمية، والموظف المرتشى ليس أحسن حالاً من الجهاز، ياقة قميصه متسخة وعلى صدره بقعة واضحة والزرار الثالث أو الرابع مفقود، يكشف عن فانلته الداخلية القذرة. ركزت نظرى على الورقة

التى فى يــدى وقــرأت الــرقم التــأمينى بــصوت عــال ٣٠٤٠٩٨٢، وعبث الموظف بأصابعه على لوحــة مفــاتيح الكمبيوتر. ظهرت بيانات ملفى علــى " الــشاشة ". ســألنى الموظف عن صحة اسم الأم وتــاريخ المــيلاد ومــصمص موظف الملفات الواقف بجواره شفتيه مع حركــة البيانــات المتباطئة على الشاشة، معلناً أن المسجل أمامه فترة تأمينيــة واحدة وكنت قد أخبرته أننى كنت أعمل من قبل فــى وزارة التربية والتعليم، وأرسلت الوزارة ملف خدمتى إلى المؤسسة التى قامت بإرسال الملف إلى التامينأت بدورها، كما أخبرنى بذلك الموظف المختص بالمؤسسة التى أعمل بهــا.. نظــر الموظفان إلى بعضهما البعض. حاولــت أن أميــل برأســى بعض الشيء لقراءة بعض ما ظهر من بيانات على الــشاشة أعلنا سوياً أن فترة الخدمة السابقة لم تضم وغيــر مــسجلة نهائياً على الجهاز، سألتهمــ أنا والكفرواى فى نفس واحد ــ عن الإجراءات المطلوبة لضم فترة الخدمة الــسابقة، أجابــا سوياً: " بسيطة "، وهى أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة مــن موظف حكومى وكأنها كلمة السر التى اتفق عليها كل مــن يسمع قصتى التى تحولت إلى مشكلة !.

هانئ الكفراوى الذى يعيش مع مشاكل الناس نسى مشاكله باستثناء مشكلة اسمه، طلب منى أن أحمد الله لسقوط فتــرة واحدة، وليس أكثر من ملف خدمتى. أعاد على مسامعى كلمة

" بسيطة "، مما أثار جنونى. الكفراوى نفسه كانت له فتـرة خدمة سابقة إلا أنه استطاع ضمها مباشرة، بعد تعيينه فـى المؤسسة عام ١٩٧٥. كلفته فى ذلك الحـين مائـة جنيـه، موزعة كالتالى: عشرون جنيها لموظـف التـأمين داخـل المؤسسة وأربعون جنيها لموظف ملفات التأمين فـى هـذا المكتب، وعشرون جنيها للموظف الذى راجع الملف ووضع إمضاءه الكريم تحت جملة وظيفية تقول: " تمـت مراجعـة الملف بتاريخ كذا " وعشرون جنيها أخـرى اشـترى بهـا رباطتى عنق كهدية لمدير المكتب، عرفاناً وتقديراً لدوره فى تسوية الملف !.

الأمور تغيرت والأسعار ارتفعـت ورواتـب المـوظفين شهدت طفرة خلال العقود الثلاثة الماضية الدولار أصبح لـه ثلاثة أسعار: سعر فى البنك وسعر فى مكتب الصرافة وسعر فى السوق السوداء، والنفقات غير المنظورة ارتفعت قيمتهـا بالطبع وما دفع فيه هانئ الكفراوى مائة جنيه، منـذ خمـس وعشرين سنة، أصبحت تكلفته ــ بسعر اليوم ــ ألف جنيـه على الأقل. انصرف موظف الملفات متأبطـاً ملـف هـانئ الكفراوى وظللنا أمام موظف الكمبيوتر الذى يـستمع إلـى الحوار وهو متردد فى المشاركة فيه .

فتح له هانئ الكفراوى الباب متسائلاً: ماذا يفعل الأسـتاذ شاكر لطفى لضم الفترة السابقة التى عمل فيها بوزارة التربية

والتعليم؟.. الإجابة تحشرجت فى قصبة الموظف الهوائيـــة، خاصة وأنه سمع المبلغ الذى جاء فى الحوار ـ الألف جنيـــه ـ فأكد أن الأمر لا يحتاج لمثل هذا المبلغ فى حالـــة تـــوافر الأوراق ومن الممكن شراء عدة سنوات تأمينيـــة لاســـتكمال المدة. ظن الموظف أن رزقاً جديداً يهبط عليه. فتح درجـــه ليبحث عن ورقة وقلم وجمعَ وضربَ وطـــرحَ عـــدداً مـــن الأرقام: بعضها شهور وبعضها جنيهات: وذكر إجمالى المبلغ بعد أن غاص بعينيه فى حدقة الكفراوى ونقلهما إلى يدى التى تحركت لا إرادياً إلى جيبى.

ساد الجو ثوان من الصمت. قال بسرعة من يسرق الكحل من العين: المبلغ المطلوب خمسة آلاف جنيه لا غير، ولـــم يعلق أحد منا واستمر فى حديثه.. من الممكن تقسيط المبلـــغ حتى سن الإحالة للمعاش طبقا للقرار الوزارى رقم كـــذا .. وأكد أنه: " فى الخدمة "، فقد توسم فينا الخير.. واقتطع مـــن الورقة التى حسب فيها المبالغ المطلوبة قطعة.. كتب عليهـــا اسمه ورقم تليفون منزله!.

ركب هانئ الكفراوى رأسى وأثنى على الموظف وتعاونه وطلب منى أن أخرج ما فى رأسى من أفكار حول الرشـــوة والفساد ، فما يعرضه الموظف من خدمات لا يجرمه قانون، وما سيُدفع له فى نهاية الأمر ليس برشوة.. كما أن موضوع شراء عدد من السنوات، مجرد فخ نـــصبه هـــذا الموظـــف

الناشئ، فهو ليس بمحترف كما يقول هانئ، فمازال يلعب تحت الخمسين جنيها .

الوقفة طالت، ورغم أن أغلب المترددين على مكاتب التأمينات من كبار السن، فلا يوجد كرسي للجلوس عليه. دخل الكفراوي في الموضوع بعدما ضغط على يدي طلباً لصمتي، فالمشكلة أصبحت مشكلته، وما أنا إلا مشكلة " بسيطة "، ضمن مشاكل الناس التي يكتب عنها كل يوم في جريدتنا الغراء .

اتهم هانئ الموظف بالبخل الشديد، فنحن في مكتبه ما يزيد عن نصف ساعة، لم يبحث لنا عن كراسي لنجلس عليها، كما أنه لم يفكر حتى في أن يمد لنا يده بعلبة سجائره رغم أنه دخّن أكثر من ثلاث سجائر وقدم له هانئ علبته في حركة مسرحية، طالباً منه أن " يعفر "، ويطلب لنا شاياً لنفكر سوياً في الاجراءات الفعلية لتسوية ملفي وغلقه، إلى أن يأتي موعد إحالتي إلى المعاش. ارتبك الموظف من كلمات الكفراوي واعتذر. هب واقفاً يبحث عن كراسي، فما زالت جنيهات هانئ تلعب في جيبه مثل السمك الذي خرج تواً من البحر نادى على عامل البوفيه وطلب شاياً وقد أثبت الكفراوي بالفعل أنه صاحب باع طويل في التعامل مع الموظفين، وأن نظرته لا تخيب، فارتباك الموظف كشف أنه ناشئ ، يلعب تحت الخمسين جنيها وهو التصنيف الذي

وضعه هانئ الكفراوى للموظفين المرتشين على غرار لاعبى كرة القدم فى الأندية.. فهناك لاعبون صغار يطلــق علــيهم النشء تحت السادسة عشرة من العمر وهناك من هم تحــت الثامنة عشرة وهناك من يلعبــون فـــى الفــرق الأساســية للنوادى.. نعم إن هذا الموظف ناشيء يلعب تحت الخمسين. أخيرا قرأنا فى صفحات الحوادث أن هناك مرتشين محترفين دوليين يلعبون فوق المليــون جنيــه!. وخــارج تــصنيف الكفراوى .

جلسنا على مقعدين، أحدهما متهالك كان من نصيب هانئ وجاء الشاى وبدأ الموظف فى تقديم استشارته المجانية. طلب منى أن أذهب إلى موظف التأمينات فى مؤسستى وأن أحصل منه على رقم تصدير الملف إلى مكتب التأمينــات وتــاريخ تصديره وأن أحضر له كافة البيانات وأنه سيقوم بالمطلوب ، وكرر قوله إنه: " توَسّمَ فينا الخير "، وأن العمليــة برمتهــا ليست مشكلة، ولا تحتاج لتجهمى وتوترى وأنها "بسيطة " ! .

عرف الزملاء فى الجريدة أن سبب " زوغان " هانئ الكفراوى الدائم، هو تردده على هيئة التأمينات استعداداً لخروجه إلى المعاش لم يصدق البعض أن هانئ قد بلغ الستين من العمر، فليس فى رأسه شعرة بيضاء. يمشى كأنه شاب فى الثلاثينات ويجامل الزميلات بكلمات غزل رقيق. يمتدح عطر هذه ، ويشيد بشياكة تلك ويبدأ يومه بضحكة " مجلجلة " تكشف عن حضوره، ثم يقضى بقية يومه فى صمت مطبق يدس وجهه وقلمه فى " مشاكل الناس "، التى تصله عن طريق البريد أو التى يحولها إليه رئيس التحرير. يحسده كل الزملاء على نشاطه وحيويته وصحته وخلو حياته من المشاكل. حياته الشخصية لا يعرف أحد عنها شيئاً وملامحه الجادة لا تشجع حتى أقرب زملائه إلى الحديث معه أو الخوض فى أمور شخصية. المعروف عنه أن لديه شاباً وشابة تخرجا فى الجامعة ويعملان فى مراكز مرموقة.. سيماء الفلاسفة وسمت المفكرين ترتسم على ملامحه.. أنيق الملبس.. حلو الحديث.. يوزع الابتسامات والسجائر ويخلد إلى عمله. يفخر بأنه قضى حياته الوظيفية دون خصم يوم واحد من راتبه، كما أنه لم يكافأ أيضاً ولم يحصل على علاوة استثنائية أو علاوة امتياز رغم تميزه .. لم يتباه بأصل أو نسب أو أقارب له يشغلون مناصب

مرموقة، كما يفعل البعض ولا يتقرب من رئيس، إلا أنه ينصح صغار المحررين بعدم الابتعاد عن رؤسائهم !.

هناك من دخل المؤسسة معه في نفس اليوم ويتقاضى ضعف مرتبه، إلا أنه لا يبالي ، ففي رأيه أنها " أرزاق "، وكل له رزقه والرزق ليس فقط المال.. الصحة رزق وحب الناس رزق واحترامهم لك رزق واحترامك لنفسك رزق.. ويضحك حتى يبدو أنه يضحك أحياناً بلا سبب. أخذ من الدنيا ما أخذ، وأخذت منه ما أخذت لا يحكي عن ماض.. يشغله المستقبل. شديد الإيمان بأن الحياة تبدأ بعد سن الستين. عندما سأله الزملاء عن ماذا يفعل بمكافأة نهاية الخدمة قهقه قائلا: إنه سيبحث عن مستشفى جيد، يكون فيه التمريض على أحسن مستوى والممرضات فيه أجمل من فنانات السينما، ليرقد هناك بضعة أيام يجري فحوصات وتحاليل طبية، مشيداً بأن الطب في مصر بخير، إلا أن الممرضات غير الجميلات سبب جميع المشاكل الطبية والصحية في مصر !.

من يعرف هانئ الكفراوي عن قرب ــ وهم قلة لا يزيد عددهم على اثنين ــ يعلم أن لديه مشاكل صحية، أجّل التعامل معها منذ سنوات وهو حريص كل الحرص على إخفائها حتى على طبيب المؤسسة ملفه الصحي نظيف لم يتردد على العيادة طوال خدمته رغم إصابته بمرض السكري في منتصف الأربعينات من عمره ووجود مياه زرقاء في عينه اليسرى منذ

سنوات. يظن الناس أنه بلا مشاكل. مشكلته الأولى هى اسـمه " هانئ الكفراوى"، هانئ بالهمزة وليس هـانى. وهـى التـى تؤرقه، يعلق عليها دائماً بقوله: إنه لا يخرج من منزله صباحاً إلا بعد التأكد أن جيبه لا يخلو من بعض " الفكة "، وحفنة مـن الهمزات يوزعها على من ينسى أن يضيف واحدة منهـا إلـى اسمه هانئ... ويضحك !.

هذه هى مشكلته التى لا يعرفها الزملاء ويتندر هـو بهـا ويتندرون بها، حيث شاهد زميل مجموعة من الهمـزات قـد سقطت من جيب الأستاذ هانى.. ويضحك. مشكلته الأخرى أنه " خدوم " بطبعه، يمد يد المساعدة للناس الغربـاء والـزملاء والجيران رغم أن تكليفه بالعمل فى قسم " مشاكل الناس " كان بهدف تكديره وغيرة رئيس سابق منه لأناقته الشديدة وما اشتم منه أنه يتعالى عليه. وجد نفسه فى القسم ولم يشغل باله طوال حياته بمن يرأسه.

تبنى هانئ الكفراوى مشكلتى منـذ وجودنـا فـى مكتـب التأمينات واعتبرها قضيته الخاصة ووعدنى بأن هناك ثلاثـة شهور أمامه قبل الإحالة إلى المعاش، سيبذل كل جهده خلالهـا لتسوية وضعى ومساعدتى وتقديم المشورة والمجيء معى إلى التأمينات.. كشف هانئ لى ما غَمُضَ علىّ وهـو أن مكتـب التأمينات الذى ذهبنا إليه مجرد دكّان صغير وأن العمل كله فى المركز الرئيسى وعلىّ إحضار المستندات لننطلق إلى هنـاك،

مع ضرورة مراجعة موظف التأمينات فى المؤسسة والحصول على صور لجميع المستندات التى لديه الخاصة بملف خدمتى، مع تقديم مشورته الدائمة: " قروش قليلة تمنع بلاوى كثيرة " .. أدار هانئ الكفراوى قرص التليفون ليجيبه على الطرف الثانى " سيد أذى" موظف التأمينات بالمؤسسة، ويوصيه بي خيراً، ويفهمه أنني " سأحلي له بقه "، بعد انتهاء المهمة.. ويضحك !.

هممتُ بالصعود إلى سيد أذى بالدور العلوى. أوقفنى هانئ وطلب منى أن أتعامل معه برفق، فهو يعلم حساسيتى عند التعامل مع الموظفين المرتشين. أوصانى بأن أظهر له بعض الاحترام وأن أجامله بعض الشئ. وأن أخاطبه بلقب أستاذ. هذا اللقب الذي دفع فيه " دم قلبه " ولم يحصل عليه حتى الآن، حيث يعامله الكل باستهانة وعدم احترام، بل كثيراً ما يتطاول عليه العاملون بالمؤسسة ولم ينس أن يؤكد أن سيد أذى هذا ضحية.. ضحية نظام إدارى بأكمله وأن المعاملة المهينة التى يلقاها من كل الناس تدفعه إلى تعطيل مصالحهم والانتقام منهم بطريقة أو أخرى. فقد تعود على الزجر والمهانة ولن يؤلمه مزيد منهما. إلا أن التعامل معه بشئ من الاحترامــع وعده بتقديم قروش قليلة ، قد يمنع بلاوى كثيرة !.

دفاع الكفراوى عن الفاسدين والمرتشين ليس له ما يبرره، إلا أنه دائم الحديث عن أن التبرير فى المسائل الإدارية والوظيفية غير مرغوب فيه على الإطلاق. ورغم صداقتى معه

التى استمرت سنوات لم أقتنع بالكثير من أفكاره، مع أنه هـو الذى وضع فى قلبى كراهية تمثال الكاتب المصري الشهير أول عرضحالجى ظهر فى الأرض. قراءات هانئ الكفراوى قليلـة باستثناء الجرائد ومشاكل القراء التى تصله وعندما يحكى عن شئ قرأه لا يلبس مسوح المثقفين أو يتظاهر بالمعرفة ولكنـه يبدأ حديثه بأنه قرأ كذا فى كتاب لا يتذكر اسمه أو اسم مؤلفـه وكل ما يحكيه مجرد عناوين لا يدخل فى التفاصيل وفيما يبدو أنها لا تهمه!.

حكى لى أنه قرأ فى كتاب عن الكاتب المصرى الشهير أنه كان رأس البلاوى فى مصر الفرعونية. كان يلجأ إليه عامـة الناس لكتابة الشكاوى لرفعها إلى فرعون ولا يكتب إلا بعد أن " يقبض " رغم أنه صاحب وظيفة حكومية يتقاضـى عليهـا راتباً. إذا ذهب المصرى القديم إلى الكاتب ليُملىِ عليه شكواه، عليه أن يحمل معه سلة مليئة بالفاكهة أو الخبـز أو الغـلال. ينظر إليها ويتحسس ما بها قبل أن يكتب حرفاً واحداً فإذا طاب له ما بها، كتب ما يُملىَ عليه دون تحريف وإذا لم يُعجب بمـا في السلة، كتب من رأسه مـا يـؤدى إلـى هـلاك صـاحب الشكوى.. حكاوى الكفراوى مثل قصص الأطفال، شيقة ولذيذة وإياك أن تـستوقفه أو تـسأله أو تمنـع استرسـاله. كلمـة عرضحالجى جاءت من المكتوب الذى يسطره الكاتب المصرى القديم، فهو يقوم بعرض حال الشاكى على أولى الأمر لرفـع

مظلمة أو إحقاق حق وإذا أردت أن تكسب الكفراوى صديقا مثلى، فلا تجادله أو تناقشه، أما مشاكل الناس فلا يمانع من مناقشة أدق تفاصيلها وأحيانا يستشير بعض الأصدقاء في طريقة عرضها أو البحث عن أساليب لحلها .

كرهت التمثال وكرهت المرتشين، ويضحك الكفراوى قائلا: التمثال يزين كل متاحف العالم بعدما صنعوا منه نسخاً غير أصلية والموظف الذي تقول عنه إنه مرتشٍ، له نسخ في العديد من المواقع. قد يكون جالساً على مكتب في حجرة مكيفة الهواء وقد يكون جالساً القرفصاء مثل التمثال والذى يجب احترامه إذا كنت ترغب في إنهاء مصالحك. أوصانى الكفراوى بإظهار بعض الاحترام لسيد أذى حتى أحصل منه على رقم تصدير الملف إلى التأمينات وتاريخ التصدير وطلب منى ألاّ أنفعل أو أثور في حالة اكتشافى أنه لم يرسل الملف طوال السنوات الماضية وأن أستلمه منه بصفة شخصية لتوصيله بنفسى إلى مكتب التأمينات .

(٤)

لا علاقة لسيد أذى من قريب أو بعيد بتمثال الكاتب المصرى من حيث الشكل على الأقل، فالتمثال العارى الصدر.. المفتول العضلات.. الجالس منذ سنوات بثبات وقوة، يقابله جسد ضئيل لسيد واهتزاز فى الحركة عند المشى، فاتساع قدميه عند الحركة، يوهم من يراه أنه يكاد يسقط وجلوسه على مكتبه فى الدور العلوى، فى حجرة بها ثلاثة مكاتب لا يوجد عليها أحد أتاح له الفرصة لتحسس ما فى السلة بأمان، فهو مرتش يلعب أيضا تحت الخمسين طبقا للتصنيف الكفراوى. سيد ليس أسود أو أسمر أو قمحى اللون، فهو فى حاجة إلى الاغتسال لمعرفة لون بشرته الحقيقى. يخفى عينيه وراء نظارة أشك أنها تساعده على الرؤية. كإنسان – من الظاهر – فى حاجة إلى إعادة تشكيل، شعر أشعس وقميص كانت به نقوش فيما يبدو، أكلها الوسخ أو الإهمال ومن الداخل إنسان مطحون يرتكب الكثير من الأخطاء الوظيفية، أغلبها عن عمد وأبسطها عدم إرسال الملفات إلى مكتب التأمينات، إلا أنه لم يجازَ ولم يخصمْ من راتبه طوال حياته تحت دعوى أنه " عبيط "!. عبيط فى كل شئ إلا فى تقييم السلة وما بها من فاكهة أو خبز أو غلال وهو القاسم المشترك الوحيد بينه وبين الكاتب المصرى. لم

يشغل أحد نفسه من العاملين بالمؤسسة بحقيقة اسمه .." سيد أذى " وقد نال أغلب الموظفين والمحررين قسطاً مـــن أذاه. قال البعض إن اسمه الحقيقى مدون فى شئون العاملين " سيد قذى "، وحولت القاف إلى الألف كما ينطق العامـــة اســـم " قاسم". وسواء كان سيد أذى أو سيد قذى، فلا فرق. فالقـــذى هو الرمس الذى تقذف به العين المصابة بمرض أو عـــدوى وهو ما يطلق عليه بالعاميـــة " العمـــاص " .. إلا أن اســـمه ينطبق على سلوكه الوظيفى تماما سواء كان أذى أو قذى ! .

التحق سيد بالعمل فى المؤسسة صبياً وعمل فراشاً لمكتب شئون العاملين. يقف على بابه طوال الوقت. ينقـــل البريـــد والأوراق من مكتب إلى آخر وعندما ثبت أقدامه وأحـــضر لنفسه كرسياً وضعه أمام المكتب بدلا مـــن وقوفـــه طـــوال الوقت.تحول المسمى الوظيفى من " فراش " إلى " خـــدمات مساعدة " إلا أن البعض لا يزال يصر على اســـتخدام لقـــب فراش.

اكتشف أحد الموظفين صدفة حُسْنَ خط سيد والذى كـــان يردد دائما فى ذلك الوقت إن " حُسن الخط من مفاتيح الرزق ".استعانوا به لكتابة الأسماء بخط كبير على الملفات ووعـــده رئيسه بنقله من خارج المكتب بكرسيه إلى داخـــل المكتـــب بكرسيه أيضاً ، ليعمل موظفاً بالقسم الخاص بالتأمينات فـــى إدارة شئون العاملين .

ظل سنوات يدخل المكتب من وقت لآخر لكتابة الأسماء على الملفات، ثم يعود ليجلس على الكرسى أمام باب المكتب مثل بقية الفراشين. عرف عنوان منزل رئيسه ولم يترك مناسبة إلا ويحمل إليه سلة من السلاسل التى تقدم للكاتب المصري! هذه فيها غلال وتلك بها فاكهة وتطور الأمر إلى أن حمل على كتفه خروفاً حياً، هدية بمناسبة قرب عيد الأضحى وحتى تزيد الهدايا، يعيد رئيسه على مسامعه وعده السابق له بنقله إلى داخل المكتب، إلا أن الأمر يحتاج بعض الوقت وموافقة معاون المؤسسة وهو مسمى وظيفى يعنى كبير الفراشين، ثم تأشيرة رئيس مجلس الإدارة، ليخلع سيد ثوب الفراش ويصبح موظفاً .

تكلّفَ الكثير إلى أن دخل المكتب بعد أن اقتطع والداه اللقمة ليقدما جزءاً منها إلى رئيس سيد فى العمل وعندما وضعوا له مكتباً وكرسياً داخل الحجرة وليس خارجها، ظن أن النقلة جاءت بفضل " دعاء الوالدين " وهو لم يدرك أن لحم الخروف الذى أكله رئيسه حرك قلبه ومشاعره ومطامعه فى الحصول على خروف كل عام، بعدما أخبره سيد أن والديه فى البلد قاما بتربية الخروف خصيصاً له تخلى عن تقديم السلاسل الموسمية وبقى الخروف كهدية سنوية قبل عيد الأضحى. يسأله عنه رئيسه من وقت لآخر وكأنه اشتراه من حر ماله وتركه ليربيه له. لا ينسى سيد أذى تجربته المريرة

عندما ضاقت به وبأهله الظروف وفشلوا فى أن يجمعوا ثمن الخروف. كانت الطامة الكبرى عندما حل عيد الأضحى ولم يصل الخروف منزل رئيسه. صبّ عليه غضبه واتهمه بالتهاون والتخاذل فى عمله وطرده من المكتب بدون كرسيه ليعود ليقف أمام الباب ، شأنه مثل بقية الفراشين ! .

أربعة شهور من الإذلال المقيم. قضى سيد أذى شهر ذى الحجة بأكمله يُخصم من راتبه يومان كل ثلاثة أيام، بحجة تأخره عن العمل. اكتشف أن الأمر هو تأخر الخروف وليس تأخره وأصبح " ملطشة " بقية الفراشين. طلب أن يقابل رئيسه أكثر من مرة ورفض مقابلته. استدان من " طوب الأرض " واشترى خروفاً صغيراً بثلاثين جنيها فى ذلك الحين وانتظر رئيسه أمام باب المؤسسة قبل وصول بقية الموظفين ليزف إليه البشرى وأن الخروف قادم على مولد النبى فى شهر ربيع الثانى .

أشاح له رئيسه بيده ولم يعره اهتماماً وظلّ على وضعه واقفاً أمام الباب لمدة أربعة شهور كاملة. توقف الخصم من راتبه، إلا أنه لم يدخل الحجرة، إلا بعد أن حمل الخروف على كتفه وذهب به إلى منزل رئيسه. أعادوه إلى المكتب لحاجة العمل إليه وأعادوا كرسيه، وظل بالمكتب إلى أن تم بناء حجرة مجاورة لشئون العاملين. نقلوا إليها ملفات

التأمينات ونقلوا معها سيد أذى وتعلم الدرس.. خروف كل عام إلى أن خرج رئيسه هذا على المعاش جمعوا بعض الجنيهات لإقامة حفل لتوديعه ورفض سيد أذى أن يدفع مليماً واحداً.. لقد دفع خلال السنوات الماضية ما يكفي من دم قلبه!.

طلبوا منه أن يدفع عشرين جنيهاً اشتراكاً رمزياً للحفل.. رفض.. خفضوا المبلغ إلى عشر جنيهات.. أصرَّ على الرفض.. توسلوا إليه أن يدفع خمس جنيهات حتى لا يغضب عليه رئيسه قبل أن يغادر المؤسسة.. رفض بقوة وسب رئيسه ولأول مرة.. ولآخر مرة، يسمع بقية الموظفين صوت سيد أذى!.

اتصل هانئ الكفراوي تليفونياً من مكتبه بسيد أذى ليخبره أن الأستاذ شاكر لطفي سيصعد إلى مكتبه لانهاء بعض المشاكل المتعلقة بالتأمينات. بمجرد إنهاء المكالمة صعدتُ إلى سيد أذى، لم أجده على مكتبه. الحجرة فقيرة مثل فقره، جرداء خاوية، باستثناء عدد من الدواليب والملفات وثلاثة مكاتب خشبية عتيقة لا يجلس عليها أحد وكرسي عليه فوطة. فوق رأس الكرسي يافطة كالحة اللون، ليست آية قرآنية وليست حديثاً نبوياً، تبدو أبيات من زجل أو شعر تقول: احذر أن تسلم الغير زمامك.. فيصبح من كان وراءك أمامك.. مثل الحقير لا

يكفيه دمارك.. بل يريد أن يبنى نفسه من حطامك.. وأمام مكتبه كرسى يتيم، جلست عليه انتظره. كان فيما يبدو بمكتب مجاور حتى لا يظهر نفسه بأنه ينتظرنى وإذا به يظهر فجأة. يزحف بقدميه على إرضية الممر المؤدى إلى الحجرة ويخفى مشاعره العدائية الحاقدة على كل العاملين بالمؤسسة، وراء نظارته السميكة وخلف أحقاده الدفينة، فهم جميعهم فى قرارة ضميره لا يستحقون خدمة ومن يريد عليه أن يدفع، كما دفع هو طيلة حياته فى هذا المكان اللعين!.

مددت له يدى بالتحية وعملت بنصيحة هانئ الكفراوى بضرورة أن أظهر له قليلاً من الاحترام الذى يفتقده ويزيد آلامه. لم أضيع وقتاً، أشعلت سيجارة وقدمت له أخرى وخاطبته بلقب الأستاذ سيد. مد يده ليأخذ السيجارة واليد الأخرى ليفتح درج مكتبه ليضعها فيه، فهو لا يدخِّن إلا أن هذا لا يمنع أن يحصل على سجائر ليبيعها بعد ذلك لأقرانه من الفراشين. أخبرته بأننى ذهبت مع الأستاذ هانئ الكفراوى إلى التأمينات وطلبوا رقم وتاريخ تصدير الملف إليهم، ولديه كافة الأوراق والمكاتبات. التقط بعض الدفاتر القديمة من فوق دولاب دون أن ينهض من مكانه وبدأ يقلب فى أوراقه ثم فى دفتر ثان ودفتر ثالث. ادّعى كذباً أنه ذهب بنفسه إلى التأمينات وأطلعهم على الأوراق المرسلة إليه، ثم أعادوا له الملف فى نفس اليوم.. المهمة فيما يبدو فشلت مع سيد أذى وإظهار

الاحترام لم يأت بمفعوله، كما أن السيجارة التي قدمتها لا تساوى قيمة شعرة من الخراف التى قدمها لرئيسه وإذا بهانئ الكفراوى يهل علينا لتنقلب الأمور .

لا يخلو جيب هانئ من الهمزات والفكة وضع يده فى جيبه وأخرج عشر جنيهات، لمحها سيد أذى على الفور رغم ضعف نظره، لهفها ووضعها فى درج مكتبه ونهض ليفتح دولاباً من الصاج،عليه عدة أقفال وإذا به يخرج ملف خدمتى القادم من وزارة التربية والتعليم.عرفته من أول وهلة، مظروف أصفر اللون كبير، تآكلت أطرافه بفعل الزمن. وضع الملف أمامنا قائلاً: هذا هو الملف وعليكم الذهاب بنفسيكما إلى التأمينات لإنهاء المشكلة وأضاف: إن الأمور اختلفت هناك والتعامل أصبح في غاية الصعوبة مع الموظفين ولا أحد يؤدى عملاً إلّا بعد أن يقبض. ضغط الكفراوى على يدى وهى إشارته لى بالصمت المطبق، شكره ونطق أمامه اسم رئيسه السابق فى العمل والذى كان لديه القدرة على إنهاء كل المشاكل فى دقائق، لم يتغير لون سيد أذى ، فهو فى الأساس بلا لون، ألاً أنه ترحم على رئيسه بعبارة سمعتها لأول مرة : " الله يرحمه مطرح ما راح ! "..وكأنه يقول: فليذهب إلى الجحيم ! .

(٥)

مشاكل الناس علمت هانئ الصبر واستكشاف ملامح الكذب، فهو ينشر رسائل القراء. قبل النشر يقوم بفرزهـــا وتـــصنيفها والميزة أنه يشعر بالناس فى وقت انعدم فيه الـــشعور. ينـــشر رسائل القراء وكأنها رسائله.هذا عاطل يطلب وظيفـــة وتلـــك ممرضة تتوسل إلى وزير الصحة لنقلها إلى مستشفى مجـــاور لبلدتها، فأجرة المواصلات تلتهم ثلاثة أرباع المرتـــب ولـــديها ثلاثة أطفال فى المدارس فى مراحل التعليم المختلفة..هذه امرأة عجوز مات عنها زوجها وهاجر أولادها أو هجروها واستأسد عليها صاحب المنزل يحاول طردها مـــن شـــقتها ويـــستنجد الكفراوى بوزير الداخلية مطالباً إياه أن يبسط حمايتـــه علـــى العجوز ويحميها من أنياب زمن لا يـــرحم وأطمـــاع نـــاس لا تعرف الرحمة..ويكتب ويكتب وكأنها أمه ويصاب أثناء الكتابة أو قراءة المشاكل بحالة من الوجد يـــصعب وصـــفها . تعلَّـــم الكفراوى ألاَّ يكـــون حـــاداً واكتـــسب صـــفة جديـــدة وهـــى الإلحاح.الإلحاح بأدب وقوة بغير عنف،إلّا أنـــه أدرك بخبـــرة السنين أن المشاكل لا تحل ولكنها تتحلل عندما يموت أصحابها وهناك مشاكل قد تورث ومنها التأمينات.فالتأمينات من المشاكل التى تورث والمعاش حق لأولاد يتامى وأرامل وثكلى ويضحك كعادته ، ويقرأ لى مشكلة.صاحبها يُدعى على أحمـــد علـــى،

يجرى على المصالح الحكومية منذ عام والسبب خطأ في شهادة ميلاده،ففى خانة النوع ، كتب الموظف المخبول أنه " أنثــى "، ومن يقابله من مسئولين يعلمون بأنه " ذكر " وشـــاربه وحـــده إعلان رجولة لا يخفى على أحد.. ويضحك مضيفاً: إن " على" هذا له زوجة وأولاد!.. والناس تضحك ولا تحل له المشكلة .

" تخليص الحق صنعة "، وهى صنعته ولن يتركنى إلا بعد غلق ملف التأمينات اللعين هذا،حتى وإن خرج على المعـــاش. سيقضى جزءاً من وقته فى التحاليــل الطبيـــة والمستـــشفيات والجزء الآخر سيقضيه معى فى مكاتب التأمينات المختلفة علىّ بفحص الملف الذى سلمنى إياه سيد أذى وعلىّ الذهاب إلى مقر الهيئة القومية للتأمينات الاجتماعية لمعرفة الأوراق والمستندات المطلوبة لضم الخدمة السابقة وأن أكتب المطلوب فى كـــشف وسيقوم هو معى باستخراج الأوراق المطلوبة.. ورقة ورقة.. وإذا كنت أرفض تقديم رشاوى أو أخشى من تقديمها،ســيقدمها هو ثم يحصلها منى بعد ذلك، مثلما أخذ مني العشر جنيهـــات التى أعطاها لسيد أذى!.

عندما يستشعر الكفراوى أن الملل تسرب إلى محدثه والقلق يأكله وعيناه لا تستقران على نقطة ثابتة،يخلع من فوق عينيـــه نظارة القراءة وبنبرة هادئة خاشعة يقول:إن الدنيا خلقت فـــى ستة أيام،عبارة لا تنم عن مسحة إيمانية إلا أنها تكشف نوايـــا وظيفية سلوكية وهى التأجيل والتسويف. خلقت الدنيا فى ســـتة

أيام.. دقيقة الصنع والنظام لا يسبق فيها الليل النهــار إلا أنــه يستخدمها بدلاً من " فوت علينا بكرة "، قلقى أغاظ الكفراوى ، فهو لا يحب القلق،بل يمقته والمقت أشد من الكراهيــة. رفــع النظارة من فوق عينيه قائلاً مخيباً ظنوني: إنه سيبدأ العمل فى مشكلتى غداً وظننتُ أنه أدرك صعوبتها وأنه لن يسمعنى كلمة " بسيطة " بعد الآن.. إلا أنه ضحك وقال: " بسيطة، وأبسط من البساطة كمان! ".

طلب منى أن أنسى سيد أذى تماما الذى عطلنى كــل هــذه السنوات.أردف أننى عطلتُ نفسى ولم أفهم كــلام الــشحاذين. وأن " قروشاً قليلة تمنع بلاوى كثيرة " وأننى لو كنت أعطيتــه خمسين جنيها منذ خمسة وعشرين عاما، لكنت وفرت المئــات التى ستدفع، وتجنبت الجهد الذى سيبذل واســتمتعت بالهــدوء واستبعدت القلق وفتح الملف.عدد المستندات بداخله سبعة فقط، وعليه مكتوب ٢٣ مستنداً. مكتوبة بالأرقام والحروف.لقد قلب سيد أذى الملف قبل أن يسلمه لنا وتخلصّ مــن كــل الأوراق والمستندات الضرورية وأعطانا أوراقاً لا حاجة لنا بها فى ضم فترة الخدمة السابقة باستثناء استمارة كرتونية عريضة تحمــل رقماً وحرفين وممهورة بختم النسر القديم وصورة لها بلا ختم، وإقرار ذمة مالية واستمارتى " تقدير كفاية العــاملين " موقعــا عليها من ناظر المدرسة الذى عملت معه فى صــعيد مــصر وإقرار قيام بعمل وشهادة التجنيد، وصحيفة الحالــة الجنائيــة.

سبعة مستندات فقط لا غيــر، أهمهــا الاســتمارة الكرتونيــة العريضة، التي تحمل رقم ١٣٤ع .ح .

" ارمي وراء ظهرك سيد أذى وأذاه ".. وتوجه إلى الهيئــة القومية للتأمينات ولدى صديق يعمل وكيل وزارة سيسهل عليك الأمر وتوالت توجيهات هانئ الكفراوى. كل ما يطلــب منــك اكتبه،أسماء الموظفين الذين ستذهب إليهم دونها في ورقة وتعلم الصبر ومعاملة الموظفين باحترام فاسدهم قبل شريفهم..فالفاسد أكثر حساسية والشريف قد اعتاد على خشونة المواطنين وتعلم كيفية التعامل معهم..وإن لم ينجز وكيل الوزارة،فعليك بالتعامل بطريقتك والدخول مباشرة في عالم السعاة والفراشين والــذين تقول عنهم إنهم يمتلكون مفاتيح هذا البلد ولديهم شــبكة مــن الاتصالات والمعارف وهذا لا يتعارض مع قيمــك الرافــضة لتقديم الرشاوى التي تقدمها للسعاة والفراشين تحت مــسميات أخرى..ووضع هانئ النظارة على عينيه وغاص فيما أمامه من مشاكل الناس المعقدة ونسى مشكلتي " البسيطة " !.

التعامل مع السعاة والفراشين كان الدرس الأول الذى لقنني إياه صحفي عجوز عند وصولي أول يوم للعمل مندوباً صحفياً لجريدتي في إحدى الوزارات.أخبرني أن المسؤلين لا يتحدثون كثيراً،خاصة عندما يكتشفون أن الصحفي يبحــث عــن خبــر ويفرطون في الحديث نفياً أو تأكيداً عندما يحــاول الــصحفي التحقق من خبر لديهم.الأخبار مع السعاة والفراشين،فهم ينقلون

الأوراق والقرارات من مكتب لآخر وأغلبهم الآن يعرفون القراءة والكتابة إلا القدامى منهم والمدخل إليهم بسيط بالفعل. سيجارة تحية،الوقوف أو الجلوس معهم دون تعالٍ،السؤال عن مسقط رؤوسهم وبلدانهم ولا يزيد المبلغ المدفوع لأى خدمة عن جنيه فى صورة بقشيش وليس رشوة .

أغلب السعاة والفراشين من القرى القريبة من القاهرة، الواقعة على السكة الحديد لسهولة المواصلات ورخصها، خاصة أن هذه الوظائف يعزف عنها سكان القاهرة وشبابها وأحياناً تعثر على فراش أو ساعٍ مؤهلات متوسطة.دبلوم تجارة أو صنايع، وبخبرتهم وباحتكاكهم الدائم يعرفون خبايا الموظفين والمسئولين.هذا مدين دوماً وذاك مرتشٍ وهذا الموظف العجوز المتصابى يموت فى النساء والفتيات الصغيرات وله مغامرات وفضائح وهذه الموظفة مزواجة، تزوجت أكثر من مرة.كما أن أصولهم الريفية زودتهم بقرون استشعار عن بعد وعن قرب لمعرفة احتياجات من يعملون معهم،إذا فشل وكيل الوزارة فى إنهاء مشكلتك،فعليك بفراش أو ساعٍ ولا تنسى عمال البوفيه،قالها الكفراوى وضحك!.

حكى لى عن صديقه المسئول هذا وأنه عاد من أمريكا بعد فترة تدريب ومنذ ذلك الحين وقد انقلب حاله،ركبه التمرد واكتشف أنه يعمل في وزارة خدمية لا تقدم خدمات حقيقية ولكنها تتفنن فى تعذيب المواطنين.وهو دائم المقارنة بين أمريكا

ومصر، وهى مقارنة ليست فى صالح مصر بالطبع..كتب لى اسمه على ورقة،وكتب له خطاباً وقال إنه سيتصل به تليفونيــا ليوصيه علىّ وطلب منى ألا أنسى أن أخبره كيــف اســتقبلنى وكيف عاملنى.رغم أن الكفراوى يتمتع بذاكرة حديدية إلّـا أن أهم مفرداته اللغوية فى الحديث " نكرنـــى "..". ولا تنــسى ".. ويعلم أننى لا أنسى مثله إلّا أنه لا ينسى أن يؤكد علىّ ألا أنسى وأن أذكّره!.

وزارة التأمينات والشئون الاجتماعيـــة والهيئـــة القوميـــة للتأمينات الاجتماعية بوسط البلد في القاهرة في موقع شهد أهم حلقات التاريخ المصري في الفرفشة والمسارح والكازينوهات في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي، فهـــي فـــي المنطقـــة المحصورة بين شارعي الألفي وعماد الدين. جميع الـــشوارع المؤدية إلى التأمينات تذكر العواجيز بأيام الطـــرب الأصـــيل، فهذا شارع زكريا أحمد، وهذه حارة علي الكسار. يقع ديـــوان الوزارة ومبنى الهيئة في شارع واكد، المحصور بين شارعي دكة البستان وشارع الألفي .

ومن لا يعرف المكان على وجه التحديد مثلـــي، عليـــه أن يدوخ " السبع دوخات "، فهناك ثلاثة شوارع باسم دكة البستان، كما أن هناك شارعين باسم واكد. لم أضيع وقتاً وتوجهت إلى التأمينات كما نصحني صديقي هانئ الكنزاوي في اليوم التالي مباشرة. تصفحت وجوه الناس صباحاً في شارع عماد الـــدين إلى أن التقى بشارع سليمان الحلبي. انتظرت بعض الوقت عند إشارة المرور ولم أجد من يحترمها، فاخترقت سيل الـــسيارات إلى شارع دكة البستان.على ناصيته سألت عن شارع واكـــد، فأشار لي عابر سبيل ـــ على مضض، دون أن يحرك شفتيه ـــ بيديه الاثنتين تجاه اليمين. نسمات برد تهب لتعلن أن الـــشتاء على الأبواب والساعة لم تدق الثامنـــة بعـــد، فقـــد أخبرنـــي

الكفراوى أن صديقه هذا يدخل مكتبه فى تمام الثامنة والنصف. على ناحية شارع واكد يافطة كبيرة معلقة " جراج الجمهورية" " يسع ٨٦٠ سيارة " وأمامه بناية تحت الإنشاء للبنك المركزى المصرى. تحت يافطة الجراج عربة فول من العربات المنتشرة فى شوارع القاهرة التى تعمل فقط صباحاً وحتى الساعة العاشرة على أكثر تقدير لاستقبال جوعى الموظفين أو المارة الذين يفضلون بدء يومهم بطبق فول بالزيت الحار أو العادى وفحل أو أكثر من البصل.ماذا يحدث لو تناولتُ طبقاً من الفول مع استبعاد البصل ثم التوجه إلى المبنى لمقابلة وكيل الوزارة صديق هانئ الكفراوى؟ قبل التفكير كانت المعدة قد اتخذت قرارها ودفعتْ بقدمى إلى عربة الفول لأقف أمامها.

فى أقل من عشر دقائق وبسبب الواقفين بجانبى الذين دخلوا فى سباق غريب للأكل مع بعضهم البعض،كنت قد أنهيتُ طبقى والتهمتُ رغيفين كاملين ودفعتُ جنيها لا غير.وقفت أتفحص الشارع والمكان..عدد من فروع البنوك بعضها مصرى والآخر أجنبى. قبل التقاء شارع واكد بشارع الألفى تقف بنايتان إحداهما الهيئة القومية للتأمينات الاجتماعية، عددت طوابقها،ثلاثة عشر طابقاً،والبناية الأخرى خمسة طوابق، عبارة " ديوان وزارة التأمينات والشئون الاجتماعية " مكتوبة بحروف نحاسية بارزة وبنفس الحروف على جانب من البناية " صندوق العاملين بالقطاع الحكومى".

تقدمتُ إلى المبنى الأعلى.. شددتُ من قامتي وهندمتُ رابطة عنقي وألقيت التحية على الموظفين سائلاً عن الاسم، ولحقته بكلمة " بك "، فهو وكيل وزارة أولاً وأخيراً ولا يقل عن بك،نهض أحد موظفي الاستقبال وتوجه إلى المصعد، الدور الثالث توقفتُ،نزلت عند مكتب البك،دخلتُ على السكرتارية،في ثوانٍ كان البك يفتح مكتبه ليستقبلني بحفاوة كأنني صديق قديم.فعلاً تدرب في أمريكا وهو أول درس يتعلمه المسئولون هناك،فن الترحيب بالضيف ولا يهمه بعد ذلك ما تقوله له والأهم كيف تقوله ؟!.

طلب لي قهوة،واستمع لمشكلتي.. وعلق قائلا: " بسيطة"..!، يبدو أنه بالفعل صديق للكفراوي كتب اسماً على ورقة، وقف على قدميه،لأقف أنا بدوري وليخبرني بانتهاء المقابلة رسمياً. الأستاذة نجية شمس الدين في المبنى المقابل ستعمل فوراً على تسوية الملف،فالتربية والتعليم قطاع حكومي ومؤسستك الحالية أقرب إلى القطاع الخاص،ستقوم نجية بتسوية الملف ولا تنسى أن تخبرني بما تم وأعطاني كارتاً يحمل اسمه وتليفونه. المقابلة محترمة رسمية ولكنها أثمرت..أخيراً عرفت الطريق وعرفت أن نجية شمس الدين هي طوق النجاة،خرجت من المكتب،لم أتوجه إلى المصعد ونزلت على السلالم،فقد شغلني المبنى من الخارج ومن الداخل،وكنت قد ذكّرتُ نفسي عند دخوله ألا أنسى التجول فيه بعض الشئ.

الطوابق الثلاثة عشر من الخارج،فى أشد الحاجة للصيانة والنظافة،ومدخله البعيد عن ممر المصعد،فى غاية القذارة، أوراق مبعثرة فى كل مكان،الظلمة تغلب عليه،أغلب اللمبات فى حاجة الى تغيير.العديد من كبار السن من مراجعى التأمينات يستريحون بعض الشئ على السلالم،من الخارج علقوا يافطة كبيرة.. نافسوا فيها أصحاب محلات العصير والحلاقين،التنافس في استخدام الآيات القرآنية.محلات العصير اختارت الآية " وسقاهم ربهم شراباً طهوراً "،والطامة الكبرى عندما تشرب عصير قصب من أحد هذه المحلات، فهو لا شراب ولا طهور..وأصحاب محلات الحلاقة علقوا " إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً " وهم لا يعملون أن الفتح الذي تقصده الآية هو النصر ولا علاقة للحلاقة بالحروب،واختارت الهيئة القومية للتأمينات الاجتماعية آية " وآمنهم من خوف ". الفزع، كل الفزع،فى عيون المترددين عليها.. الدور الواحد لا يقل عدد المكاتب فيه عن ثمانية وعشرين مكتبا، توقفت عن العد بعد ذلك، وتحسست الخطى حتى لا أتعثر فى السلالم المظلمة .

المبنى المقابل.. الأستاذة نجية شمس الدين.. أكثر أناقة ونظافة، فعلى يسار المبنى مدخل خاص لديوان الوزارة التى تشغلها وزيرة منذ إنشائها ، الزجاج يبرق والأرضية لامعة، فقد تفكر الوزيرة فى تمشية قدميها وتدخل هذا المبنى لتتفقده وبالتالى به كل الاستعدادات التى تدخل البهجة والسرور على

قلب الوزيرة.. مقاعد من البلاستيك، لونهـــا برتقـــالي جـــذاب لراحة المترددين على المبنى، نافذة واســـعة مكتـــوب عليهـــا " خدمة المواطنين " وشباك آخر مكتوب عليه " منفذ الصرف " ربما يكون لصرف الشيكات المستحقة للمواطنين. مكتب صغير للاستعلامات تجلس فيه سيدة نوبية فى الخمسينات من العمـــر. سألت عن الأستاذة نجية شمس الدين، لم يعجبها لفظ أســـتاذة- فيما يبدو ـــ ردت باقتضاب: الآنسة نجية شمس الدين فى الدور الثانى!.

المبنيان مواجهان لبعضهما البعض،لا يفصل بينهما ســـوى عرض الشارع،إلا أن الفرق شاسع.الموظفون والموظفات أكثر شباباً ونضارة وحيوية،المكان أكثر نظافة،حتى السعاة فرضوا عليهم فيما يبدو ارتداء زى موحد لتعرف لأول وهلة الفرق بين الموظف والساعى،عكس المبنى الأول الذى اختلط فيها السعاة بالموظفين،وإذا بالمصعد يتوقف فى الدور الثانى وتمر علـــى مصلى فُرشت بالحصير البلاستيك،لتدخل فى صـــالة واســـعة كبيرة مكيفة الهواء.المكاتب فيها مرصوصـــة بعنايـــة،دواليب وملفات فوقها تبدو أكثر نظافة،توقفتُ فى منتـــصف الـــصالة تقريباً، أسأل عن الأستاذة " نجية شمس الدين " طوق الـنجاة .

وجدت نفسى أمام موظفة أشارت لى بأصـــابعها للاقتـــراب منها لتسألنى ماذا أريد. الأستاذة نجية شمس الدين..أشارت إلى مكتب خـــالٍ لا يجلـــس عليـــه أحـــد،ويربض فوقـــه جهـــاز

كمبيوتر.ارتد بصرى إليها مرة أخرى وإذا بعينيها تتفحصانى وأهرب بعيونى عنها، تثبت عيونها علىّ..الأستاذة نجية ..مكتبها هنا،إلا أنها غادرت ولن تعود قبل الثانية بعد الظهر وأى خدمة.عرفتها بنفسى وأنا أبعد عيونى-جاهداً- عن عيونها ووجهها.. تأمرنى بالجلوس.. أجلس فى المقعد الوحيد الموجود بالقرب من مكتبها.تخلصت من صدمة الجمال الأولى، فالجمال له صدمة وتجرأت عينى بعض الشئ إلى النظر إليها ملياً وأن أحكى عن مشكلتى البسيطة،تستمع لى بكل حواسها، لم تنشغل فى أوراق أمامها،ولم تقلبْ فى ملفات على مكتبها،تهز رأسها فى إنصات شديد،ليس رأسها كله ولكن ذقنها وحدها، فى حركة رتيبة،هبوطاً وصعوداً على رقبة مرمرية بيضاء،ليست بالمشربة بالحمرة ولا تميل إلى الصفار. العرب القدامى عندهم حق فى اعتبار طول رقبة المرأة من مقاييس الجمال ولا أظن أن العرب وحدهم اختاروا هذا المعيار،فالإغريق أيضا ورقبة تمثال فينوس إلاه الجمال دليل على ذلك،الفراعنة أيضا،لم نرَ رقبة بطول رقبة نفرتيتى أو نفرتاتى الشهيرة.مساحة جرأتى اتسعتْ،غطتْ وجهها كله،عيناها سوداوتان عميقتان،شعرها فاحم السواد، وأناملها التى تتخلله من وقت لآخر بحركة لا إرادية تقتحم أعلى الجبهة .

نجية شمس الدين،تخرج فى كثير من الأحيان من المكتب لإنهاء بعض المعاملات للمؤمن عليهم فى إدارة لاظوغلى،إلا

أنها من أفضل الموظفات عندى وأكثرهن التزاما.علمت من الجملة الأخيرة أن المرأة الجميلة رئيسة كل من فى الصالة من الموظفين.تبدو فى بداية الأربعينيات من العمر،إلا أنها تقدمت بالعمر ولم يتقدم بها.ترتدى بلوزة " ديكولتيه " شفافة مفتوحة الصدر،فتحة نصف دائرية رغم انتهاء الخريف وتبعثر أوراق الشجر فى الشوارع إيذاناً بمقدم الشتاء.سلسلة ذهبية تخطف البصر من لمعانها،فى نهايتها دلاية وجدت لنفسها موقعا مميزاً على صدرها،تكشف الدلاية هويتها الدينية وأذا دققت النظر طويلاً تخرجك من دينك!.

حب الجمال يجمع بينى وبين هانئ الكفراوى،أعشق الجمال الهادئ ويعشق هو الجمال الصاخب المجنون،لديه العديد من النظريات حول الجمالين،ولكن من يأتى لى هنا بهانئ الكفراوى؟!. شعرت بسعادتها من نظراتى المتلصصة،فهناك نمط من النساء لا ينظر كثيراً إلى المرايا الجامدة ولكن يشعرن بلذة عندما تأسرن العيون وعيونى بالفعل أصبحت رهن الاعتقال لا تبرح مكانها..نعم تتحرك ببطء صعوداً وهبوطاً إلا أنها لم تغادر المستطيل الذى صنعته لنفسها،وكأنه إطار لبورتريه جميل ونسيتُ ملف التأمينات وأدركتُ بساطة المشكلة!.

من الممكن أن تنتظر الآنسة نجية فقد ذهبت اليوم إلى لاظوغلى بثلاثة ملفات فقط وقد لا تغيب طويلا.عرضت على

الانتظار إلا أن الجلوس أمامها تحول من متعة إلى قلق.القرط الواسع " الطارة " المتدلى من أذنها يلهب الخيال وحديثها عــن القسم الجديد الذى اختارت الوزيرة موظفيــه بعنايــة وتمــت ترقيتها لترأسه لم يشغلنى كثيرا. جــذبنى اهتمامهــا بالعمــل واستخدام يديها وأصابعها فى الحديث وهو ما لا تفعله الكثيرات من النساء.ركزت بصرى كله على الاكسسوارات،انسيال ذهبى رقيق ينم اختياره عن ذوق رفيع،ساعة يد أنثوية تــشع رقــة وخاتم صغير بفص من الفيروز الأخضر الصافى ولا توجــد دبلة زواج ببنصرها الأيسر أو حتى الايمــن..أعــدت علــى مسامعها اسمى كاملاً شاكر محمد لطفى..ركزت على الاســم الأوسط ولم تتغير طريقتها فى الكلام أو أسلوبها فى الاحتواء. أخبرتها أننى سأعود فى اليوم التالى مبكرا بعض الشئ قبل أن تغادر الأستاذة نجية المكتب متجهة إلى إدارة المعاشــات فــى لاظوغلى. وودعتنى كما استقبلتنى وإن بدت علىَّ الرغبة فــى انتظار الأستاذة نجية حتى اليوم التالى!.

من الرجال من يسئ الظن بالنساء وأنا منهم ، بعكس هانئ الكفراوى الذى يعشق النساء ولا يسئ الظن بهن أبداً، يمــوت فى أحاديثهن ويعلن ذلك بلا خجل ويقارن بين الجلــوس بــين النساء والرجال ويصرح بأنه يفضل الجلوس معهن ، فهن فى رأيه أفضل ورائحتهن أجمل وأحاديثهن أمتع من الجلوس مــع " الخناشير". يقول ذلك دائما.. ويضحك.. لو عرف تفاصــيل

الزيارة الأخيرة لجاء معى إلى هذا المكتب مــن " الفجريــة " ولأقصانى عن المهمة البسيطة تلك فى ضم عدة سنوات إلــى ملف الخدمة ، وجلس هو مع " مارجريت " وطلب منها تعطيل الملف لأطول مدة .

عرفت أن اسمها " مارجريت " رغم خجلى من سؤالى عن اسمها، إلا أننى قبل النزول من مكتبها ، اكتشفت أن البوفيه يقع على يمين السلم، فعرجت إليه لأتنــاول فنجانــاً مــن القهــوة وأدردش مع عمال البوفيــه، فهــم عــالمى الأول وأول درس تعلمته على يد الصحفى العجوز الذى وصف السعاة والفراشين وعمال البوفيه بأنهم كتمة الأسرار ومفاتيح الألغاز فــى كــل دواوين مصر، إلا أن الدخول عليهم يجب أن يكون بحذر، فهم متوجسون بطبعهم من الغرباء أو القادمين الجــدد بمجــرد أن ناولنى أحد عمال البوفيه فنجان القهوة، قدمت له جنيهين وبعد أن تفحصنى، حاول متردداً إعادة جنيه لى، فالقهوة كمــا قــال بجنيه واحد، إلا أننى صممت أن يأخذ الجنيه الآخر كبقشيش .

البداية.. شكرنى بأدب جم، مردفاً إنه شاهدنى منذ ما يزيد عن ساعة عند مدام مارجريت وشكر فيها أيضاً، واستمر فــى عمله فى صب عدة أكواب من الشاى، ليعــاود ســؤالى عــن خدمتى فى هذا القسم.. ضم فترة خدمة سابقة، طمــأننى أنهــم أفضل ناس وسيعملون على إنهاء طلبى فى أسرع وقت. سألته عن الأستاذة نجية متى تأتى ومتى تنصرف؟ فإنها المختصة فى

مثل موضوعى، وصفها بأنها أنشط واحدة فى المكتب، تــأتى أول الموظفين ثم تحمل عدة ملفات وأحيانا يحملها لهــا أحــد العمال لتذهب سيراً على الأقدام من الألفى إلى لاظوغلى لإنهاء مشاكل الناس ومن يرغب فى العثور عليها، عليه الحضور قبل الثامنة والنصف صباحاً وينتظرها بجانب ساعة التوقيع عنــد مدخل المصعد وهناك العديد من المواطنين يفعلون ذلك، أحيانا تعود من الألفى وأحيانا أخرى تنصرف من لاظــوغلى إلـــى منزلها ودعا بأن يرزقها الله بابن الحلال!.

أريد أن أعرف أكثر عن مارجريــت ولــيس عــن نجيــة والأسئلة الكثيرة تثير شكوك العمال والسعاة، كما تعلمت فـــى أول درس، إلا أن ذلك لا يمنع أن مع كل فنجان قهوة أو كوب شاى أحصل على قطعة صغيرة من أخبارها وتاريخها. عرض علىّ إحضار كرسى إذا كنت أرغب فى انتظار الآنسة نجية ، نظرت إلى ساعتى ووافقتُ، فقد مضى الوقت ولن أعود إلـــى مكتبى مرة أخرى،أعطيته ســيجارة وأشــعلتها لـــه، طريقــة الكفراوى فى استدراج الناس وفتح شهيتهم للحديث. قارن عامل البوفيه بين موظفى هذا المبنى والمبنى المقابل، فقد عمل فيـــه لعدة سنوات، كل شئ مختلف وحتى عندما نقلوا بعض موظفى المبنى المقابل، اختاروا أفضل الموظفين فـــى التعامـــل مـــع الجمهور. تحدث عن الذمم الخربة والغلاء وعن موظفى المبنى المقابل الذين لا يؤدون خدمة دون مقابل ورغم ذلـــك كـــانوا

يغالطون فى حسابه، منهم من يشرب أربعة أكواب من الـشاى ويقسم أنه لم يتناول إلا اثنين، ومنهم من يشرب ثلاثة فنـاجين من القهوة وعند الحساب يصر على أنه لم يتذوق القهوة طوال اليوم وأن ما تناوله شاى، لأن سعر الشاى أقل من القهوة بـ " ربع جنيه " .

قال إن الأستاذة نجية لن تغيب طويلاً هذا اليوم، فقد شاهدها عند خروجها من المكتب، كانت تحمل ثلاثة أو أربعة ملفـات فقط، وقال إن مدام مارجريت تدير القسم مثل الساعة، بشوشة وبنت ناس، ألاَّ أنها لا تتهاون فى حقوق المـواطنين بعكـس الرؤساء في المبنى المقابل. لم أكد أن أنتهى من فنجان القهـوة الثانى، ألاَّ وظهرت الآنسة نجية التى أشار عامل البوفيه إليهـا قبل دخولها مكتبها. فى عجالة أخبرتها بانتظارى لهـا طـويلاً وأن موضوعى كذا.. كذا.. فطلبتْ منى أن أحضر ما معى من مستندات فى الملف القديم وأن أحضر إليها فى الساعة الثامنـة والنصف قبل توجهها إلى الإدارة بلاظوغلى، وأنها ستعمل كل ما فى وسعها ودخلت الصالة الكبيرة واتجهت أنا إلى المصعد .

(٧)

هانئ الكفراوى.. زميل.. وجار من نفس المنطقة.. وصديق رغم فارق السن.اتصلت به هاتفياً، أخبرته عن مدام مارجريت الجميلة ولم أزدْ فى وصفها، وتعمدت أن أحدثه بإسهاب عــن الآنسة نجية.. ربما تكون فى بداية الثلاثينـــات مـــن العمـــر.. سمراء بعض الشئ متوسطة الطول، ليست نحيفة ولا ممتلئة ، على ملامحها طيبة.. فى رأسها ثلاث شعيرات بيضاء، بالعدد، تحاول أن تخفيها ألاَّ أنهم أكثر جفافا من بقيـــة الـــشعر ممـــا يظهرهم لعدم توافق نسيجهم مع بقية الشعر.. طلبت منى الملف والموعد غداً.. وماذا عن مارجريت ؟.. يصرخ هـــانئ علـــى الطرف الثانى من الهاتف.. يحاول أن ينهى المكالمة بحجة أنه فى انتظارى فى منزله وعلى أن أحضر الملف الـــذى معـــى لفحصه قبل تقديمه للآنسة نجية ومساعدتى فى ترتيبه، على أن أخبره بالتفصيل والصورة والحركة البطيئة عـــن مارجريـــت، وأنه سيضع الشاى على النار وعلىَّ الحضور إليه قبل غليـــان الماء.من يسمعه وهو يتحدث عن النـــساء، يعتقـــد أنـــه " دون جوان" أو أنه مراهق فى الستين من العمر، أو أنه مصاب بما يسمى " النكوص " ويعيش فترة جديدة من المراهقة المتـــأخرة ومن يعرفه حق المعرفة، يعلم أن حديثه عـــن النـــساء، مثـــل أحاديث الكثير من الناس حول كرة القدم، وهم لم يقتربوا منها

ولم ينزلوا ملعباً ولم يرتدوا شورتاً أو حذاء رياضــياً طــوال عمرهم.. حديثه عن النساء قد ينم عن رغبة بعدما افتقد القدرة، كما يقول ويضحك ويسخر من نفسه! لا يعلم العديد من زملائه فى الجريدة أو حتى أصدقائه أنه تزوج ثلاث مــرات، وطلــق مرتين بعد وفاة زوجته الأولى أم إبنته وإبنه اللذان تخرجا فى الجامعة، وتزوجا وتركا له الشقة مليئــة بــالآلام والــذكريات الباردة، كما يصفها دوما، فهناك كما يقول ثلاث درجات مــن الذكريات، الملتهبة والدافئة والباردة ولا يسمح لأحد أياً كان أن يضيف لهذه الدرجات درجة رابعة أو خامسة، فهو يعلم أكثــر من الآخرين، ويجزم بذلك عندما يتحدث مع من هم أصغر سناً – من أمثالي– وترتسم على ملامحه سيماء الفلاسفة وســمت المفكرين!. على بعد خمس دقائق سيراً على الأقدام من منزلى يقع منزل هانئ الكفراوى فى شارع منصور بحلوان.. مكــون من طابقين.. بنى الطابق الثانى عندما بدأ يفكر فــى الــزواج للمرة الثانية بعد وفاة زوجته الأولى أم عياله، ترك ابنه وابنته فى الدور الأرضى بعد أن أحضر قريبة لهمــا كبيــرة الــسن لتعيش معهما، وتزوج المرأة الثانية فى الدور الثانى وجــاءت الثالثة لنفس الدور وخرجتا منه بالطلاق وخرج ولده وابنته من المنزل بالزواج وعاد ليقيم فى الدور الأرضى، تاركــاً الــدور العلوى.. أمازحه أحياناً قائلاً: إنك فى انتظار المرأة الرابعــة، وماذا عن مقولتك الشهيرة أن الحياة تبدأ بعد ســن الــستين؟،

ويضحك هانئ ويضحكني!.. اليافطة المعلقة على الباب كُتب عليها اسمه: الأستاذ هانئ الكفراوى، ووضع همزة كبيرة على حرف الياء وكأنها عصفور، ورغم ذلك عندما ينادى عليه ساعي البريد لا يقول ألاّ الأستاذ هانى بدون الهمزة وكأنه يتعمد إغاظته.. حملت ملفي وذهبت إليه لم أجد شاياً.. وجدت مائدة عامرة، فالليلة هى ليلة الخميس المسموح له فيها بالسهر منذ أن كان صبياً .أخذ الملف من يدى وضحك قائلاً: اتركه هنا، واحكى لى عن مارجريت.. وحكيت له وتناولنا العشاء والتقط الملف وسألنى ماذا يحمل هذا الملف من درجات الذكريات. فتح المظروف وفتح قلبى معه.. خمس وعشرون سنة من الذكريات، إلا أن الملف يحوى فقط أوراقاً متفرقة لا جدوى منها، بعدما أضاع سيد أذى الموظف المرتشى- عمداً- أهم الأوراق المطلوبة لتسوية المشكلة البسيطة الخاصة بالتأمينات.. استمارة تقدير كفاءة العاملين،أو ما يسمى بالتقرير السرى، لا تهم وغير مطلوبة ووجدت نفسى أدق على صدرى قائلاً لهانئ: الذكريات هنا وليست فى الملف، كلها ملتهبة ودافئة ولم تبرد بعد يا هانئ .. يا كفراوى!.

أول إتاوة أُجبرتُ على دفعها لموظف بوزارة التربية والتعليم، مازلت أتذكر ملامحه جيداً، لم تكن رشوة ولكنها إتاوة، تركه رؤساؤه ليفرضها على الشباب الغض المتخرج حديثاً والذى هرع إلى مبنى وزارة التربية والتعليم لاستلام

خطابات التعيين.. لم تكن خطابات بالمعنى المعروف، نصف ورقة ليست " فولسكاب " وليست بيضاء، ولكنها من الورق الردئ الأصفر الذى كان يسمى ورق " يتشرب " والذى كان يطبع عليه بماكينة يدوية.. ماكينة " استنسل ". أول إتاوة كانت خمسين قرشا.. الورقة مطبوع بها سطر واحد فقط، يقول: المذكور جاء اسمه فى القرار رقم كذا بتاريخ كذا وتم تعيينه فى محافظة كذا، وعليها ختم النسر القديم. هناك ورقة أخرى أكثر تفصيلاً إتاوتها جنيه ونصف الجنيه توضح اسم المدرسة وتحدد المركز بجانب المحافظة .الخريجون الجدد يفضلون الورقة الأولى لرخص سعرها وفى كلتا الحالتين سيذهب المعين الجديد إلى المديرية التعليمية فى عاصمة المحافظة، ليتم توزيعه بعد تقديم مسوغات التعيين. لم تعجب كلمة إتاوة هانئ الكفراوى واستنكر استخدامي للألفاظ الكبيرة وقال بين الغضب والمزاح: لماذا لا تسميها يا شاكر.. يا لطفى، حلاوة التعيين؟!.. دفاعه عن الفاسدين يثير جنونى،ولولا أن معرفتى به تزيد على عشرين عاما، لظننت أنه من شيوخ المرتشين وأبو الفساد.. قلَّبَ فى أوراق الملف وبعثر المستندات السبعة التى به، ثم التقط الاستمارة الكرتونية العريضة وصورتها، موضحاً انهما الورقتان الوحيدتان اللتان تؤكدان أننى عملتُ فى التربية والتعليم!. لن تتسلم منك نجية سوى هذه الاستمارة،وسألنى إذا كنت أعرف دلالة الأرقام والحروف المكتوبة عليها

١٣٤ع .ح، بعد تخمينات ومزاح وتهريج ، أخبرنى أن "ع . ح " تعيين وإحالة حرف الحاء بدلا من الألف لكلمة إحالـــة إلـــى المعاش، من التراث الكهنوتى العتيق الـــذى أورثـــه الكاتـــب المصرى الشهير لأبنائه الموظفين الجدد فى بر مصر ، وضحك وقبل أن ينهى ضحكته كالمعتـــاد، ســـألنى مـــن جديـــد عـــن مارجريت وإذا كنت أعرف باقى اسمها وأدركت لجدية حديثـــه أن الأمر ليس تهريجا وأنها ليست مجرد امرأة جميلة، وربمـــا كان يعرفها يوماً ما .

تشاغل فى بقية أوراق الملف ، يقلـــب فيهـــا ويـــضحك.. استمارة تقدير كفاية العاملين أو التقرير السرى.. أربع صفحات طوال عراض بهما ثلاث مجموعات وأمـــام كـــل مجموعـــة درجات وكل مجموعة تتكون من بنود، من واحد إلى أربعـــة عشر بنداً، ورغم أن هذه الاستمارة تطبع لعدة سنوات ويقـــوم بمراجعتها عشرات الموظفين إلا أن البند السادس قد اختفـــى.. غير موجود، وقد قفز البند الخامس المعنون باســـتعمال وقـــت العمل الرسمى إلى البند السابع مباشرة والذى يحمـــل عنـــوان " القدرة على تحمل المسئولية ".هناك خانة لبيانـــات يـــضعها العامل عن نفسه وأعماله البارزة خلال فترة التقرير مع ذكر ما يؤيد ذلك، كما أن هناك بنداً آخر متروك أيـــضا.. للعامـــل أو الموظف تحت عنوان " العوائق التى يرى أنها تحد من إنتاجه، يليها مباشرة تعليق الرئيس المباشر ثم توقيعه.. توقف هـــانئ

الكفراوى هنا، وقرأ ما كتبت من عوائق.. ثلاث كلمات فقط " يصعب حصرها هنا " وضحك ضحكته، اتهمنى بالجمود وعدم المرونة منذ بداية حياتى العملية حتى الآن، وعلق بطريقته التى يمتزج فيها الجد بالهزل، العوائق " يصعب حصرها.. هنا " وماذا تريد من الناظر أن يكتب فى مرؤوس يتحذلق ويظن أن هناك من يقرأ مثل هذه التقارير وقد يطلبه لسماع شكواه أو مناقشة العوائق وسبل إزالتها. وقرأ بصوت عالٍ تعليق الرئيس المباشر وكأنه يقرأ النشرة الإخبارية فى محطة تليفزيونية " : مدرس حديث يتعاون أحياناً ، يستعمل حقه في الإجازات بمختلف أنواعها ، لا يحرص على المواعيد الرسمية فى معظم الأحيان " ناظر المدرسة .. سيد جوهر " .

سرحت ببصرى بعيداً.. تذكرت أول ناظر مدرسة عملت معه.. سيد جوهر.. وآخر ناظر تركت له المدرسة والتربية والتعليم بأسرها.. محمد عيد. تذكرت أول مفتش جاءنى.. نصر أحمد أو أحمد نصر، لا فرق.. فلم يترك فى صدرى علامة.. وتذكرت آخر مفتشة: جاءتنى مسز نرجس صموئيل.. جاءت فى الوقت الضائع بعدما قررت الاستقالة من التربية والتعليم، وأعددت العدة لمحاربة الدنيا كلها من أجل ترك مهنة الأنبياء.. تركنى هانئ فى صمتى وهو ما يميزه بشدة عن الزملاء والأصدقاء الآخرين.. تركنى حتى عدت إليه ببصرى، ليدقق النظر فى عينى ويسألنى أى درجة من الدرجات– طبقاً

للتصنيف الكفراوى- احتفظ بها هذا الملف طــوال الــسنين!. شريط سينمائى طويل من الذكريات لــيس بــه درجاتــك .. ياهانئ.. ياكفراوى.. الشريط أتلفه سوء الحفظ فغطته الخدوش، إلا أننى أستطيع تمييز الوجوه.. وتذكر المواقف، الصور متآكلة من الأطراف وضبابية بعض الشئ، ألاَّ أنها مرت متــسارعة أمام ذهنى لا أمام عينى.. سيد جوهر ناظر المدرسة.. مدرسة جهينة الاعدادية.. قصير الطول.. جاد.. حازم.. قــاسٍ علــى نفسه وتلاميذه ويحاول ممارسة بعض القسوة على المدرسين.. يرتدى بدلة كاملة فى عز حر الصعيد ويفخر بانتمائه للإخوان المسلمين.. يمارس بلاغته فى خطبة عصماء كل صباح فــى طابور المدرسة، ويؤكد أنه فى شبابه كانت خطبه تهز طهطــا مسقط رأسه، وكان يهاجم عبد الناصر، إلا أننا كمدرسين كنا لا نصدقه، فعبد الناصر أدخل الإخوان السجون والمعتقلات ومنهم من هرب بجلده خارج مصر، ومن بقى دخــل الــشقوق . لا يهمنى سيد جوهر هذا.. يا شاكر.. يا لطفى.. احك لــى عــن مارجريت ويضحك هانئ الذى فتح بأصابعه ملف الــذكريات ورغم توقفى عن السرد، ألاَّ أن الصور تتلاطم فى ذهنى ولــم تتوقف. كان سيد جوهر لا يثق فى المدرسين القــادمين مــن بحرى والذين جاءوا يرتدون بنطلوناتٍ ضيقة وقمصاناً زاهيــة الألوان مشجرة وقد تنتقل العدوى منهم إلى تلاميذ الصعيد، كما أن مدرسين بحرى وأنا منهم، لم نظهر له الاحترام الكافى، ماذا

يفعل بنا هو أو غيره؟ فإلى أين ينقلوننا، إلى السودان كما كان يتندر أحد الزملاء؟!. أعطاني سيجارة وأشعلها لـــي كعادتــه واستأذنتُ في الانصراف على موعد اللقاء في الصباح للذهاب سوياً إلى التأمينات الاجتماعية لإنهاء مشكلتي البسيطة.. وقبل التوجه لباب المنزل تهكمتُ عليه.. بـسيطة يـا هــانئ.. يـا كفراوي! سأردها إليك يوم فرحك الرابع، ويوم أن تخرج على المعاش ولا تجد من تجلس معه.. ضحك.. انصرفت.المـسافة بين منزله ومنزلي.. خمس دقائق سيراً على الأقدام، إلا أننـــي في طريق العودة كنت أتصبب عرقاً وذكريات.. أحمد نصر أو نصر أحمد مفتش اللغة الإنجليزية الذي يأتي بكتلة شعر مـــن قفاه ويثبتها بالصابون على جمجمته الصلعاء.. يرتدي بـــالطو أصفر اللون أو كاكي.. إذا شاهدته فـــي وســـيلة مواصـــلات تتحسس جيبك بحثاً عن التذكرة فقد تظنه الكمـــساري.. يـــوم حضوره إلى المدرسة.. يوم عذاب.. كراسة التحضير يتفحصها صفحة صفحة ويراجع التواريخ.. كراسات التلاميـــذ كلهـــا.. خمسة فصول.. أحملها إليه وأضعها أمامه.. كشوف الدرجات الشهرية لابد أن يوقع عليها.. لا يوجه ولا يعلـــم، ويلعـــن أم وزارة التربية والتعليم التي حولت المسمى الوظيفي للمفتش إلى موجه!.. يتحدث عن الأيام الخوالي عندما كان المفتش هيبـــة وكياناً، ويرتعش المدرسون أمامه، ويلعن مدرسين وتلاميذ هذه الأيام ! .

(٨)

حسب الميعاد، ذهبت مبكراً إلى العمل لأصطحب هانئ الكفراوى معى إلى التأمينات، اتفقنا أن نوقع فى دفتر الحضور ويشاهدنا بعض الزملاء ثم ننسل خارج المؤسسة عند الساعة العتيقة التى يوقع فيها الموظفون والمحررون، اصطدمت بوجه سيد أذى.. صباح لم تطلع له شمس، سألنى: ماذا فعلتَ فى التأمينات؟، وهو يعلم أننى لم أفعلْ شيئا، فهو يتردد على المكتب بصفة يومية ويسأل عمن جاء من موظفى المؤسسة للاطمئنان على ملفاته أو إنهاء بعض الإجراءات. ابتسم ابتسامته الخبيثة التى يصفها البعض بالعبط. وأشار إلى أن الإجراءات قد تطول بعض الشئ ولا أستطيع إنهائها بمفردى كما أن قائمة المستندات المطلوبة طويلة، قد لا أستطيع الحصول عليها، لم أعرْه اهتماماً، ألاَّ أن وجهه المؤذى هذا لا يبشر بيوم طيب وإذا بهانئ الكفراوى يهل.. مرتدياً بدلة أراها لأول مرة.. ورباطة عنق جديدة.. سألته عن سر ارتداء هذه البدلة اليوم.. ضحك، مرر يده على صدر البدلة، قائلا: إنه يرتديها فقط عند مقابلة العظماء أو المسئولين وارتداها اليوم ليقابل بها مارجريت.. وقَّع فى الساعة وخرج من بهو الدار.. ومنه إلى شارع واكد إلى التأمينات الاجتماعية.كانت الساعة تقترب من الثامنة والنصف عندما وقفنا أمام مكتب مارجريت..

قدمته إليها.. الأستاذ هانئ الكفراوى وإذا بها تقف وتمد إليه يدها بالسلام، فهى من قرائه على مدى السنوات الماضية وله شهرة واسعة فى عالم الموظفين والوزارات، فالمشاكل التى ينشرها وخاصة قضايا التأمينات، تقدم إلى مارجريت للرد عليها وإرسال الرد إلى الصحف.. السلام والوقفة ونظرات العيون.. تقول إن العلاقة ليست علاقة قارئة بصحفى تتابع نشاطه، تركتها معه واستقبلتُ نجية شمس الدين التى دخلت الصالة.. لتجلس على مكتبها.. انتظرتُ ثوانٍ.. التقطت أنفاسها.. صباح الخير.. صباح النور.. معى الملف.

أجلستنى على مقعد مقابل لمكتبها.. راجعت الأوراق والمستندات.. ألقت بها كلها كما فعل معى هانئ الكفراوى.. اقفز بعيونى فوق المكتب لأرى الكفراوى فى حديث حار مع مارجريت.. الكلام بينهما لم ينقطع وقد جلس أمامها واضعاً ساقاً على ساق فى هيئة العظماء.. لقد ارتدى اليوم البدلة التى يقابل بها العظماء كما يقول، لابد أنه يعرف مارجريت هذه من قبل،فالحميمية الظاهرة تلك، ليست وليدة اللحظة.. لايهمنى هانئ أو مارجريت.. ما يهمنى هو الملف وسيحكى لى هو - وبالتفاصيل ودون أن أطلب منه- كل ما دار بينه وبين مارجريت.

توافد الموظفون والموظفات.. كل من يأتى يلقى بالتحية على مارجريت ويذهب إلى مكتبه.عامل البوفيه دخل الصالة

يحمل صينية كبيرة عليها عدد من الأكواب.. شـاى سـادة.. وشاى بحليب، يعرف طلب كل موظف وموظفة.. يضع أمامه الكوب، أشار إلى أنه سيأتى لـى فـوراً بـالقهوة وارتـسمت علامات الجدية على وجه نجية، وإذ بى أسمع ضحكة جميلـة لمارجريت.. التفتُ إليها هى وهانئ وأبعدتُ نظرى عن نجية.. أستاذ شاكر.. هذا الملف لا أستطيع تسويته إلا بعد إحضار عدد من المستندات، الملف الذى معى ليس بـه أوراق ذات أهميـة سوى الاستمارة الكرتونية هذه ورفعتَها أمـام وجهـى.. نعـم الاستمارة ١٣٤ع .ح فى غاية الأهمية، وبـدونها لـن يمكـن تسوية ملف تأمينى وبدأتْ تذكر لى أسماء أوراق ومـستندات. طلبت منها أن تكتبها جميعاً فى ورقة صغيرة حتى لا أنـسى شيئاً منها، كتبت: اسـتمارة ١٣٤ع .ح موجـودة، ووضـعت أمامها علامة صح، القـرار الـوزارى بتعيينـى فـى وزارة التعليم.. صورة منه مختومة بختم النسر، صورة مـن حكـم المحكمة الذى تركت على أثره التربية والتعليم، صـورة مـن قرار رفع اسمى من خدمة العاملين بالدولـة مختومـة بخـتم النسر، وعادتْ لتمسك مرة أخـرى بالاسـتمارة الكرتونيـة، الاستمارة مختومة ألاَّ أن الصورة ليس عليها أية أختام، ويجب أن تختم من الصعيد، وأعطت لى الورقة الصغيرة المدون بها المستندات المطلوبة. أحضرَ عامل البوفيه فنجان القهوة.. وما زال هانئ الكفراوى فى حديثه مع مارجريت.

شكرت نجية وتوجهت بخطى ثابتة إلى هانئ ومارجريت.. سألتنى ماذا فعلتُ نجية ونادتْ عليها، أظهـرت لهـا الورقـة الصغيرة المدون بها الأشياء المطلوبة وأعربت عن خوفى من عدم استطاعتى الحصول على هذه الأوراق وتـساءلت عـن جدوى أجهزة الكمبيوتر.. والشبكة القومية والحواديـت التـى يصدع بها رؤوسنا المسئولون فى الإذاعة والتليفزيـون عـن الحكومة الالكترونية.. ضحكت برقة.. شاركها الضحك هـانئ الكفراوى، مشيرا إلى أن الأمر لن ينتهى بين يوم وليلـة ، إلا أن مارجريت أكدت أن العملية " بسيطة ".. مـرة ومـرات .. اسمع نفس الكلمة مما جعلنى أشعر أن هذه الكلمة " شـفرة "، تستخدم بين الموظفين.

التقط الكفراوى الخيط وأوضح أنه أبلغنى منذ البداية ببساطة المشكلة، إلا أنها تتطلب بعض الوقت ، لكنه الآن يريد ألاَّ تحل بسرعة، فهذه مناسبة جيدة ليأتى من وقت لآخر معى، ويجلس بعض الوقت مع مارجريت والتى رحبـت بـالفكرة ورحبـت بمجيئنا فى أى وقت وانصرفنا. الساعة لم تصل العاشرة بعد.. نهاية الخريف من أجمل أوقات القـاهرة.. يختفـى الغبـار.. وينتهى الحر ونسمات الشتاء القادم تأتى من بعيد منعشة. قرر هانئ الكفراوى ألاَّ يعود للجريدة وأن يجلس على أحد مقـاهى وسط البلد.. وسألنى ونحن فى الطريق.. لماذا لم تسألنى عمـا دار بينى وبين مارجريت؟، وهل هناك علاقة سـابقة أم لا ؟،

متى وأين عرفتها؟.. تركته يسألني لمعرفتي الكاملة به وبأنــه سيحكى.. ويحكى كل التفاصيل.. وتفاصيل التفاصيل.. ويحكى عن الأرواح وتقابلها والأرواح وتنافرها وكيف تجتمع الأرواح دون لقاء جسدى وغيرها من الأمور التى يؤكد وجودها، بينما لا أراها أنا سوى خزعبلات ونوعاً من الترفيه النفسى وأحلام اليقظة، هروباً من المشاكل اليومية و حدّتها .

في مقهى " الأمريكين " بوسط البلد، اخترنا طاولة مقابلــة للزجاج الخارجى، نرى من خلالها المــارة. شــباب وبنــات وموظفين جمعهم التزويغ من المكاتب الحكومية أو المــدارس والجامعات، بعضهم يتسكع فى الشوارع دون هــدف لحــرق الوقت والبعض الآخر يبحث عن مبتغاه.. هذا يكتفى بمــشاهدة النساء وهو جالس على مقعد فى مقهى.. وهذه تشاهد فاترينات المحلات بتلكع أو بدلال تبحث عن من يشاهدها وتومئ إليــه بنظراتها لتسحبه وراءها.. تستمع لكلمات الغزل وتكتفى بهــا وتطربها وتسير أطول مسافة لسماع أكبر قدر. مجموعات من تلاميذ وطالبات الجامعة فيهن براءة الشباب وشــقاوته ونــساء محترفات يسرن فرادى.. واحدة منهن مرت أمام زجاج مقهى الأمريكين أكثر من مرة، داعبت هانئ الكفراوى وأشرت إليها قائلا: يبدو أنها تبحث عنك ياهانئ .. هل لديها موعد معك ؟، يضحك ويقول: لم تسألنى ماذا فعلتَ وماذا قلتَ لمارجريت ؟. لم أعره اهتماماً، اكتفيت بالتدخين والحملقة فى خلق الله المارين

فى الشارع.. أفكر فى قائمة المستندات التى طلبتها نجية ومن أين أبدأ.. علاقتى بمارجريت بدأت منذ حوالى ثلاث سنوات، كانت قد أرسلتْ شكوى لنشرها فى الجريدة وعندما عرضت رسالتها على رئيس التحرير رفض نشرها وحذرنى من مغبة الدخول في قضايا إخواننا الأقباط.. واستمر هانئ يحكى وتظاهرتُ بالتشاغل عنه، ليحكى كل ما عنده وليأتى بكل ما فى جوفه وصدره.. عندما رفض رئيس التحرير نشر رسالتها، أرسلتُ إليها خطاباً شخصياً، أخبرتنى فى هذه المقابلة أنه لم يصلها وقد نجحت بطريقتها فى إيجاد مخرج لمشكلتها دون نشرها فى الصحف، ومن هنا أدركتُ وكأنها تعرفنى وأعرفها معرفة شخصية. مشكلتها كانت هى نفس مشكلتى مع زوجتى الثانية.. وهى الغيرة.. غيرة زوجها القاتلة ليس بسبب جمالها فقط ولكن أضيف إليه عجزه واستحالة علاجه كما أجمع الأطباء واستحالة التفريق بينهما وطلاقها بسبب ديانتهما .

" أ كتب إليك بعد أن سُدَّتْ أمامى كل الطرق "، هكذا بدأت مارجريت رسالتها الأولى لى.. وهذه العبارة بالذات يستخدمها أغلب من يرسلون خطابات إلى أبواب مشاكل الناس فى الجرائد وكأنهم يقرأون لبعضهم البعض ويستمر هانئ الكفراوى فى حديثه واستمر أنا فى صمتى، ألاَّ أنه يلكزنى فى كتفى ليحثنى على الحديث معه أو الإنصات إليه، لم أنشر رسالتها الاولى بعد رفض رئيس التحرير، وأرسلت لى رسالة ثانية فى

عدد صفحات أكبر وأطول مما دفعني إلى كتابة خطاب شخصي لها، ووضعت فيه رقم تليفون منزلي .

مارجريت لم تخف اسمها ولم تختزله في الحروف الاولى، كما يفعل أغلب القراء الذين يراسلون الصحف، ولكنها كتبت اسمها كله وطلبت منع نشره والاكتفاء بالحروف الأولى، ألاَّ أن رسالتي كما تبدو قد وصلت إليها رغم إنكارها، وربما تخوفت مني لعدم نشرها في الجريدة، ثم رقم تليفون منزلي واستعدادي لسماع صوتها والاستماع لمشكلتها في أي وقت من الليل أو النهار، عندما قالت لي: إن رسالتي لم تصلها، أكدتُ عليها أنها أرسلتْ لي خطابين، الأول كان يضم الخطوط العريضة لمشكلتها والثاني كان أكثر تفصيلا، قلت لها ربما رقم تليفوني قد جعلها تتردد في الكتابة لي مرة أخرى.. سحابة من الجدية تمر ببطء على وجه الكفراوي لم يضحك كعادته.. ضحكت أنا وإذا به يقول لو استمرت الجلسة بهذا الشكل لن استمر معك، فالأفضل أن نعود للجريدة مرة أخرى، وإذ به ينفعل وهو نادراً ما يحدث، قائلاً: إن من واجب الصديق على صديقه أن يسمعه.. يا أخي.. ما بالك تتجاهلني هذا الصباح.. رغم أنني خرجت معك خصيصاً.. جئت معك للبحث عن حل لمشكلتك ولا ترغب في سماع مشكلتي!.

وقع بلسانه.. وجاءتني الفرصة لأمارس عليه بعض الضغوط وأتندر عليه مثلما يتندر على الخلق، يا هانئ.. يا

كفراوى، لا أعرف إذا كانت هذه مشكلتك أم مشكلة مارجريت الجميلة، لو كانت تخصك وحدك لاستمعت إليك، أما مارجريت هذه.. فلا تهمنى من قريب أو بعيد، وبمجرد انتهاء موضوع التأمينات سيذوب وجهها الجميل المليح، بين صفحات الأيام الكئيبة.. واعتدلت فى جلستى لأسمعه مالا يرغب فى سماعه. استشعر الغدر من نبضات صوتى وهو ما لم يعهده منى طوال علاقتى به التى امتدت لما يزيد عن عشرين عاما.. واستنفر.. واستعد قبل الاستماع لى لتجهيز الردود.. ضحك وأعطانى سيجارة وأشعلها لى!. هذه هى طريقته فى تلطيف الأمور ونزع فتيل المواقف الشائكة، والحقيقة أن علاقتى به وعمقها لا تسمح لى بمهاجمته، ألاَّ أن هناك مساحة واسعة للعتاب والحوار، فهو يحدثنى فيما يبدو عن حالة حب، وأنا فى حالة كرب وغم ، فالأوراق المطلوبة منى لتسوية موضوع التأمينات طويلة ومملة، وهو يرى أن كل شىء بسيط.. بسيط.. لا يستحق التفكير أكثر من دقائق باستثناء حالات الحب، فهو من أشد المؤمنين بقول أم كلثوم.. " كل نار تصبح رماد.. ألاَّ نار الشوق " وحديثه عن مارجريت لا يبدو مجرد الحديث عن قارئة له.. استنجدت به فى رسالة لم ينشرها وأرسل لها أكثر من رسالة ولم تجب عليها ولم تتصل به تليفونياً، بل أنكرت وصول رسالته لها من الأصل، الموضوع أكبر مما أتخيل!. الحروف والكلمات والرسائل التى مضى عليها ثلاث وأربع

سنوات كما يقول، تحولت إلى كيان مجسد.. لحم وشحم ودم وعواطف، بعدما التقى بها معي.. وقد يكون قد رسم لمارجريت هذه صورة فى خياله، فإذا بالواقع أجمل وسماع صوتها غير تخيله والجلوس أمامها ومعها غير الجلوس مع الرسائل والخطابات.. كما أن هانئ بالفعل كتلة من العواطف.. يتألم لمواجع الناس الذين لم يعرفهم ولم يقابلهم وها هو التقى بها.. وتذكر رسالتها ويكاد يحفظها عن ظهر قلب وكيف أن غيرة زوجها دمرت حياتها وعجزه أفقدها الإحساس بأنوثتها التى لم تشعر بها منذ أن اقترنت به.. كما أن ما يجمع بينها وبين هانئ الكفراوى من غيرة زوجها عليها، وغيرة زوجته الثانية والتى أدت فى النهاية إلى الطلاق، ليست السبب الأساسى فى سيطرتها الكاملة على تفكيره منذ الساعة الثامنة والنصف حتى الثانية عشرة ظهراً.. هناك شئ ما يخفيه عنى!.

لا أحب أن أغضب الكفراوى، فهو "حبوب " بطبعه كما أن حبه للناس والإخلاص فى خدمتهم يفرض علىَّ، ألاَّ أطعنه فى مشاعره أو أسخر منها، نعم إنه يقترب من الستين، ألاَّ أن القلوب لا سلطان عليها وسبحان مقلب القلوب.. المكان أصبح مكتظا بالرواد والتكييف أصبح تأثيره شبه معدوم ويبدو أن الناس استنشقت الأوكسجين الموجود فى " الأمريكين " بشراهة، ورغم الجلبة والضوضاء على الموائد القريبة والبعيدة إلاَّ أن الصمت يغلف مائدتنا بغلالة غريبة فصلت بينى وبين

الكفراوى، والصداقة تستلزم أشياء عديدة منها احترام مشاعر الصديق، حتى ولو كنتَ تراها تافهة.

وجدت نفسى اقتحم عالم الكفراوى، قائلا له: يا هانئ.. يا كفراوى.. الحياة تبدأ بعد سن الستين، ويبدو أنك كنت على موعد مؤجل منذ سنوات مع مارجريت.. لمعت عيناه وانحنى قليلاً للأمام واستعداد لحديث طويل: بالفعل ، يبدو أن الموعد كان مؤجلاً طوال هذه السنوات يا شاكر.. يا لطفى.. لم أتخيلها بهذا الجمال والشباب والحيوية، وفوق ذلك كله رقة وانسانية واحترام لمشاعر الآخرين، لقد كرهت زوجها هذا، ألاَّ أنهما عملت بقدر استطاعتها على ألاَّ تحرجه أو تزيد جروحه.. عاملته على أنه مريض والمرضى يستحقون الشفقة.عندما تأزم الموقف بينهما، وكان لابد من الانفصال - وهى تعلم صعوبة أو استحالة هذا المطلب- اتفقتْ معه على خروج بالتراضى من أزمتها، فالطلاق عندهم لايتم ألاَّ بعلة الزنا وهو ما لم يحدث منها لتدينها، ولم يحدث من طرفه لعجزه، ولم يكن أمامهما ألاَّ خروج أحدهما من الملة.. وافقت أن يخرج هو.. لا هى حفاظاً على كرامته. وكأنه هو الذى هرب منها وليست هى!.

غيرة زوجها عليها، ذكرته بغيرة زوجته الثانية، لم تكن تغار عليه ولكنها غارت من صور زوجته المتوفية. كان دائم الجلوس مع ابنه وابنته فى شقة الدور الأرضى والتى لم يتغير شئ من أثاثها .. الكراسى، وحجرة الصالون والسفرة والأهم

صور زوجته المعلقة على الجدران.. كانت زوجته الثانية تتهمه بأنه يجلس فى الدور السفلى ليس مع أبنائه ولكن مع صور زوجته.. اشتدت عصبيتها وشجارها بسبب وبدون، حولت حياته إلى جحيم.. قلل عدد جلساته فى الشقة وبدأ ابنه وابنته يصعدان إليه، ألاَّ أنها أصرت على إزالة الصور من فوق الجدران وتدخل أهلها وأهله.. وقالوا إن سبب عصبيتها تأخر الحمل وستتغير الأحوال إذا رُزِقتْ بطفل ولم ترزقْ.. اجهضتْ أكثر من مرة، وبعد كل مرة تشتد المعارك بهدف إزالة صور زوجته أم طفليه.. تشبثَ بالصور والماضى والذكريات، وعندما تعقد الوضع وشعر أنها أفقدته هدوءه وتوازنه النفسى وأفقدته ضحكته الشهيرة، لم يجد مفراً من تسريحها بإحسان.

من خلال الزجاج " الفاميه " شاهدنا أمين شرطة يحاول أن يمنع سيارة من الوقوف أمام المقهى مباشرة، إلا أن الشخص نهره بشدة وأغلق باب سيارته بعنف وتوجه إلى داخل " الأمريكين ".. وحتى يزيل أمين الشرطة الإهانة التى لحقت به أمام المارة، ألصق ورقة مطبوعة " مخالفة " على زجاج السيارة الأمامى واختفى من المكان والذى تعلوه يافطة كبيرة تقول " ممنوع الانتظار "!.. تعرف الكفراوى وأنا على صاحب السيارة بمجرد ترجله منها، إنه أحد مسئولى الأحياء المعروفين.. جاء إلى مقهى الأمريكين ليس هروباً أو تزويغاً من مكتبه ولكنه فيما يبدو لاستلام رشوة وبمجرد دخوله، وقف

الكفراوى ليحييه ويستقبله ويصر على أن يجلسه معنا على الطاولة فى محاولة مكشوفة لتعطيله وإفساد عملية الفساد المنتظر إتمامها على مقهى " الأمريكين ". تعلل المسئول بأنه ينتظر شخصاً ما، ألاَّ أننى لحقت الكفراوى وساندته بكلمات الترحيب وأشرت عليه بالجلوس معنا إلى أن يأتى ضيفه. جلس متململاً وعيناه تجوب أرجاء المكان وتخترق الزجاج لتنظر للمارة فى الشارع بعدما خلع نظارته الشمسية.

الكفراوى فيما يبدو يعرفه معرفة شخصية، ذكره بآخر مرة عندما التقى به فى مرسى مطروح،عندما كان يشغل منصباً فى أحد المجالس المحلية هناك قبل أن ينتقل إلى القاهرة.. تحدثنا سوياً عن مشاكل العاصمة الكبيرة، وتطرقت كعادتى عند لقاء أى مسئول للحديث عن فساد الذمم والأخلاق، بالمناسبة لا يقلق الحديث عن الفساد السادة الفسدة فهم أقدر الناس على الخوض فيه والهروب منه حتى أمام النيابة والقضاء.. تنهد وضحك وقال إنه يبحث عن وساطة للعودة مرة أخرى إلى مرسى مطروح حيث الهدوء والسكينة. قدم له الكفراوى سيجارة وقدم لى أخرى وأخرج المسئول ولاعته الذهبية من جيبه لإشعال السجائر لنا.. " ديبون ".. الولاعة ذهب وليست مذهبة أو مطلية.. وفوق قلبه، فى جيبه قلم " ديبون " أيضا من الذهب، هو فى الغالب طاقم هدية أو رشوة.. يأتى فى علبة من القطيفة

الحمراء تحتوى على ولاعة وقلم حبر أو جاف وزراير قميص من الذهب الخالص!.

الحديث عن الفساد أصبح أكبر من حجم الفساد نفسه والصحف تكتب وتلوث سمعة الأبرياء.. جملة استهلالية. بدأ المسئول بها حديثه كما يفعل دائما كل المسئولين، ألاَّ أنه لم ينكر وجود فساد حتى داخل الصحف، مركزاً نظراته علىَّ وعلى الكفراوى.. وافقناه بالطبع، ألاَّ أنه ألقى باللوم -فساد الذمم وخراب الأخلاق- على " الثعالب الصغيرة ".. صغار الموظفين وليس كبارهم، وانتفض فجاة واقفاً، فقد أتى ضيفه، بل ضيفان.. استأذن منا وهرع لاستقبالهما والجلوس على منضدة أخرى. لم يمكثوا إلا لحظات وخرج الثلاثة إلى السيارة.. ضيف بجلباب بلدى يبدو مقاولاً أو صاحب أحد الأبراج تحت الإنشاء بصحبة شاب أصغر سناً، يرتدى بدلة كاملة ورباط عنق.. يبدو وسيطا للرشوة كما سماها الكفراوى باسمها الحقيقى لأول مرة وأبدى إعجابه الشديد بتعبير " الثعالب الصغيرة "، الذى صرح به المسئول الذى ينتمى الحيتان الكبيرة!، وإذا به يمسك بيدى ليستنهضنى.. ويلكزنى فى كتفى.. وينصحنى بعدم التفكير فى مشكلة التأمينات على الإطلاق.. لأنها بسيطة وأبسط من البساطة.. ويضحك .

أبحث عن مكان مرتفع عندما تضيق بى الأرض، عملا بنصيحة صديقى هانئ .. مكان ليس بشاهق حتى لا أحلق فى

الخيال، وليس بمنخفض حتى لا تشتت الضوضاء ذهنى.. مكان أرى منه مصر وأبراجها.. عماراتها وخرائبها.. تلك اللوحة السيريالية التى يقول عنها هانئ: إنها لا مثيل لها فى العالم، عشوائيات فى أحضان أحياء راقية لا خطوط فيها لارتفاعات ولا وجود فيها لتنظيم، لوحة سريالية خارج إطار القانون، يكشف قبحها الفساد.. لأكتشف بعد تأمل يطول أو يقصر أن مشكلتى بسيطة، وأنها جزء من مصر المحروسة!

(٩)

بالفعل.. مشكلة التأمينات بسيطة.. أخيراً اقنعت نفسى.. بمجرد إحضار المستندات المطلوبة والأوراق سيصبح كل شئ " تمام ".. أخرجت من جيبى الورقة الصغيرة التى كتبتها نجية شمس الدين بخط يدها ونظرت إليها نظرة أخرى.. استمارة ١٣٤ ع .ح موجودة ومختومة، ألاّ أن صورتها لم تمهر بختم النسر وعلى الذهاب إلى الصعيد.. وتحديداً إلى سوهاج لختمها ولتكن رحلة الصعيد هى آخر خطوة. القرار الوزارى بتعيينى فى التربية والتعليم ومكانه بالطبع وزارة التربية، ثم حكم المحكمة وصورة منه وقرار رفع اسمى من خدمة المدنيين العاملين بالدولة وهما بالطبع موجودان لدى، وفى الغالب فى منزل الأسرة.. حيث تحتفظ أمى بكنبة " اسطمبولى " عتيقة.. بها " سحارة " كبيرة.. كنا نضع فيها أوراقنا وشهاداتنا وغيرها من المستندات المهمة، قبل أن تصبح المكتبات جزءاً من الأثاث المنزلى.. العثور عليهما ليس بالصعب ولكن يتطلب البحث عنهما ليلة أو أكثر.. أتفحص كل الأوراق والمستندات الموجودة فى " السحارة " واستخرج المهم منها، وأحمله إلى شقتى. لأضعه فى ملفات بلاستيكية واختار لها مكاناً فى

مكتبى.. حتى وإن شاعت الظروف للبحث عن ورقــة مــا أو مستند بعينه لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ولا " أدوخ الــسبع دوخات ".

يوم جديد من العمل، اصطدم فيه بوجه ســيد أذى والــذى أصبح ضيفاً ثقيلاً على قلبى حتى فى أحلامى.. قــابلنى فــى مدخل المؤسسة.. ألقى التحية وجزَّ على أسنانه فيما يعتقد أنها ابتسامة. وسألنى عما فعلت فى التأمينــات، وبــنفس طريقتــه أخبرته كذباً بأن هناك فى التأمينات فى المقر الرئيسى- وهــو المكان الذى لا يذهب إليه - من سيقوم بتسوية الملف كله وأن الأمر لن يستغرق أكثر من أسبوع وأن الموضوع فــى غايــة البساطة، خاصة وأننى كنت أعمل من قبل فــى وزارة تابعــة للقطاع الحكومى والغرض من كذبى ألاَّ أجعله يتشفى فىَّ وأنْ أشعره بأنه لا قيمة له وأن أثير غيظه كما فعل بى.. وأضــفتُ فى حديثى له إننى سمعت أنه سيحال إلى المعاش الشهر القادم وقد قدم طلباً لتجديد خدمته لمدة عام وأن طلبه رفــض لعــدم حاجة المؤسسة إلى خدماته، خاصة أنه لم يقدم لأحد أية خدمات طوال خدمته فى المؤسسة منذ أن كان يعمل فراشاً.. وضحكت فى وجهه ضحكة الكفراوى وصعدتُ على الــسلالم حتــى لا أدخل فى المصعد! ولم أتبين لون وجهه إذا كان تحــول إلــى الاصفرار أو الاخضرار !. فى المساء جلست على كنبة أمــى " الاسطمبولى "، هذا المسمى الذى لا يعرف أحد من أين جاء،

ألاَّ أن أحد النجارين من كبار السن والذى يزعم بمعرفته بكافة الأسماء، يؤكد أن هذه " الكنبة " أو الأريكة التى تتجد حوافهـا بالقطن، وتوضع عليها مرتبة ومساند، جـاءت لمـصر منـذ العصر العثمانى " واسطمبولى " هذه نسبة إلى اسطنبول إحدى المدن التركية الشهيرة.. جلست على الكنبة وسـألت أمـى إذا كانت " السحارة " مليئة بالأوراق والصور كما كانت، أو أنهـا تخلصت من بعض أوراقها. سألت عن سبب اهتمامى المفاجئ بهذه الأريكة والتى كنت لا أرتاح فى الجلوس عليهـا بـسبب صلابة مرتبتها. أخبرتها أننى أبحث عـن بعـض الأوراق.. اشترطت أن أعيد ترتيب كل شيء، وألاَّ أتـرك لهـا " الـدنيا مقلوبة " بعد العثور على ما أرغب .

إنها ليست كنبة.. أو سحارة.. إنها مغارة " مغارة على بابا " دون ذهب أو ياقوت أو مرجان، أحمـدك يـارب.. مرتبـة.. منسقة، ألاَّ إنه لايمكن العثور على ما أبحـث عليـه، ألاَّ لـو أخرجت كل ما فى جوف السحارة وجلـست علـى الأرض.. رزمة من الصور، أوراق.. مستندات.. توكيلات من الـشهر العقارى، سألتنى أمى عما أبحث.. أخبرتها.. وأضفت إليها أن هذه الأوراق أحتاجها لضم فترة التأمينات السابقة فى التربيـة والتعليم. وبَّختنى لتكاسلى طـوال هـذه الـسنوات واتهمتنـى بالإهمال، فالمعاش بعد عمر طويل يصبح النـاس فـى أشـد الاحتياج إليه، وبعد عمر أطول فالأولاد فى احتياجـه، حيـث

أصبح لدى من الأولاد والبنات أربعة واستمرت فى تـوبيخى كأننى طفل.. مشكلة الآباء والأمهات تتلخص فى أنهم يظلـون طوال عمرهم يعاملون أولادهم حتى وإن بلغوا الخمسين مثلى على أنهم أطفال ، فى حاجة إلى توجيه ونصائح .

لا أرغب فى مقاطعتها.. أو إبعادها عـن كومـة الأوراق والصور التى أخرجتها من قاع السحارة، فإذا بهـا تنـصحنى بضرورة استخراج بطاقة تموينية بمجرد الانتهاء من مـشكلة التأمينات. فقد عاد الناس مرة أخرى إلى البقال التموينى والأيام القادمة لا يعلمها ألاَّ الله وعلىَّ ألاَّ أهمل أو أتكاسل، بل أُسـرع لاستخراج بطاقة تموين، ولـست أحـسن حـالاً مـن الـذين استخرجوها وإن كان أغلبهم باشوات، إلا أنهم لا يتركون شيئاً لبقية الناس. مددت يدى لاستخراج أشياء أخرى، ملابس ليست قديمة ولا جديدة فى الوقت ذاته، أقمشة، خلاط كهربائى تعرفت عليه بمجرد رؤيته، كنت اشتريته لها منذ ثلاثين عاماً أو أقل.. مازال فى علبته.. مخرطة ملوخية حديدبة، سألتها عن سـبب تخزين هذه الأشياء فى السحارة، أجابت ببراءة وخفة دم كبـار السن، إن الخلاط والمخرطة ستهديهما إلى ابنتى الكبرى عندما تتزوج!، ابنتى الكبرى مازالت طفلة ومع التطور قد لا تحتاج إلى المخرطة وقد تختفى الملوخية تماماً عندما تصل إلى سـن الزواج . انصرفت أمى لإعداد الشاى، فأنا عندها اليوم ضيف وإذا بصبغة الكفراوى تحل فى وجهى بدون مقدمات – أشـعر

وكأنَّ الكفراوى يتقمصنى أو أننى أتقمص شخصيته!.. أضحك ضحكته وأسأل نفسى عن العلاقة بين التأمينات الاجتماعية وبطاقة التموين وأخشى أن أسألها فتجلس وتحكى لى وتضيع وقتى ولا أبحث عما جئت من أجله ولكنها فيما يبدو مثل هانئ الكفراوى تعرف مالا أعرفه وأوسع منى خبرة.. وهمهمت لنفسى.. العلاقة بين التموين والتأمينات واضحة.. وفى الوزارتين موظفون وأوراق وأختام وبطاقة التموين لا تقل أهمية عن التأمينات، فكلاهما من ضرورات الحياة الآن وكلاهما يتطلب إنهاؤه عناء ومشقة ومشاوير ومقابلة موظفين صغار وكبار وقد تكون أمى بفطنتها أدركت أننا سنعود من جديد إلى طوابير الجمعية التعاونية وطوابير المخابر والأفران .

رزمة كبيرة من الصور القديمة مربوطة بأستيك.. صور من المدرسة الثانوية وأخرى فى الجامعة.. تفحصت إحداها والتاريخ المكتوب خلفها.. زملاء وزميلات.. هذا محمد أبو المعاطى وهذه كاميليا أحمد يوسف وهذا كمال عطعوط وهذا لطفى المهدى.. وآخر يقف فى نهاية إطار الصورة، ألاَّ أن ذاكرتى لا تستحضر اسمه على الإطلاق رغم مقابلتى له مراراً وتكراراً منذ تخرجنا فى الجامعة.. هذا كرم نصار الذى هاجر لأمريكا وتزوج من أمريكية ، صورة أخرى.. خلفيتها اللوحة الجدارية المعلقة فى مدخل الكلية.. بها مجموعة أخرى من

الزملاء والزميلات.. منهم زميلة أصبحت نجمة سينمائية وعندما يستضيفونها فى التليفزيون تتحدث عن أيام الجامعة، إلا أنها تتحدث عن كلية أخرى غير التى كنا ندرس بها!.

لو ظللت اتطلع إلى الصور وأخوض فى الذكريات لن أعثر على الأوراق المطلوبة، أترك رزمة الصور جانباً وإنهض لأدخل رأسى ونصف جسمي فى السحارة.. أعثر على ثلاث علب أسطوانية من الصفيح أو الزنك.. آه.. هنا تحفظ الأوراق والمستندات.. ثلاثة أحجام مختلفة.. لكل منها غطاء.. لم يفتح منذ سنوات.. بذلت جهداً ورفعت غطاء العلبة الاسطوانية الأولى.. نعم إنها حافظة المستندات القديمة، والتى لم يعرف أهلنا غيرها فى الزمن القديم.. كان سمكرى بوابير الجاز يصنعها ويلحم أطرافها بالقصدير ، وتصبح محكمة لا يدخلها هواء أو ماء أو رطوبة.

عثرت فيها على وثيقة زواج أبى من أمى وقرأت قيمة المهر، المقدم منه والمؤخر، ووجدت شهادات ميلاد جميع إخواتى الأصلية، حيث كان الأهل يحتفظون بالأصول ولا يقدمون للمدارس عند التحاقنا بها سوى مستخرجات رسمية لشهادات الميلاد.عثرت على شهادة الثانوية العامة الخاصة بى وشهادة تخرجى فى الجامعة.. الشهادة الكرتونية الأصلية والتى لم يطلبها أحد منى حتى الآن، وأشك أن هناك ملفاً وظيفياً فى مكان ما ببر مصر يحتوى على شهادات التخرج الأصلية،

فهناك عرف بالاكتفاء بالشهادة الورقية المؤقتة والتـــى يمكـــن شراؤها أو " ضربها " بلغة السوق عند أى مزور هاوٍ ولــيس محترفاً ! .

جاءت أمى بالشاى على صوتى عندما هللتُ فرحاً لعثورى على الأوراق. فى العلبة الاسطوانية الثانية وبمجرد رفع الغطاء وجدت قرار رفع اسمي من الخدمة في ورقة واحدة ملفوفاً فى أربع ورقات " فولسكاب " من الحجم الكبير، بها حكم المحكمة بترك الخدمة، منظر الأشياء المبعثرة أثار استياء أمـــى.. لـــم تشاركنى الفرح بالعثور على المستندات والأوراق ولكنها طلبت بلغة الآمر الناهى ألاَّ أغادر شقتها، إلا بعد إعادة المكان إلى ما كان عليه، فامتثلت للأمر على الفور واستأذنتها فى أخذ رزمة الصور وعلى الفور وضعت كل الأشياء والعلب داخل جــوف السحارة دون ترتيب. وضعت المرتبة والمــساند.. وغـــادرت المكان غير مصدق أننى عثرت – وفى أقل مـــن ســـاعتين أو ثلاث – على ما كنت أظن أن العثور عليه وإمساكه بيدى قـــد يستغرق شهورا .

(١٠)

بمجرد عودتى إلى منزلى ، اتصلت بهانئ الكفراوى، أزفُّ إليه البشرى بعثورى على أهم مستندين حتـــى الآن، وإذا بـــه يطلب أن أحضرهما للمكتب فى الغـــد، لنتوجـــه ســـوياً إلـــى مارجريت ونجية، ضحكت ضحكته وبصوت أعلى منه وبلغـــة حازمة أخبرته أننـــى ســـأذهب وحـــدى إلـــى نجيـــة ولـــيس لمارجريت.. اتهمنى بـــ " قلة الأصل " والتخلى عنه عند أول محطة، ألاَّ أنه لن يتركنى وحدى فهو يعلـــم مـــا لا أعلمـــه.. ويعرف ما لا أعرفه وأننى لن استطيع الاستغناء عنه أو عـــن خدماته ونصائحه، واستمر الحوار طويلا.. أراوغه ويراوغنى. أقول له إننى قد لا أذهب إلى التأمينات ألاَّ بعد استكمال كافـــة الأوراق.. فيقول: مارجريت قد تكتفى بمـــا أحـــضرت مـــن مستندات، فكلها تدل على إنك كنت تعمل بالتربيـــة والتعلـــيم، تركتها بحكم محكمة ومعك قرار برفع اسمك من الخدمة. اتفقنا فى النهاية على استكمال حديثنا فى الجريدة، على أن أحـــضر معى الأوراق!.

لا أعلم قصة سيد أذى معى، فقد أصبحت أراه بصفة يومية وللأمانة لا أرغب فى رؤيته ، فهذا العذاب كله بسببه وإذا بـــه يتقدم نحوى قبل أن أدخل المؤسسة.. يجر رجليه.. يحدث بهما صوتاً وكأنَّه فحيح.. بعد المسافة منحنى فـــسحة مـــن الوقـــت لتفحصه.. التصاق فى الفخذين وقدمان غير متزنتين.. يتأرجح

يميناً ويساراً كخروف أثقلته أليته.. تقدم نحوى بمذلة تبدو أنها من صفاته الطبيعية عندما يكون له طلب. سألنى عن حقيقة ما أخبرته به من قبل بأن طلب التجديد الذى تقدم به تم رفــضه، سألنى عن مصدر الخبر. سألته عن حاله و شجعته أن يــشكر الله لخروجه من هذه المؤسسة على قدميه وألقيت بجملة هـــانئ الكفراوى فى وجهه.. الحياة تبدأ بعـــد الـــستين.. جـــزّ علـــى أسنانه.. تركته يأكل بعضه غيظاً.. متمتماً لنفسى " افعـــل مـــا شئتَ.. كما تَدين تُدان ".

عند دخولى إلى صالة التحرير، تهلل الكفراوى فرحاً وحثنى على الاستئذان للانصراف من المكتب مبكـــراً للـــذهاب إلـــى مارجريت!، وضعت الأوراق التى معى على مكتبـــه وإذا بـــه يضع نظارة القراءة على عينيه.. حركة لا إرادية.. قرأ القرار وقرأته معه، لقد كانت فرحتى بصدوره لا تقل عن رغبتى فى الهجوم على القاضى الذى أصدر حكما لصالحى.. كنت أرغب فى تقبيله وشكره، فقد صدر القرار من الإدارة التعليمية بعـــد ٢٨يوماً من صدور حكم المحكمة ، وامتثالاً لأمر القضاء .

قرار رقم (٨٣) بتاريخ كذا

برفع أسماء العاملين من الخدمة

بعد الاطلاع على القانون رقم ٤٧ لـــسنة ١٩٧٨ بنظـــام العاملين بالدولة وبعد الاطلاع على ما يلى:

ـ حكم محكمة مجلس الدولة .

ـ محكمة القضاء الادارى .

دائرة التسويات (١)

قرار.. أولا: رفع اسم المذكور اعتباراً من التاريخ وللأسباب الموضحة.. الأسباب انقطاع عن العمل وحكم المحكمة.. لم يشر القرار الإدارى إلى الاستقالة المقدمة حتى لا تفتح الأبواب أمام المدرسين فى الاستقالة!.. " هذا القرار فى غاية الاهمية " وتقمص الكفراوى شخصية نجية شمس الدين ومارجريت فى آن واحد، ألاَّ أنه لم يرشق أصابعه فى مقدمة رأسه لتسوية شعره.. القرار فى نصف سطر، ألاَّ أنه تطلب " مشاوير " وذهاباً وإياباً إلى الإدارة التعليمية لمدة ٢٨ يوماً للحصول عليه، وكل موظف تمر عليه يفتح يده طالباً " الحلاوة " .

ذكرنى القرار بآخر ناظر عملت معه وآخر مدير إدارة تعليمية تقدمت له بطلب.. الناظر محمد عيد وكانت الوزارة قد استحدثت لقباً جديداً أعلى إداريا من النظار، وأطلقت عليهم مدراء. عندما قررت الاستقالة ، تحدثت مع الأستاذ عيد وقدمت إليه استقالة مكتوبة، ليست مسببة، فالاستقالة المسببة تتطلب إجراء تحقيقات وشئون قانونية مضيعة للوقت والجهد. قدمت

الاستقالة ذاكراً أننى عزفتُ عن مهنة التدريس، لأنها تمثل لى عائقاً لا يقره قانون أو دستور وتمنعنى مـن حريـة العمـل والحركة والسفر والتنقل وعندما قرأها المدير، تجهَّـمَ وقطَّـبَ حاجبيه، فهذه أول مرة يقدم مدرس على تقديم استقالته ويحتمى بالدستور والقانون!. نصحنى أن التعلـيم مهنـة الأنبيـاء.. لا خلاف، وأفهمنى أن المدرسة بجانب المنزل وهـذه ميـزة لا يحصل عليها ألاَّ المرضىُّ عنهم.. وافقته.. وأوضـح لـى أن الصغير سيكبر ولن أظل طوال حياتى مدرساً، فهنـاك تـدرج وظيفى.. مدرس أول ، وكيل مدرسة.. ناظر.. ثـم مـديراً ، فابتسمت! كنت أحدثه واقفاً وهو يجلس على مكتبه، أبلغته بأننى لن أحضر إلى المدرسة بعد تاريخ حددته فـى الاسـتقالة ٣١ ديسمبر- ليلة رأس السنة، وعليه تدبير مـدرس آخـر للقيـام بعملى فى الفصول التى كنت أدرس لهـا. قـدمت الاسـتقالة وانصرفتُ من مكتبه إلى مكتب البريد .. أرسلت إليه خطابـاً بعلم الوصول به صورة أخرى من الاستقالة التى قـدمتها لـه باليد وأرسلت خطاباً آخر باسم مدير الإدارة التعليميـة بـنفس المضمون، محتفظا بإيصالى " علم الوصول "، للـدخول فـى معركة قانونية مع وزارة التربية والتعليم .

لن أذهب اليوم إلى مارجريت وليغـضب الكفـراوى كمـا يشاء، سأجلس مع نفسى احتفل بالقرار واستمتع بقراءة حكـم المحكمة، حيثيات الحكم قطعة أدبية راقيـة كتبهـا أو أملاهـا

مستشار لا أستطيع نسيان اسمه، المستشار عبد المجيد بيومى مدكور نائب رئيس مجلس الدولة ورئـيس محكمــة القــضاء الإدارى، استأذنت بالفعل من العمل إلا أننــى توجهـت إلــى المقهى الذى اتخذت فيه قرارى بالاستقالة من التربية والتعليم. كنا ثلاثة فى منتصف العشرينات من العمر، مدرس موســيقى نابغ ومدرس علوم وأنا، قررنا نحن المجتمعون فى هذا المقهى عدم العودة إلى المدرسة والعمل فى التــدريس وحــددنا يــوم الحادى والثلاثين من ديسمبر، ليكون أخر عهدنا بمهنة الرســل والأنبياء. قرر مدرس الموسيقى أن يهجر مهنة الأنبيــاء إلــى مهنة الشياطين وأن يقوم بالتلحين بدلاً من التــدريس، وقــرر مدرس العلوم أن يفتح محلاً لبيع المنظفات والصابون الــسائل وقررت أنا أن أتفرغ للعمل بالصحافة والتعيين بها، بدلا مــن العمل بالقطعة. اختلف الرفاق فى كيفية الخروج مــن التربيــة والتعليم. أعلنت أننى سأقدم استقالة، سخروا منى فــالوزارة لا تعرف الاستقالة ولم يجرؤ مدرس على تقديمها وذكروا أســبابا تاريخية مضحكة، منها أن وزيراً للتعليم كــان يــدعى الــسيد يوسف، قالوا إنه كان عديل الرئيس عبد الناصر ومــن يقــدم استقالة من المدرسين كان يصدر أمراً باعتقاله.. أفضل طريقة مع التربية والتعليم ان نتعامل معها كما تعاملت معنا وهــو ان نتركها بلا استئذان، كما عينونا بها دون موافقتنا او اســتئذاننا. اعتادت التربية والتعليم فى القرن الماضى، أن تتسلم كــشوف

الناجحين من الجامعات والكليات المختلفة مرتين فى العام، دور مايو ودور أكتوبر وتقوم بتعيين جميع الخريجين مـــن جميـــع التخصصات وتوزعهم على جميع محافظات مصر دون أخـــذ رأى أحد.. قالوا إن ذلك يسمى تكليفاً ومن لا يلتزم بـــه كأنَّـــه يهرب من الخدمة العسكرية ولا يعمل فى أى مكان آخر، قلت لهم إننى سألجأ للقضاء والقانون وأحتمى بالدســـتور. ضـــحك الاثنان ضحكة الكفراوى، أتذكر الحوار كأنَّه حدث بـــالأمس، رغم كل التغييرات التى طرأت على مصر خلال ربع القـــرن الأخير. المقهى تغيرت مقاعده وبدلا من الكراســـى الخـــوص الثقيلة، أصبحت جميع المقاعد من البلاستيك. كان فنجان القهوة بثلاثة قروش، أصبح ثمنه خمسة وسبعين قرشاً، وتغيرت هيئة الجرسون وطريقة تعامله. كان يتقدم إلى الزبون بأدب جم يسأل ماذا يريد أن يشرب الأستاذ. كانت هناك بقية باقية من الحواجز الاجتماعية، أما الآن فيدخل وكأنَّه يلقى التحية علـــى صـــاحبه " صباح الخير.. يا حاج.. ويتلو قائمة بالمشروبات التى لديـــه لتختار منها.. لا أن تطلب أنت.. اصراره على استخدام لفـــظ " حاج " يرفع الكلفة وكأنَّه يقول لك أنت حاج وأنا حاج وكلنـــا حجاج ولا فرق، كان ينتظر البقشيش أو ما يجود به الزبـــون، الآن يحتفظ به لنفسه قبل أن يعطيك باقى نقودك ، انقلب الحال ولم يتغير. " قهوة مضبوطة .. مغلية .. فى كوب وليس فـــى فنجان " انصرف الجرسون لإحضارها واستحضرت صورتى

الزميلين السابقين اللذين سخرا منى ومن فكرة اللجـوء إلـى القضاء، إلا أنهما أشارا علىَّ بضرورة اللجوء إلى محامٍ مرتشٍ يعمل فى الإدارة القانونية التابعة لها المدرسة، يعمـل محققـاً ويدير عملاً إضافياً من داخل منزله يدر عليه آلاف الجنيهـات شهرياً، فقد بدأ مئات المدرسين فى الهرب من التربية والتعليم للعمل بدول الخليج.. أحضراه لى فى اليوم التالى على نفـس المقهى، رجل عملى لا يضيع وقتاً.. هذه العملية تكلفك مـائتى جنيه وقد تستغرق عدة شهور وبدونى لا يستطيع أحد الحصول لك على حكم قضائى، فالأمور كلها فى يـدى.. وقـد تـصل استقالتك إلى مدير الإدارة ليحولها بدوره إلى الشئون القانونيـة لأحقق فيها " أنا " وضخم من كلمة " أنا "، والمفروض أن يرد عليها خلال خمسة عشر يوماً.. وإذا اتفقنا ودفعتَ المبلغ، ولن أُبدىِ رأياً قانونياً، مما يجعل الاستقالة سارية المفعول بعد خمسة عشر يوماً من تقديمها!. أفهمنى أننى اخطـأت، وكـان يجب استشارته قبل تقديم الاستقالة، إلا أنه سيتدارك خطئى هذا وعلىَّ أن أذهب للشهر العقارى لإعداد توكيل وأعطانى اسـم محامٍ آخر.. فى منطقة تعليمية أخرى، فهو لا يستطيع أن يرفع دعوى باسمه، فهو موظف عمومى وفـى الإدارات التعليميـة المختلفة اتفقوا على تقسيم الغنائم، هذا يقذف بالكرة إلـى ذاك وذاك يناولها لهذا.. فساد فى حماية القانون " ثعلب صـغير "، كما قال المسئول الكبير المرتشى فى مقهى الأمريكين!.

المقهى اكتظ على آخره بالرواد قبل انتصاف اليوم ، حيث تدفع البطالة بالشباب إلى المقاهى، كما أصبح يداوم عليها أصحاب المعاشات المبكرة أو ضحايا ما يسمى بالخصخصة.. حركت مقعداً بعيداً بعض الشئ.. أتذكر الأيام والأسماء والأشياء والمواقف، سلمته توكيلا باسم صاحبه وأعطيته مائتى جنيه ، أمسك بها كالمسعور.. أحصاها أكثر من مرة وهو يرطِّب شفته السفلى بطرف لسانه وتلمظ ، وضعهما فى جيبه، تحسسه عدة مرات، وبدأت فى فرض شروطى عليه، فقد استأجرته. طلبتُ منه أن يكتب عريضة دعوى وقبل تقديمها للمحكمة عليه عرضها علىّ وكل ما أطالب به حقى الدستورى فى حرية العمل والحركة والتنقل.. وإذا به يتردد، أخبرته بلغة حازمة قاطعة إن لم يكن لديه الاستعداد فى المضى قدماً فى هذه القضية.. فلا حرج.. يعيد إلى المائتى جنيه والتوكيل. أعلم مسبقا أننى لو ذبحته لن يعيد إلى جنيهاً واحداً وافق على شروطى خافضاً رأسه، ومشيراً إلى أن القضية بهذا الشكل قد تكون نتائجها غير مضمونة، طلبتُ منه أن يفعل ما يؤمر به!.

كان يتردد على المقهى من وقت لآخر، أملاً فى العثور علىَّ واستحلاب بعض النقود تحت دعاوى واهية.. أبلغته أنه لن يتقاضى مليماً واحداً أكثر، فقد طلب مائتى جنيه وأخذها وقد ظن فى البداية أننى سأعطيه نصف المبلغ مقدماً كما يفعل أغلب الناس مع المحامين. عندما وجد سهولة الدفع طمع فى

الحصول على المزيد.. اختفى عدة أسابيع وبـــدأت أطـــارده.. ظهرت له متعمداً فى الإدارة القانونية، فسقط قلبه فى رجليه.. فى نفس الليلة عاد إلى نفس المقهى ومعه عريضة الـــدعوى، أجريت عليها بعض التعديلات، طلب خمسين جنيهاً ســيدفعها كرسوم، رفضت وأكدت مصاحبتى له غداً فى المحكمة لتقــديم الدعوى .. دفعت الرسوم بنفسى لم تتعدَّ العشر جنيهات!.

فسدة ولصوص ومرتشون.. وليذهب هانئ الكفراوى الــذى يدافع عنهم إلى الجحيم وصلت خطابات الاستقالة إلـــى الإدارة التعليمية ومنها إلى الشئون القانونية، ليحتفظ بها هذا الثعلب فى درج مكتبه أسبوعين دون إبداء الرأى القانونى، لتصبح الإدارة ممتنعة عن الرد وتخسر القضية. هذا الثعلب يعمل مع حيتـــان أكبر وما كانوا ليتركوه يفعل ما يفعله دون علمهم. الاســتقالة الآن فى حكم السارية. ودعت التلاميذ فى كل فــصل أدخلـــه، تحدثت عن مهنة التدريس بإجلال.. حقاً وليس نفاقاً وتحـــدثت عن انهيار النظام التعليمى وتدهور مكانة المدرس وبدأت اليوم الأول من العام الجديد مستمتعاً بشمس يناير وحرية الانطلاق. وانعقدت الجلسة، وقف المحامى المرتشى خارج القاعة ودفعنى إلى القاضى.. رجل كبير السن عليه مهابة القضاة، سألنى عدة أسئلة بسيطة، تأكد من عزوفى عن العمل وسألنى ماذا سأعمل بعد الاستقالة، وصدر الحكم الذى فى يدى، أنقل عيونى بـــين سطوره وأحاول أن أتذكر ما نسيت من أسماء.

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الشعب

مجلس الدولة – محكمة القضاء الإدارى

دائرة التسويات (١)

بالجلسة المنعقدة علناً يوم الاثنين الموافق – كذا – برئاسة السيد الأستاذ المستشار عبد المجيد بيومى مذكور، نائب رئيس مجلس الدولة ورئيس المحكمة وعضوية السيدين الأستاذين رأفت يوسف وإبراهيم إبراهيم شحاتة المستشارين،وحضور السيد أمين فرنسيس مفوض الدولة أقام المدعى هذه الدعوى بإيداع صحيفتها قلم كتاب هذه المحكمة– وشرحاً لدعواه قال إنه كان يعمل مدرس لغة انجليزية– وانقطع عن عمله عازفاً عن الوظيفة، بعد أن قدم استقالته وامتنعت الإدارة عن الرد بغير مسوغ من واقع أو قانون وفقاً للمادة ٩٨ من نظام العاملين المدنيين بالدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٨ .

المحكمة

بعد الإطلاع على الأوراق وسماع الإيضاحات وبعد المداولة، فقد جرى قضاء هذه المحكمة على أن امتناع الإدارة عن إنهاء خدمة العامل الذى انقطع عن العمل، وانتهت خدمته باعتباره مستقيلاً وفقاً لحكم القانون دون مبرر قانونى يمثل

عقبة قانونية تحرمه من السفر والانتقال، وتشكل عليه قيداً وتتعارض مع ما كفله الدستور للمواطنين من حرية الانتقال والهجرة والعمل فى حدود القانون، ومما لا شك فيه أن الاعتداء على الحريات أو تقييدها بلا موجب من القانون، هو أبرز الصور التى يترتب عليها نتائج يتعذر تداركها مما يتوافر معه ركن الاستعجال .

فلهذه الأسباب

حكمت المحكمة بقبول الدعوى شكلاً، وفى الشق المستعجل بوقف تنفيذ قرار الإدارة السلبى بالامتناع عن إنهاء خدمة المدعى اعتباراً من تاريخ انقطاعه عن العمل بدون إذن وإعطائه شهادة بذلك وخلو طرفه ومدة خدمته.

تصببت عرقاً بمجرد إنهاء قراءة الحكم وكأننى ألهث طوال السنوات الماضية.. قضاة بمثل هذه المكانة والفكر.. لماذا لا يُشكَرون أو تُقدَّم لهم التحية.. يقولون إن فتح باب الشكر قد يفتح معه باب الانتقاد أو التعليق.. ولا تعليق أو تعقيب على أحكام القضاء ! .

(١١)

قبل مغادرتي الجريدة، أشار لي هانئ الكفراوى، رافعاً يده إلى أذنه بما يعني أنه في انتظار مكالمة تليفونية مني وهو دائماً ما يتعامل بالإشارات ويحيط أحاديثه بسرية.. لم يصادق في الجريدة طوال حياته سوى ثلاثة، اثنان من عمره ، دخلا معه المؤسسة في نفس اليوم وأنا ثالثهم. أعرف من إشارته أنه يرغب في إقناعي للذهاب إلى مارجريت بما معي من أوراق ، اتصلت به.. أخبرته أنني سأذهب غداً لمارجريت من أجل خاطره فقط، فأنا أعلم مسبقاً أن هناك ورقتين أو مستندين في غاية الأهمية لم أحصل عليهما بعد، وكانت نجية شمس الدين قد أكدت على أهميتهما.. المستند الأول قرار تعييني في الوزارة، والثاني صورة استمارة ١٣٤ع .ح، والتي ينقصها الختم الذهبي للنسر القديم .

تناوشنا.. وتحدثنا.. وضحكنا مع بعضنا واتفقنا على اللقاء الساعة السابعة صباحاً على محطة مترو حلوان لنستقله إلى وسط البلد، على أن نجلس سوياً في محل حلواني خصص قعدة للأرمن المتمصرين ويؤمه عدد قليل جداً من المصريين أغلبهم من الصحفيين القدامى أيضا وبعد ذلك نتجه إلى مارجريت.. وافق هانئ على الفور.. وإذا كنت طلبت منه الذهاب معي إلى الغردقة ثم العودة إلى مارجريت لوافق دون تردد.. المهم أن يرى مارجريت.

المترو ليس بمزدحم.. هناك فترات ذروة وأخرى تستطيع فيها الجلوس أو الحركة بسهولة داخل عرباته وخاصة الفترة من السابعة إلى السابعة والنصف صباحاً، ومن الخامسة إلى السابعة بعد العصر. وصل هانئ إلى المحطة قبل موعده.. ينظر إلى اليمين واليسار وإلى مدخل المحطة في انتظار وصولي، قلقه من النوع الظاهري لا يستطيع إخفاء مشاعر اضطرابه أو سروره.. رذاذ المطر الخفيف دفعنا للاحتماء تحت جزء مسقوف من المحطة، رائحة عطره تغطي على رائحة المطر والبلل.. قَدِمَ القطار كما اعتدنا أن نطلق عليه أو المترو كما غيروا اسمه.. وجدنا مكاناً خالياً بعيداً عن أبواب الصعود والنزول.. ركنَّا إليه واستمعنا لوقع العجلات وهدوء الركاب باستثناء صوت يعلو أحياناً ويهبط حينا ، يتلو آياتٍ من القرآن الكريم.. في غير ساعات الذروة من الممكن الاستمتاع بركوب المترو.. بعد السابعة والنصف عندما ينحشر فيه تلاميذ المدارس يتحول إلى " عشة فراخ "، صراخ وصياح وهياج .

لم أعتقدْ يوماً أن هانئ الكفراوي من المؤمنين، اكتشفت ذلك في التو واللحظة.. كنت أتمعن في جرح جديد يبدو أنه أحدثه بنفسه عند حلاقة ذقنه صباحاً ، فإذا بشفتيه تتمتم بكلمات.. ربما آيات من القرآن.. أو دعاء صباح.. تركته في دعائه وصمته، قطع القطار ثلاث أو أربع محطات، سمعت جزءاً من الفاتحة يتلوه وكأنَّه يختتم صلاة أو دعاء.أخبرته أن جدي كان يتلو

دعاءً عند الخروج من المنزل صباحاً، ويستمر بقية اليوم يسبح ويذكر اسم الله دون أن يسمعه أحد، كنت أعرف جــزءاً مـــن الدعاء.. بسم الله والحمد لله.. عليك توكلت.. ولا حول ولا قوة إلا بالله ".. تبسم هانئ الكفراوى وتكلم بهدوء نسمات الصباح: " إنه نفس الدعاء ".. أغلب من فى القطار يرددون أدعية.. جو مشبع بالإيمان وملبد بالتقوى، إلا أن أغلبهم مـــن المــوظفين، وربما يكونون من أمثال سيد أذى!.

ما رأيك فى تحقيق صحفى مطول يا أستاذ هــانئ يـــا كفراوى حول هؤلاء المتقين.. صورة من القطـــار وأفـــراد يقرأون القرآن من مصاحف صغيرة، أو أدعية فى كتيبات لا يزيد حجمها عن حجم الكف وصحفى جرئ أو أكثر يختـــار كل منهم شخصية من الركاب.. يلازمه.. يراقبـــه.. يعـــرف مقر عمله ونوعية شغله ويزوره ليعلم كيفيـــة تعاملـــه مـــع الجمهور.. وهل هو من المؤمنين حقاً، أو أنه مـــن نوعيـــة خيركم من نفَّع واستنفَعَ ! " يـــ ضـــ حـــ ك " الكفراوى بلا صوت هذه المرة، مؤكداً أن مثل هذا التحقيق لن ينشر.. كما أن أغلب هؤلاء بالفعل من عينة سيد أذى إلا أنهم يفرقـــون بين الإيمان والسلوك.. بين القول والفعل .. ويـــ ضـــ حـــ ك الكفراوى ويخشى أن يسمعه الركاب، ويـــضيف: إنهـــم يعطلون مصالح الخلق ما لم يقبـــضوا الرشـــاوى، وعنـــدما

يقبضون يستغفرون!، وهم لا يعرفون من الـــدين إلا أنّ الله غفورٌ رحيمٌ.

فى محل الحلوانى بشارع شريف.. التحيـــة الرســمية " بون جور ".. أرمن متمصرون ومصريون كبـــار الـــسن، ومقاعد مرتفعة مثل مقاعد البار والمشروبات قهوة اكسبريس بجانبها قطعة أو أكثر من " الكيك " الكـــل يعـــرف بعـــضه البعض.. لا غرباء.. أول مرة يشاهدون الكفراوى.. سألونى عنه مباشرة.. وأمامه، الأستاذ أين يعمل وما اسمه؟.. قدمتـــه إليهم لا يدخل المجموعة شخص جديد إلا بتوصية من عضو قديم وكأنّنا فى أحد النوادى الخاصة العريقة، بعد ثوانٍ اندمج معهم الكفراوى فى أحاديث وسأل عن الفترة التى يقـــضونها فى هذا المحل.. بعضهم يأتى صباحاً فقط، وأيام معدودة فى الأسبوع والبعض يأتى صباحاً وعصراً، الجلسة الـــصباحية تنتهى فى الثامنة والنصف.. ويذهب كل منهم إلى مقـــصده.. وفترة العصر تمتد إلى ما قبل المغـــرب، أبـــدى الكفـــراوى إعجابه بالناس والمكان.. دفعت الحساب وتركت للجرســـون خمسين قرشا .

سأل الكفراوى عن النصف جنيه الذى تركتـــه ومـــاذا أسميه.. هل رشوة أو بقشيش.. بالطبع بقشيش، فى الطريـــق

من شارع شريف إلى بستان الدكة من جهة شارع الألفي، تحدث الكفراوى عن التطورات التى لحقت بالمجتمع.. هناك أناس لا تعمل بمرتب شهرى أو أجر يومى أو أسبوعى.. أصبحت أماكن بعينها تعين أفراداً بالبقشيش، مثل محطات البنزين الكل يعمل فيها بالبقشيش، باستثناء مدير المحطة وهو الوحيد الذى يتقاضى راتباً وبعض أصحاب المحطات أو مدرائها يفرضون إتاوات على العمال. من يرغب إن يعمل بدون مرتب، عليه أن يدفع ما لا يقل عن مائة جنيه شهريا. أغلب هؤلاء العمال غير مؤمن عليهم ويعملون مالا يقل عن اثنتى عشر ساعة فى اليوم ومفتشو مكاتب العمال والتأمينات المكلفون بمراقبة هذه المنشآت، لهم رواتب شهرية تدفع لهم فى مكاتبهم دون المرور على هذه المحطات أو غيرها.

استمع إليه فقط، لا أجادله أو أناقشه، وحديثه لا ينقطع ورغم رصده الدقيق لكافة الظواهر الإيجابية والسلبية فى المجتمع، إلا أنه لا يرى فى الفساد فساداً، بل يعتبره مجرد تطور سلبى لحق بالمجتمع ويغفر للموظفين- خاصة الصغار منهم- قبول الرشوة، لا أعرف سبباً لذلك، وقد مللت من الحديث معه فى هذه النقطة، إلا إنه يؤكد أن هناك مسئولين كباراً افتتحوا مكاتب لتلقى الرشوة.. بل بعضهم أصبح يمتلك

سلسلة من المكاتب فى طول مصر وعرضها، بعض هذه المكاتب يتخفى تحت مسمى تقديم استشارات!.

اقتربنا من مبنى التأمينات الاجتماعية ، هندم الكفراوى من ملابسه ورباطة عنقه، وأخرج من جيبه قطعة قماش أقرب الشبه بالقطيفة، مطبقة بعناية وانحنى على حذائه يزيل ما علق به من التراب وجعله أكثر لمعاناً، مددت يدى إلى صدره.. أداعبه وأحاول أن أعد نبضات قلبه.. فهم ما أرمي إليه.. ضحك. ثوانٍ وأصبحنا أمام مارجريت ذات القرط الدائرى الواسع الذى يثير الخيال والذى تنظر إليه من أية زاوية، فيسحبك إلى الفضاء الفسيح ويبدو أن موديلات ملابسها- خاصة العلوية- جميعها " ديكولتيه " لإظهار جمالها.. وإبراز السلسة الذهبية بجميع مشتملاتها.. دققت النظر فى الدلاية هذه المرة دون خشية من الفتنة أو الإثارة. وجدتُ بجانب الصليب الرقيق المدلى دبلة ذهبية تبدو متآكلة. لم يسعد الكفراوى وحده بهذا اللقاء ، بل رأيت السعادة فى عيونها.. رحبتْ بنا وهللتْ وكأنَّها تستضيفنا فى منزلها، نادتْ على الساعى الذى لبى النداء على الفور دون تكاسل.. أمرته بإحضار كرسى آخر ليضعه بجوار الكرسى الوحيد المتواجد بصفة دائمة أمام مكتبها ، وجهتْ حديثها إلىَّ.. سألتنى ماذا فعلتَ وماذا أحضرتَ من أوراق. أخبرتها وطلب منها هانئ الكفراوى أن تكتفى بالمستندات التى أحضرتها..

استمارة ١٣٤ع .ح، وقرار رفع اسمي من الخدمـــة وحكـــم المحكمة، قالت برقة إننى حصلت على المستندات الـــصعبة وختم الاستمارة أو العثور على قرار التعيـــين لـــن يكـــون صعباً.. وأن العملية برمتها " بسيطة " إلا إذا كنا لا نرغـــب فى رؤيتها، ونريد إنهاء المهمة. فى نفس اللحظـــة انطلـــق الكفراوى وأنا نشيد بأدائها الوظيفى، حقيقة لا مجاملة، فهـــى ترشد المواطنين وتنجز ما تستطيع إنجازه وتوقع على أوراق دون تعقيدات وتنصح المواطنين بالتوجه إلى الأستاذ فـــلان لإنهاء الأوراق، كما تذكرهم بضرورة الحصول على خـــتم النسر من عند الأستاذ علان قبل مغـــادرة المبنـــى.. شـــعلة حقيقية من النشاط والإخلاص.حاول الكفراوى أن يفتح معها جسوراً للتعاون، فمشاكل الناس كثيرة خاصة فيمـــا يتعلـــق بالتأمينات. أبدتْ استعدادها التام وبدأت الحديث عن عـــشقها لخدمة الناس.. الناس فى رأيها " غلابة "، وأغلب المـــوظفين فى رأيها فسدة.. لم يجادلها الكفراوى ولم يدافع عن أحبائـــه المرتشين.. كان يستمع إليها كتلميذ.. أرقبه وهو يهز رأســـه ولا أعلم لماذا شرد ذهنى بعيداً.. وعاد إلىَّ ظنـــى الـــسيء بالناس!، طبيعتها.. لا تتصنع ولا تتظاهر.. كل شـــئ فيهـــا جميل.. ولكن إلى أين ستجذب هانئ الكفراوى؟.. وما هـــى محطته النهائية معها؟.. لم نشعر بمرور الوقت معها.. تقـــوم من وقت لآخر لتتجه إلى أحد الموظفين.. تلقى بالتعليمـــات

دون صلف.. وتذكر آخر باللوائح التنظيمية دون أستاذية أو استعلاء وتطلب من موظفة أخرى الرجوع إلــى المنــشور الدورى رقم كذا.. لتعود تجلس أمامنا من جديــد ويتواصــل الحوار.. رشيقة طويلة من غير نحافة.. ممتلئة مــن غيــر زيادة.. تدق الأرض برجليها وهى تمشى بين المكاتب وتدير عملها باقتدار وهدوء، رغم أن الصالة لا يقل عدد الموظفين فيها عن ثلاثين ولا يقل عدد المواطنين فى أى لحظــة عــن خمسة أو ستة، يسألون نفس الأســئلة وتجيــب علــيهم دون ضجر.أخذتْ منى الأوراق.. وضعتها فى ملــف كرتــونى أخضر اللون.. كُتِبَ عليه من الخارج الرقم التــأمينى الــذى سألتنى عليه، وكتبت اسمى كاملاً دون أن تسألنى هذه المرة: شاكر محمد لطفى.. أستاذ شاكر.. الملف هنا أمامى وكلمــا تستطيع الحصول على مستند، عليك بإحضاره إلــىَّ ومعــك الأستاذ هانئ وعندما يكتمل سأحوله إلى الأستاذة نجية شمس الدين والتى ستعمل على تسويته بأسرع ما يمكن ونجية مــن أنشط وأخلص العاملين معى فى هذ المكتب وحبهــا للنــاس وخدمتهم.. لا يقل عن حبى لهم. أسمع ثناءها على نجية وهو ما يندر حدوثه فى دنيا الموظفين أن يمتدح رئيس مرؤسيه.. فقد اعتاد الرؤساء أن يدَّعوا أن المسئولية تقع على عــاتقهم وحدهم ، إلا أن امتداحها لنجية كشف نقاء سريرتها وجمالها الروحى .

(١٢)

لم ينطق الكفراوى بعد خروجنا من المبنى، ولم يضحك.. امتدح نظم العمل فى التأمينات الاجتماعية وسهولة التعامل مع الموظفين وخدمتهم للمواطنين. جادلته وناقشته وراهنته، أن الأمر ليس مجرد نظام أو نظم ولكن القدوة والإخلاص وأن هذا القسم أو الإدارة، لولا مارجريت ، لتحول مثل بقية أقسام المبنى المقابل.. مارجريت ملتزمة مخلصة.. غير مرتشية ولم تترك المرتشين وغير الملتزمين وغير المخلصين يعملون تحت رئاستها، كما أن هذا المبنى بالذات يلقى رعاية خاصة وموظفيه تم انتقاؤهم بعناية، ربما لأنه مجاور لمكتب الأستاذة وزيرة الشئون الاجتماعية والتأمينات .

وقفنا أمام المبنى نتجادل.. أشرت للكفراوى إلى مدخل المبنى واليافطة المعلقة عليه " ادفع الباب "، المبنى مكيف ولا يوجد قبضايات على الباب يمنعون دخول المواطنين.. بمجرد الدخول، يسألك موظف أو موظفة خلف مكتب عن مبتغاك.. ثم توجهك مباشرة إلى المكتب الذى تصعد إليه.. واسم الموظف أو الموظفة التى ستؤدى لك الخدمة.. عامل المصعد ينادى عليك للدخول.. أما المبنى المقابل والمكون من ثلاثة

عشر طابقاً، فالأمر مختلف تماماً وكأنَّه يتبع وزارة أخرى.. القضية هي القدوة والمثـال والالتـزام وبعـض الاهتمـام، وسحبت الكفراوى من يده لنعبر الطريق.. أقل مـن عـشرة أمتار لنقف عند بوابة المبنى الثانى، ليشهد بـأم عينيـه مـا يحدث فيه وكيف يتعامل الموظفون والسعاة مع المـواطنين. طلبت منه – كما فعلت ذلك مراراً من قبل – أن يتلكأ قلـيلاً فيمكث أقل من ساعة داخل المبنى ليـسمع شـكاوى النـاس وسخطهم.. وكيف يدخلون المبنى إذا سـمح لهـم بالـدخول والخروج منه ، دون قضاء مصالحهم.

أحيانا يستمع لى الكفراوى وكأنَّه طفل صغير، يهز رأسه موافقاً وأتحول أنا إلى صاحب الخبرة، الأوسع معرفة، رغم أننى أصغره بعشر سنوات، إلا أن الحياة ليـست بطولهـا.. ضحكت ضحكته معقباً.. ومؤكداً أننى أرى أشـياء أخـرى بجانب النساء ويضحك الكفراوى!.. على بعد أمتار من مدخل المبنى اتفقنا على خطة دخوله.

الكفراوى أمامه شهران أو أكثر للخروج علـى المعـاش ويرغب فى معرفة مدة خدمته التأمينية وفى هـذا المبنـى " هيئة التأمينات الاجتماعية للعاملين بقطـاع الأعمـال العـام والخاص "، والمؤسسات الصحفية تتبع هذا المبنى تأمينيـاً، كما أنها المركز الرئيسى وبه الشبكة الأم للكمبيوتر.. والطلب لا يحتاج جهداً لتحقيقه، موظف سيدخل رقم هانئ الكفـراوى

التأمينى، سيظهر على الشاشة عدد سنوات اشتراكه كاملة.. ليس أكثر.. ولم نطلب أكثر .

عند الدخول استوقفنا موظف.. طويل عريض له شارب مثل شوارب المخبرين القدامى.. سألنا عن وجهتنا.. شرحنا له الطلب.. حاول صرفنا بكل الطرق، عليكما الذهاب إلى المكتب التأمينى التابعين له، أليس هنا المركز الرئيسى؟.. نعم.. هناك تعليمات بأن يتوجه المواطنون إلى المكاتب الخاصة بهم. ولكننا جئنا إلى هنا.. ولابد أن نقابل أى مسئول.. اذهبا إلى المكتب التابع لكما وهو ليس ببعيد عن هنا.. أربع محطات أتوبيس.. وإذا لم تنجزا طلبكما، عودا إلى هنا وقدما شكوى وسيحاسب الموظف المسئول. هذه تعليمات معالى الوزيرة، لم نبرح مكاننا ولم نهتزْ، ولم ترمش عيوننا، عندما سمعنا لفظ الوزيرة، يصر على منعنا من الدخول، وأقاتل أنا وليس الكفراوى من أجل الصعود إلى المبنى، ولغرض واحد أن أكسب الرهان!.

ما من مواطن حاول الدخول، إلا وصرفه هذا الموظف خلال الدقائق القليلة التى وقفنا فيها معه.. في المدخل أكثر من عشرة مكاتب، يجلس عليها عدد اكبر من الموظفين، ليست بطالة مقنعة كما يقال، ولكنها " بلطجة مقننة " يستمعون للحوار وقد يتدخلون في الوقت المناسب إذا شبَّ شجار، أحدهم نادى على زميل له ونصحه بتركنا ندخل، على أن

نصعد إلى الدور الثامن، مكتب "خدمة الجمهــور".. عامــل المصعد والذى يتبع شركة الصيانة وليس وزارة التأمينــات، اكتسب السلوك الوظيفى المطبق في المبنى. يختار من يرغب فى أن يصعد معه، ويأمر الباقى باستخدام السلالم .. شــاب صغير لا يزيد عمره عن ثمانية عشر عاماً، إلا أنه عَيَّنَ نفسه موظفاً حكومياً " بالذراع ". أشار لنا بالصعود معه.. الـدور الثامن، المصعد لا يتوقف فى الثامن، عليكما بالصعود إلـى الدور التاسع واستخدام السلالم للنزول، لا مانع!.. المكاتـب كثيرة متلاصقة، الممرات مظلمــة.. أيـن مكتـب خدمـة الجمهور؟.. الممر الثانى يسار اول مكتب.. قبل الـدخول.. خرج إلينا موظف يرتدى فانلة " مـصنوعة مـن الأليـاف الصناعية "، ربما اشتراها من الخليج أو حصل عليها من أحد المواطنين المترددين على المبنى لقضاء مصالحهم كهيـة أو رشوة.. سمع الطلب.. لا.. لا.. عليكما الذهاب إلى مكتـب التأمينات التابعين له.. أليس هذا هو المركـز الرئيـسى؟.. نعم.. ولكنها تعليمات مـدير الإدارة.. ممنـوع إعطـاء أى معلومات. ماذا عن حرية تداول المعلومات وشبكة الكمبيوتر الموحدة والكلام الكبير؟.. هاهى حجرة المـدير.. أسـأله.. وأدخلنا إلى حجرة مجاورة فيها شخص يتحدث فى التليفون.. أشار إلينا بالجلوس.. جلسنا!. عشرون دقيقة بالتمام والكمال يتحدث فى التليفون، يقوم بإتمام صفقة بيع سيارة ١٢٧..لا..

لا.. الثمن كثير.. ورسوم التسجيل عليك!، يدخل الموظـف الأول مع رجل مسن ثائر يرتعش من الانفعال، قطعوا معاشه الاستثنائي.. قادم من منطقة شرق.. مصر الجديـدة.. عـلا صوته.. شخط فيه الذى يمسك بالتليفون.. اسكت مش عـايز اسمع صوت حتى أنهي المكالمة!.. سكت الرجل.. الغـرض إرهابنا نحن لا إرهاب الرجل العجـوز، أنهـى المكالمـة.. نصحه بالنزول إلى الدور الأول عند الموظف فـلان.. مـن مصر الجديدة إلى وسط البلد، إلى الدور الثامن.. إلى الـدور الأرضي، خدعة وظيفية على أن يقوم موظفو الاستقبال فـى المدخل بالتعامل معه وصرفه من المبنى!.

دخل موظف ليعرض عليه شكوى.. رجل يطالب بالدفعة التأمينية الواحدة، أخبره الموظف وقلَّبَ المسئول فى الأوراق وأوضح له أنها شكوى.. قال له إن الصرف من حقه، قلَّـبَ مرة أخرى فى الأوراق، نظر إلى التواريخ وقال لقد تـأخر هذا المواطن وقد سقط حقه فى المطالبـة لمـضى خمـس سنوات. سأله الموظف بماذا يرد على الشكوى ، طلب منـه حفظها وعدم الرد عليها على الإطلاق. فجـأة توجـه لنـا بالسؤال " طلباتكم ؟ ".. معرفـة المـدة التأمينيـة.. علـيكم بالذهاب إلى مكتب التأمينات التابعين له.. جدال ونقاش يصل إلى حد الشجار واتهامه بإعاقة مـصالح النـاس وتعـارض سلوكه مع تعليمات الوزيرة، بدأ ينكمش فى المكتـب، إلا أن

كرامته دفعته إلى الاستمرار فى غبائه ورفضه إعطاءنا أى معلومات. مركز المعلومات فى الدور الرابع مغلق بأمر الوزيرة. نظر إلى الكفراوى وكأننى أنا الذى رسمت هذا السيناريو منذ البداية حتى النهاية، وكسبت الرهان!.

نزلنا ثمانية أدوار على السلالم، سمعنا شكاوى الناس ولعناتهم على الموظفين وتحليلاتهم لأسباب الأزمة الحالية، تحليل بسيط.. موظفون يعطلون مصالح الناس ولا يقضون حوائجهم.. ومن أعمالكم سُلِّطَ عليكم.. والناس انتزعت من قلوبها الرحمة.. وإذا كنا لا نرحم بعضنا البعض فعلى الدنيا السلام. كبار السن ينزلون على السلالم، فالمصعد للصعود فقط، هكذا اسمه، قالها عامل المصعد، ولو كان للنزول لأطلقوا عليه منزل. مواطن يحكى لآخر عن خبرته فى التعامل مع هؤلاء الموظفين ، يدخل عليهم بالصراخ والتهليل ويتهمهم بتعطيل أوراقه، أية أوراق، ويصرخ بأعلى صوته أنه لن يقدم رشوة، لم يطلبْ أحد منه رشوة ، لكنه نوع من الابتزاز، يقومون بعدها مباشرة بإنهاء مصالحه!.

انعدام ثقة متبادلة بين المواطن والموظف والغريب أنهما يتبادلان الأدوار، فالمواطن صاحب المصلحة هنا موظف فى الغالب فى مكان آخر، إلا أنه يمارس القهر كما يمارس عليه، يمتنع عن قضاء حوائج الناس، كما يُمنع من قضاء حوائجه وأصبحت الرشوة أقصر الطرق وتعددت أنواعها. سمعنا عما

يسمى بالرشوة الجنسية وقد لا تكون كذلك ، فهناك نساء ينهين مصالحهن بالدلال، بمجرد إيماءات أو إشارات، يقول الكفراوى، لا تضر، غمزة عين للموظف لا بأس، أفكاره قديمة لا يتابع التطور. نعم النقود ليست هى الرشوة الوحيدة الآن، فعشر جنيهات نقداً من الممكن أن يستكمل بها أركان قضية، الآن هناك ما يسمى بالهدايا النقدية، مثل المحاصيل الزراعية النقدية التى يتسلم الفلاح فلوسه قبل حصدها من الحقول.

كروت التليفون المحمول دخلت عالم الرشوة، تترك رقم تليفونك للموظف ثم تترك له كارت فئة المائة جنيه أو المائتين طبقا للخدمة المرجوة " سمَّعنَا صوتَك "، يجمع الموظف ثلاث أو أربع كروت فى اليوم الواحد، يبيعها بمجرد خروجه من المكتب لأقرب كشك مجاور أو محل، بتخفيض لا يزيد عن عشرين فى المائة من قيمتها. شرائط الفياجرا دخلت اللعبة، الشريط به ثلاث حبات، ما يجمعه الموظف المرتشى صباحاً والذى يطلب الفياجرا بالاسم ولم يطلب نقوداً لإنهاء المصلحة، يبيع ما يجمعه نهاراً بالليل، على المقهى لأصحابه ومعارفه، " التسيب السبب " الكفراوى يعظ!.. الموظف العمومى يقدم إقرار ذمة مالية يُجدد كل أربع خمس سنوات ولا يسأله أحد كيف ركب هذه السيارة ومن أين اشتراها وكيف ينفق على أولاده فى مدارس غير

حكومية وكيف اشترى هذه الشقة التمليك. أو شقة فى المـــدن الساحلية لقضاء الصيف فيها؟، لم يسأله أحد، رغم أن راتبـــه الشهرى لا يكفى ثمن علبتين من السجائر المـــستوردة التـــى يدخنها يوميا.

عندما يعظ الكفراوى يصبح مثل قطار منطلق لا يتوقـــف ومن الحماقة أن تتوقف أمامه، فهو مقنع وســـهل الاقتنـــاع ، نجحت قليلاً فى زحزحته، من خندقه المدافع عـــن الرشـــوة والمرتشين وبدأ يسمى الأسماء بأسمائها، اســـتمع إليـــه ولا أقاطعه وربما هذا أحد أهم الأسباب لاستمرار العلاقة الحميمة بيننا رغم فارق السن. استمعت إليه لنهاية حديثه وتقمـــصت دور أساتذة اللغة العربية، لأشرح له الفـــرق بـــين الرشـــوة والسحت والغلول، الرشوة كلنا نعرفها والسحت والغلول من درجاتها، السحت هو المكاسب الخبيثة والقبيحة التى يحصل عليها المرتشون وما نبت من سحت فالنار أوْلىَ به، والغلول انتفاع بغير حق، بسبب الجاه أو النفوذ "ومن يغللْ يأتِ بمـــا غَلّ يوم القيامة ".. ويصفق الكفراوى كدرويش، بركاتك يـــا شيخ شاكر.. يا لطفى!.

قطعنا شوطاً وأمامنا أشواط، يا هاني يا كفراوى، انفعـــل وألقى فى وجهى حفنة من الهمزات، هانئ هانئ، لـــم تعـــد مشكلتك الآن الهمزة، قضيتك الآن أغلب حـــروف الهجـــاء، خاصة الميم والراء والجيم والراء مرة أخرى، والياء والتـــاء

مشكلتك، مارجريت، يقذف برأسه إلـى الـوراء ويـضحك وأستمر في حديثي. سأقوم بإجازة سنوية لمدة أسبوعين على الأقل، لن أذهب معك خلالهما إلى مارجريت، سأعمل علـى إنهاء أوراقي والمستندات المطلوبة بكافة السبل، حتـى وإن سافرت إلى الصعيد، يحاول أن يبرأ نفسه من إلصاق تهمـة هيامه بمارجريت، مؤكداً انه تعاطف معها منذ أول خطـاب أرسلته إليه وأن غيرة زوجها ذكرته بعذابات غيرة زوجتـه الثانية ليس أكثر!. إنك لا تقول الحقيقة كلها، القسم في محاكم الأمريكيين يكون على قول الحقيقة، كل الحقيقـة، ولا شـئ غير الحقيقة، يتوقف يعطيني سيجارة يشعلها ليعطلني عـن مهاجمته، لماذا لا تقول إنك انجذبت إلـى رسـالتها بـسبب تعاطفك مع زوجها، خاصة أن صديقك فلان يتهمـك دومـاً بأنك، " ليس لك في النساء! " ، وهذا ما دفع زوجتك الثالثـة إلى طلب الطلاق، ضحك وضحك ولعن صديقه هذا، وبدأ في إذاعة أسراره وأنه ذهب معه ذات مرة إلى أحد معارفه مـن الأطباء لعلاجه ولم ينفع معه علاج، وأنه مثل النساء غيـر الشريفات يشاغلنك ويتهمنك بما ليس فيك وحاول استحضار مثل شعبي إلا أن الذاكرة لم تسعفه، لحقته " تلهيك.. واللـي فيها تجيبه فيك!"، وضحك ضحكته.

لا يجد الكفراوي غضاضة في الحديث معي فـي مثـل هذه الأمور إلا أنه في الحقيقة – ولا شيء غير الحقيقـة –

يتجنب الخوض فى فحش الكلام، يختار ألفاظه بعنايـــة وأدب حتى عند تبادل النكات لا يردد البذئ أو الجنسى منها، إلا أن هذا لا يمنعه من سماعها. زوجتى الثالثة الله يمـسيها بكـل خير، كان يجب أن تُطلَّق، لقد تزوجتها على شرط ألا تُنجب، فلدى طفل وطفلة، هى وافقتْ ووافق أهلها وبعد الزفاف بدأت المعارك. حولتْ حياتى إلى جحيم، المرأة عنـدنا تعتقـد أن الخلفة تربط الرجل وعندما أدركت استحالة تحقيق مطلبهـا أنهكتنى بالمطالب. كانتْ حريصة على قصقصة ريشى بناءً على نصيحة أمها، نزعت بعض الريش، إلا أننى طرت بما تبقى ودفعت لها كل ما طلَبَتْ من مؤخر صداق ونفقة اتفقنـا عليها لمدة عام ، وكسا الحزن وجهه.

سأقوم بإجازة ابتداء من بعد غد وسأتصل بك تليفونياً من وقت لآخر وقد أزورك فى منزلك، إلا أننى لن أظهـر فـى التأمينات إلا بعد استكمال كافة الأوراق المطلوبة. هز رأسه بلا كلام وكأنّه لم يخرجْ بعد من قصة زوجته الثالثة، قطعنـا باقي الطريق في صمت، دخلنا المؤسسة سوياً وإذا بسيد أذى وكأنّه أصبح وجبة يومية يصطدم بنا ويلقي علينـا التحيـة، أجيبه باقتضاب، ينصحنى الكفراوى بعدم القسوة على هـذا الرجل ، بدأ الدخول فى دائرة التيه والضياع، بعدما رفضت المؤسسة تجديد خدمته لمدة عام، وحثنى على التسامح وأن أدعى له بأن يعينه الله ويساعده .

(١٣)

يهبط الماضى بتفاصيله فجأة دون أن نـستدعيه ، ويظـل ينخر فى شرايين المخ دون أن نستطيع مقاومته، يطبع علـى شفاهنا ابتسامة أو يقطب حاجبينا ونخشى أن يظن المـارة أنَّ بنا لطف أو ضربتنا لوثة، صور الماضى تتزاحم ولا نستطيع لها دفعاً وجدت نفسى ابتسم بطريقة لفتتْ انتباه الراكب الـذى بجوارى وأنا أهَمُّ بمغادرة مترو حلوان فـى محطـة سـعد زغلول. كان زعيماً هبطتْ عليه الزعامة فجـأة وهـو فـى الستينات من العمر، وبدلاً من " شغل نفسه ببناء مقبرة خاصة له فى هذا العمر، انشغل بقضية الاستقلال الوطنى ". محطـة سعد زغلول تلك على بعد خطوات من وزارة التربية والتعليم والتى تطل على ثلاثة شوارع رئيسية، الفلكـى وإسـماعيل أباظة وشارع صفية زغلول.

ابتسمتُ ونظرة الراكب أربكتنى، اصطدمت به، اعتذرت له، خبط كفيه قائلاً: لا حول ولا قوة إلا بالله، ونظر إلىَّ مرة أخرى، وكأنه يريد أن يقول لقد مسَّ الرجلَ جنٌ !.

ابتسمتُ عندما تذكرتُ الموظف الذى يعمل بالوزارة فى إدارة الحفظ التى يحتفظ فيهـا بكافـة القـرارات الوزاريـة والتنفيذية وتذكرتُ أول إتاوة دفعتُها له مكرهاً، خمسين قرشا،

مقابل أن أحصل على صورة من القرار الوزارى بتعيينـــى، والآن أعود له للحصول على نسخة أخرى من نفس القــرار، الذى أحفظ رقمه وتاريخه بجانب اسمى، وتـــاريخ مـــيلادى، القرار ١١٢٥، بتاريخ ١٣/ ١٩٧٥/٩. بوابة الوزراة الرئيسية تطل على شارع الفلكى، فى وسط الوزارة قصر، جلس فيـــه من قبل الدكتور طه حسين وزير المعارف، الوزير الأوحـــد الكفيف فى تاريخ مصر، والـــذى رأى مـــستقبل بلـــده فـــى "الثقافة"، ورأى أن التعليم كالماء والهواء وجـــاء بعـــده مـــن جلسوا على كرسيه، ووجدوا أن أولاد الفقـــراء لا يـــستحقون هواءً أو ماءً مجانياً. توسعوا فى إنشاء المـــدارس التجريبيـــة ذات المصروفات، وشجعوا إقامة مـــدارس اللغـــات التـــى لا تتعامل إلا بالدولار، وأفسدوا التعليم تحت دعاوى إصـــلاحه وأهدروا كرامة المعلمين تحـــت مـــسمى التربيـــة الحديثـــة، ووزعوا المناصب القيادية على من لا يعمل بالتربية والتعليم، ومن لم يمسك طباشيرة ولم يقف أمام سبورة، غيروا كل شئ إلا أن مدخل إدارة الحفظ مازال من شارع صـــفية زغلـــول المؤدى إلى شارع القصر العينى، عدة مبانٍ داخلة فى بعضها البعض، وممرات هى الأخرى تؤدى إلـــى ممـــرات، أهـــم إدارتين، التعيينات والإعارات، التعيينات كان بهـــا قـــسمان،

شئون عاملين والملفات والحفظ.. بدأتُ يومى مبكراً جداً عملاً بنصيحة أحد الأصدقاء القائلة إن الموظف العمومى يقضى مصلحة أول مواطن يظهر له ثم يغلق قلبه بعد ذلك.

فى هذا المكان فى هذا الشارع تعرفتُ على زوجتى الأولى، وفى هذا المكان أيضا ألقيتُ عليها يمين الطلاق، تعرفت عليها أمام هذا المبنى، أثناء ترددى عليه بحثاً عن طريقة للنقل من الصعيد إلى القاهرة، تم نقلى وبدأنا حُبَّ الشوارع والسينمات، مدرسة تربية رياضية من محافظة ليست بعيدة عن القاهرة.. الأفضل دخول البيوت من أبوابها، انتهزتُ فرصة وجود أخوتى معنا على العشاء بمناسبة المولد النبوى، الكل موجود، أخوتى البنات وأزواجهن، أخى الأكبر وزوجته والتىكانت ترغب فى تزويجى من أختها الصغرى، انتهزتْ الفرصة وأطلقتْ القنبلة: " أنا ناوى أتجوز "، و" العروس ليست من القاهرة "، خبطتْ أمى على صدرها خبطتين، وتوقفت عن مضغ الطعام، أبى قليل الكلام تكلَّم: على بركة الله، " كلمتين أبرك من جرنال "، المهم، تكون بنت ناس لا يعرفون الحرام، عادت أمى للنطق مستنكرة: هم بنات مصر خلصوا؟، المكان القريب أن ما سعفك..ريحك "، أختى الكبرى نظرت إلى زوجة أخيها بشماتة معلقة: " القلب وما يريد "، وسألت: متى سنذهب

إلى بيت العروس لقراءة الفاتحة،وسألت عن اسمها..سنذهب يوم الجمعة القادمة واسمها نادية،ذهبت إلى أسرتها، والد العروس لم يرهق نفسه ولم يجهدنا ولم يسأل كيف تعارفنا،وإن كان يرغب فى تأجيل زواجها بعض الوقت،فهى الأبنة الكبرى ولديه العديد من الأطفال،وقد سافرتْ بنات عمتها إلى السعودية ويعملنْ هناك وفرصتها في السفر كبيرة، إلا أنها فضلت الزواج وهو لا يمانع،بل يرحب،وقرأنا الفاتحة ودخلنا فى التفاصيل،إلا أنه عاد للحديث عن بنات عمتها، خاصة البنت الكبرى الممرضة التى أقامت منزلاً كبيراً فى الحارة المجاورة، خلال الثلاث أو الأربع سنوات الماضية!. ثم تزوجت من طبيب وسافر معها إلى السعودية.. شعارهم " اشترى راجل " و" التقيلة علينا والخفيفة عليك "،عليك إحضار شقة وتأسيسها سهل،إما بالقسط أو الجمعيات.

تزوجنا،عامان لم نرزق بأطفال،دائمة السفر إلى أهلها، تقضى معهم كل خميس وجمعة وتأتى لمدرستها صباح السبت،ظهر اسمها فى حركة الإعارات إلى بلد تشترط عدم مصاحبة الأزواج فى بداية التعاقد،أمام المبنى هذا أصرتْ على إنهاء أوراقها والسفر،حتى وإن طلقتها،ألقيتُ عليها يمين الطلاق، سافرتْ هى وتزوجتُ أنا ورُزِقْتُ بأربعة أطفال،

عرفت أكذوبة " نشترى راجل "، فى الزواج مــن يــشترى .. يبيع!.

مازالت فى الغربة تأتينى أخبارها من وقت لآخر، تزوجت أكثر من رجل، كلهم على شاكلتى من ضيّقى الخُلُــق وكــأننى أصبحتُ نموذجها المثالى، طلاقها أسرع من زواجها ولم تنجب أطفالاً، دخلت المبنى أعرف قسم الحفظ جيداً ومكانه، يا سبحان الله، الرجل الذى تقاضى منى الخمسين قرشا مازال فى الخدمة يساعده شاب أصغر سناً، طلبتُ منه الخدمة، أشار بيــده إلــى صالة كبيرة ضخمة متربة، الملفات فيها أهرامات حتى السقف، قرارك فى هذا المكان، لو تركنى أبحث عن القــرار بنفــسى لاستغرق البحث سنوات، أمهلنى يومين، أمرُّ عليــه وأحــصل على صورة من القرار بعدما وعدته بعشرين جنيها، لــم يــفِ بوعده، عاد ليسألنى عن سبب طلب هذا القرار، خاصة وأننى تركتُ الخدمة فى التربية والتعليم، شرحتُ له وأسهبت، إلا أنه فيما يبدو قد قدَّرَ المهمة، بأكثر من عشرين جنيها!.

فكرتُ ودبرتُ وأعطيته مهلة جديدة لمدة أسبوع، يكون قــد أحضر لى صورة القرار وسأدفع إليه مــا يطلــب، نــصيحة صديقى فى أن أكون أول المواطنين أمامه لم تنفع، وعرضــى المباشر للرشوة قد يكون أخافه وأفزعه، رغم علمى بفساده منذ

خمس وعشرين سنة، لا مفر من الذهاب إلى مدير التعيينـــات نفسه ومقابلته، مكتبه فـــى الـــدور العلـــوى، دخلـــت علـــى السكرتارية، طلبتُ مقابلته وقدمتُ لسكرتيره بطاقة " كـــارت " باسمى، دخلتُ عليه، على الفور رحب بى، طلب لى قهوة على وجه السرعة، وأخذ يتحدث عن مشاكل التعليم وعندما اجتمـــع بهم الوزير، وأنه قال له كذا وكذا ، وطلب منه الوزير أن يقدّم اقتراحاته مكتوبة، ولم يدع الفرصة تمر، كان قد طبـــع عـــدة ورقات على الكمبيوتر، قدمها للوزير الذى ناولها بدوره إلـــى أحد مرافقيه، وانتهى الأمر، ولو كان الوزير قـــد قـــرأ هـــذه الاقتراحات، خلاصة الخبرة الطويلة فى مجال التعليم، لانصلح حال المدارس والمدرسين وتوقف التدهور فى النظام التعليمى.

كل ما أعرفه عن هذا المسئول أنه كان مجرد مدرس تربية زراعية، لا خبرة له بالتعليم أو التربية.. كان يعلم الصبية فـــى المدارس كيفية صناعة مربة الجزر أوالتين، وكان يهتم بوضع صور وملصقات على جدران حجرة التربية الزراعيـــة، بهـــا أنواع من الأشجار أو الزهور لا يعرف هو اسماءها..كشفت له سبب الزيارة وهو الرغبة فى الحصول على صورة من قـــرار تعيينى رقم كذا، لتسوية ملف التأمينات، رجع فى مقعده إلـــى الخلف وشدَّ من فقرات عموده الفقرى ليشغل أكبر حيـــز مـــن

المقعد الواسع، وطلب منى أن أمهله بعض الوقت، فقسم الحفظ فى الدور الأول مقلوب رأساً على عقب، جاءوا بأجهزة كمبيوتر وخلافه لإدخال جميع الملفات والقرارات الوزارية منذ وزارة المعارف حتى الآن، وأخذ يكذب ويكذب، فقد كنت فى الحفظ منذ دقائق، ولم أر أجهزة كمبيوتر أو خلافه، شكرته وانصرفتُ.

" أجمل ما فى هذه الوزارة أنها عبيطة، وتظن أن كل الناس على شاكلتها "، قالها لى زميل قديم، كان مدمناً للعب القمار ويقوم بتدريس التاريخ، عملت معه فى أول عمل لى بالصعيد، دمه خفيف، حاول أن يعلمنى " كيف أمشِّى أمورى "، إلا أننى لم أتعلم، كان ينقطع عن العمل لأسابيع ثم يعود بقصة، القطار تعطل به عند ملوى بالمنيا أثناء عودته، يحضرون له محققاً قانونياً من المديرية التعليمية فى سوهاج يجلس معه، يأخذ أقواله، يقدم له تذكرة قطار بلا هوية أو تاريخ يحتفظ بها دائماً للخروج من الأزمات، المحقق لا يتبين صدقه من كذبه، أوراقه مرتبة مثل الكوتشينة، يخرج المحقق ولا يستطيع أن يجازيه بأكثر من " لفت نظر "، ويخرج زميلى قائلا: "وزارة عبيطة"!

خرجت أنا من مبنى الوزارة إلى شارع قصر العينى متيقناً أنها وزارة عبيطة وتظنُّ أن الناس مثلها، يكذب علىَّ مسئول

ويتحدث عن أجهزة كمبيوتر لا وجـود لهـا وعـن ميكنـة القرارات، كان من الممكن تصديقه لولا مشاهدتى صالة الحفظ وأطنان الأوراق، وجبال التراب، ووجـود نفـس الموظـف المرتشى القابع فى مكانه منذ ربع قرن، دون تطوير أو تحسين حتى فى طريقة طلب الرشوة أو التعامل مع المواطنين، الهواء فى الشوارع غير الهواء فى الوزارة والناس غير الناس، كتمت ابتسامة كادت تنطلق منى وتذكرت زملاءً قـدامى ومواقـف ضاحكة، ومسئولين يأتون لزيارة المدرسة، ثم يخرجون فـى غاية السرور من نظام ونظافة المدرسة.

أول ناظر وآخر ناظر، أول مفتش وآخر مفـتش، لافتـات معلقة فى كل مكان على جدران كل مدرسة، أذهب للعمل بها، كلمات عبيطة وليست مأثورة، تثير الضحك وتكشف سـطحية القائمين على التربية، " مدرستى نظيفة مرتبة "، يافطة معلقة، مكانها الدائم فوق سلة القمامة أو المهمـلات، " ابتـسم عنـد الهزيمة "، جملة تعلم الطلبة والتلاميذ البلادة وفقدان الإحساس، قد تكون ابتسامة المنهزم تفقد المنتصر لذة انتصاره إلا أنها فى نهاية الأمر، تعلم البلادة، سيد جوهر الناظر الأول فى حياتى، ينحنى ليلتقط الأوراق الملقاة فى فناء المدرسة، أمـلاً فـى أن يحتذى به الطلبة والمدرسون، وإذا بمدرس يلقى بعُقب سيجارة

بجواره.. محمد عيد آخر ناظر أو مدير، كتلة من الحزم والتفانى والالتزام، ولكنه يعمل وحده ويتآمر عليه وكلاء المدرسة، أحمد نصر أو نصر أحمد المفتش الأول، الساخط الغاضب الذى أرسلوه إلى استراليا فى بعثة تعليمية، كان يرغب فى الهرب وعدم العودة، إلا أنه لم يستطع، فجواز سفره صالح لستة شهور فقط وغير قابل للتجديد، ليعود إلينا صاباً غضبه، مسز نرجس صموئيل آخر مفتشة، القادمة فى الوقت بدل الضائع!.

(١٤)

بداية ديسمبر.. يوم ممطر.. والفصل فــى الــدور الأول، النوافذ مفتوحة والباب لا يغلق، حاول التلاميذ إغلاقه أكثر من مرة إلا أنه أصر على أن يبقى موارباً، والتلاميذ مثل الكتاكيت فى حالة انكماش.. اقطع الفصل، ذهاباً وإيابــاً بــين صــفوف المقاعد الثلاثة الطويلة، اذهب إلى السبورة، أكتب كلمة وأطلب من التلاميذ أن يرددونها ورائى.. لا صوت فى الفصل ســوى صوتى عندما أتوقف، أسمع أنفاس صغارى، فراش يأتينى تلو فراش.. يخبرنى أن الست المفتشة فى حجرة الناظر وقد تهبط علىَّ فى أى وقت.. تجاربى السابقة مع أحمــد نــصر ليــست مبشرة، وها هى مفتشة تنتمى بالطبع لجيل نصر وربما تكون أكثر حدة!.

جاءنى المدرس الأول، دبلوم معلمين، خمس سنوات بعــد الإعدادية، عمل فى بداية حياته مدرســاً للمــواد الاجتماعيــة للمرحلة الإبتدائية، ثم انتقل للعمل فى الإعدادى مدرســاً للغــة الإنجليزية وترقى وأصبح مدرساً أول، وامتلك دراجة يدور بها على التلاميذ لإعطاء الدروس الخصوصية.. جاءنى إلى الفصل

يخبرنى بما نقله إلىّ الفراشون.. الست المفتــشة فــى حجــرة الناظر، يتفحص وقع كلماته فى عيونى: قد تزورك، فهل أنــت مستعد للزيارة؟.. فلتأتِ وقتما تشاء.. هل أنت مستعد.. كررها للمرة الثانية.. دفتــر تحــضيرك جــاهز، كراســات الأولاد مصححة، دفتر أعمال السنة كامل.. " دعها تأتى ".. كلمتين لم أزدْ عليهما.

مدرس جديد فى المدرسة، يحاول المدرس الأول أن يفرض عليه سطوته، لم أتوسل طلباً للحماية والثمن معــروف.. لــم يمضِ علىّ فى المدرسة ثلاثة شهور، منقول حديثاً من سوهاج ومعى زميل آخر جاء من أسوان، الزميل اكتشف نفوذ المدرس الأول من أول لحظة، وسمع عن قدراته فى نقل من لا يرغب فى التعامل معه، فآثر السلامة.. زيارة منزلية إليه.. حمل معه فاكهة وحلويات، سلة كاملة إلى الكاتب المــصرى وأصــبحت العلاقة بينهما سمناً على عسل، دق الجرس يعلن انتهاء الحصة ولم تصل الست المفتشة.. صعدتُ إلى حجرة الناظر.. وجدتها، فى بداية الأربعينات.. رقيقة الحجم والملامح.. ترتدى جاكــت سادة أسود اللون، فوق فستان منقوش تغلــب عليــه الزرقــة، الحذاء أسود لم يمسه المطر لا يزيد كعبه عن بوصة واحــدة.. بجوارها حقيبة كبيرة.. تناغم واتساق ذوقى، طلبــتْ منــى أن

أجلس أمامها وقدمتْ نفسها.. مسز نرجس صموئيل موجه اللغة الإنجليزية.. يا مرحبا.. شابة تتحدث وتتحرك وتتصرف مثل العجائز فيها بعض من حنان الأمهات.

تحدثتُ باللغة الإنجليزية والمدرس الأول يجلس بجوارها لا يفتح فاهاً بكلمة. فكل ما يعرفه ويدرسه لتلاميذه هذا شباك.. وهذا باب.. وهذا كتاب.. يتظاهر بأنه يفهم ما تقول.. لقد جاءت اليوم فى زيارة إرشادية.. لن تدخل الفصول.. الغرض التعرف على المدرسين الجدد.. جاء زميلى، أخرجت من حقيبتها نوتة صغيرة.. كتبت اسمينا والمؤهل وتاريخه والتخصص، بالطبع لديها كل هذه المعلومات فى التوجيه، إلا أن الغرض تفقدى كما قالتْ والتعرف عن قرب على الجدد.. صوتها الخفيض جعلنى انحنى بعض الشئ لسماعها.. ستزورنا الأسبوع القادم وربما يتحسن الجو.. بدأت الحديث بالجو وانتهت به مثل الإنجليز.. وقفنا لتوديعها.. أخرجت من حقيبتها شمسية صغيرة تستقبل عليها حبيبات المطر وخرجت تتهادى من باب المدرسة.

المدرس الأول الذى لا يهم وصف هيئته، لأنها لا توصف انبرى قائلا: إنه منعها من دخول فصولنا، فهى لم تخطره بقدومها.. كما أننا جدد بعض الشئ ولابد من الاستعداد لمثل

هذه الزيارات، وأنها رضخت فى النهاية لأمره، وأجلتْ زياراتها الفعلية إلى الأسبوع القادم، وعلينا تقديم دفاتر التحضير له وكشوف الدرجات، وهو لن يتركها تدخل فصولنا وحدها، بل ستكون رجله على رجلها، حتى لا " تستفرد " بنا!.

جاءتْ فى الموعد الذى حددته، طلبتْ مقابلتى فى حجرة الناظر، سألتنى عن الفصل الذى أرغب أن تزورنى فيه، وضعت أمامها جدول حصصى وطلبت منها أن تختار هى ما تشاء.. سأدخل معك الحصة القادمة مباشرة، دخلت لم تصحب معها المدرس الأول كما كان يقول، تجاهلته متعمدة.. جلست فى نهاية الفصل الحصة بأكملها.. تدون ملاحظات فى نوتة صغيرة معها. جلسنا فى حجرة الناظر.. امتدحتنى.. قالت ما يطربنى ويشبع غرورى ويخفف من توترى.. طلبت أن أبعد السيجارة التى أدخنها بعض الشئ.. ووصفتنى بأننى " مدخنة " حديثها كله باللغة الإنجليزية.. حذرتنى من مضار التدخين، وقالت لى: إن هناك صديقاً للأسرة توفى بسبب التدخين، ذكرت اسمه.. أمين يوسف غراب.. سألتنى إذا كنت أعرفه، وانتظرتْ منى إجابة!، أومأت برأسى لها.. طبعا أعرفه إنه مؤلف روايات عديدة، منها " ست البنات " و " سنوات الحب " و" الأبواب المغلقة " و " شقة فى الجيزة " ورواية " أشياء لا

تشترى "، وأشهر رواياته وإن لم تكن أجودها " شباب أمراة "، التى تحولت إلى فيلم أخرجه صلاح أبو سيف، ومثلتـــه تحيـــة كاريوكا وشكرى سرحان.. خلعتْ نظارة القراءة بتأنٍ وتركتها تتدلى بالسلسلة التى تربطها بها على صدرها ونظرتْ إلـــىَّ.. يبدو أنها كانت تتعامل مع مدرسين جهلـــة.. برقـــتْ عيناهـــا ولمعتْ لم تجدْ ما تقوله.. قليلة الكلام.. أعادت النظـــارة إلـــى عينيها ببطء شديد.. هممت.. واختتمت حديثها معـــى بجملـــة أتذكرها وكأننى سمعتها بالأمس.. لقـــد " ولـــدت مدرســـا " ، زيارتها جاءت متأخرة، لقد اتخذتُ قـــرارى بـــالهروب مـــن التدريس!.

أغرق فى فيضان من الذكريات عندما اقتـــرب مـــن وزارة التربية والتعليم.. دخلتُ مبنى الوزارة اليوم.. خرجـــت.. لـــم أنجزْ شيئاً، ولم أحصلْ على صورة من قرار تعيينى!، بـــسبب تسويف الثعلب الصغير.. وكذب المسئول الكبير، ركبت المترو وشفتاى مزمومتان، مغلقاً صنبور الذكريات حتى لا أضحك أو أبتسم، وحتى لا أرى من يشفق علىَّ ويخبط كفيه قائلاً: لاحول ولا قوة إلا بالله، الناس بتكلم نفسها!.

قبل أن أخلع المفتاح من ثقب باب شقتى وأدفعه بيدى الثانية للدخول، سمعت جرس التليفون يرن، إنه هانئ الكفـــراوى ولا

أرغب فى الحديث معه، هرع الأولاد لرفع السماعة.. نهـرتهم وطلبتُ منهم ترك التليفون كما هو: لا أحـد يقتـرب منـه.. إحباطات اليوم كله محفورة علـى وجهـى.. قبـل أن أخلـع ملابسى.. وضعتْ " أم العيال " طعام الغداء أمامى، وسـاقتْ الأولاد إلى حجرة داخلية، وجهى ينذر بالغضب، وقد اعتـادت على ذلك، وقد تسألنى ليلاً: ماذا كان بك عندما أتيت عصراً ؟، و لا تسأل ، فهى لا تهتم إلا بمصاريف البيت وطلبات الأولاد وأقل القليل من الطلبات.. ما عدا ذلك، فأذهب أنـا وغـضبى وإحباطاتى ومشاغلى اليومية ومتاعب العمل إلـى الجحـيم!.. وعندما أسألها لماذا لا تسألنى.. تجيب بأن لديها ما يكفيها مـن مشاكل العمل والمنزل.. تبدو كأنها زوجة مريحة.. يحـسدنى عليها الأقارب والأصدقاء، إلا أنها غير ذلك على الإطلاق!.

قبل أول لقمة تدخل فمى، رن جرس التليفون مجدداً.. إنـه هانئ الكفراوى بإصراره وإلحاحه، فانا أعرفه وهو يعرفنـى.. يعرف أننى جالسٌ الآن على الطعام، ويحفـظ بدقـة مواعيـد عودتى وعاداتى اليومية، لن أهنأ بالطعام ما لـم أردْ عليـه، رفعتُ السماعة.. أهلا يا هانئ.. يا كفراوى.. لم أفعـلْ شـيئاً اليوم ولم أُنجزْ عملاً.. " بسيطة ".. صرخت فى وجهه وأنذرته أنها آخر مرة أسمع منه كلمة بسيطة هذه، وإذا كان يرغب فى

إنهاء ما بيننا من علاقة فعليه إغاظتنى بهذه الكلمة.. حاول أن يخفف من الأزمة، سألنى ماذا آكل؟ لم أجبه ولا أعلــم ســبب ظهور صورة سيد أذى فى ملعقة الأرز التى أحملها إلى فمى، استمر حديثى معه وفى الوقت نفسه لم أتوقــف عــن الأكــل والمضغ ، لماذا يا هانئ.. يا كفراوى، لا تتزعم حملة لجمــع التبرعات لإقامة حفل وداع لسيد أذى، الــذى ســيخرج إلــى المعاش نهاية هذا الشهر.. يضحك!.

حفلة وداع لسيد أذى، لماذا هذا الحب؟، إنها البغضاء بعينها ياصديقى وليس الحب، إنها فرحة الكراهية بخروج هذا الفاسد اللعين الذى تحبه من المؤسسة، ألم تعلم أن اليابان احتفلت منذ سنوات بوفاة آخر أمى لديها.. أقامت حفلاً قومياً.. حــضره تلاميذ المدارس وكبار رجال التعلــيم.. لقــد فرحــوا بوفاتــه ومغادرته الدنيا لتفخر اليابان بأن جزرها المتناثرة ليس علــى سطحها أمى واحد.. وحفلتنا ستكون لوداع أول فاســد ولــيس آخرهم!.

امضغ الطعام واستمر.. قد أسافر غداً أو بعــد غــد إلــى الصعيد، إلى طهطا تحديداً ومنها إلى جهينة أول بلدة عملــت بها.. أهل طهطا لا ينطقون حرف الهاء، يدعونها " طحطــا " كما أن أهل جهينة لا ينطقون حرف الواو، إذا جاء فى منتصف

الكلمة، فهم يقولون عن " الكوبرى " " الكِبرى " بكسر حـــرف الكاف.. ويضحك الكفراوى.

أفضل فصول السنة للسفر إلى الصعيد الآن، فنحن فى نهاية الخريف وبداية الشتاء.. وأفضل وســائل الــسفر.. التــار.. وأنسب الأوقات ليلا، القطارات لم تتغير مواعيدها منذ عشرات السنين، إلا أن أعدادها أصبحت كثيرة، وأعلم أن هناك قطــاراً يخرج من القاهرة ليلاً ليصل سوهاج مع " ندى الــصبحية "، فوجئت بعدد القطارات المتجهة إلى قِبلى ليلاً عندما وقفت أمام شباك الحجز.. أكثر من خمسة قطارات فى الليلــة الواحــدة، حجزت تذكرة فى قطار الحادية عشرة والنصف ليلاً.. تــذكرة إلى طهطا يصلها فى السادسة والنصف تقريبا.

عدت إلى منزلى، أخبرت زوجتى بسفرى وقصة البحــث عن ختم النسر الضاحك وبعض الأوراق المطلوبة، لم تهتم ولم تكترث اكتفت بقول: " تروح وتيجى بالــسلامة " وتــداركت.. اترك مصروف الأولاد الصباحى بعدد الأيام التـــى تــستغرقها هناك. لن أمكث إلا يوماً واحداً، وليلة فى القطار وسأعود فـــى قطار العصر الذى يصل القاهرة حــوالى الــساعة العاشــرة والنصف، تقمصت زوجتى شخصية الموظفين المؤمنين.. قل: إن شاء الله.. بإذن الله.

محطة مصر كأنها الظهر.. حركـة المـسافرين والباعـة والشيالين.. فى أوجها، لم أرَ المحطة فى حياتى خالية أو شـبه خالية إلا مرتين.. فى أحداث ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧ الذى أطلق عليها حينذاك الرئيس أنور السادات " انتفاضة الحرامية"، وفى أحداث شغب الأمن المركزى فى ٢٤ فبراير ١٩٨٦ حيث فرض حظر التجوال، أرصفة قطارات الوجه القبلى فى الجهة الغربية من المحطة رصيف ١٣،١٢،١١..الناس غير الناس.. المنتظرون للقطار يبدو أنهم ليسوا بصعايدة ، الجلباب البلـدى الصعيدى المنفوش اختفى، والشوارب التـى علـى الوجـوه انكمشت، أصبحت مثل شوارب أهل القاهرة وبحرى.. لم أجد شارباً واحداً لافتاً للنظر، ولم أجدْ من يضع على رأسه " لاسة"، أو طاقية جديرة بالإحترام.. هؤلاء ليسوا بـصعايدة.. وربمـا يكون التطور الطبيعى للأشياء.

هذب الصعايدة من شواربهم وتخلصوا من بعض عـاداتهم، إلا أن ذلك فى مدن المهجر خـارج الـصعيد وأبقـوا علـى ثوابتهم.. أفسحوا لى الطريق لصعود القطار.. أفندى يرتـدى بدلة كاملة ورباط عنق والنظارة الطبية تضفى علـىَّ مهابـة، جلستُ فى مقعدى منتظراً تحرك القطـار.. الدرجـة الثانيـة المكيفة ليست مثل عربات الدرجة الثالثة يختفى منهـا الباعـة

الجائلون ولا يظهرون إلا فى المحطات.. كعادة أهل الصعيد.. يتفحصون وجوه بعضهم البعض فى القطار خشية أن يكون بين الركاب غريم.. لم يجلس أحد بجانبى.. فى المسافات الطويلـــة بمجرد تحرك القطار يخلعون الأحذية، أخرجت مـــن حقيبتـــى شبشباً وخلعتُ الجاكت وذهبتُ مرغماًإلى بلاط سلطان النوم!.

(١٥)

لم أصحُ من غفوتى إلا عند دخول القطار محطة الواسطى وتوقفه وسماع صوت الباعة " السريحة " هناك يبدو عرفاً فى هيئة السكك الحديدية.. الباعة الجائلون مصرح لهم بالـدخول والتحرك فى قطارات الدرجة الثالثة.. درجة الغلابة والمجندين والمهمشين، أما الدرجة الأولى والثانية فمـسموح لهـم فقـط بالمناداة على بضائعهم أمام أبواب القطار، وإذا طلبهم راكـب دخلوا له، عالم القطارات والسكك الحديدية لم يخـلُ فـيلم أو رواية بها سفر إلا وتعرض لها، إلا أن تجربتى تختلف، فالسكة الحديد من أكثر المرافق فى بلدنا انضباطاً مهما يقـال عنهـا، فالقطارات ما زالت تتحرك فى مواعيدها وتصل دائمـاً فـى مواعيدها، تدهورت بعض المظاهر، إلا أن هناك ما يميزهـا عن غيرها.. قد لا يصدقنى أحد عندما أقول إننى سافرت إلـى سوهاج أول مرة على قدم واحدة، لـم أجـد موضـعا للقـدم الأخرى.. ناس نيام يفترشون الأرض، أسند ظهرى على جدار القطار وأخشى التحرك يميناً أو يساراً.. سافرت فى الدرجـة الثالثة.. أخذت قطار الساعة الرابعة والثلث عصراً القادم مـن الإسكندرية والمتجه للصعيد، وصل سوهاج مـع أذان الفجـر التالى. تنظيمات الباعة الجائلين، أشد صرامة من الميلـشيات العسكرية، هناك من يسْرح فى عربة واحدة من القطار، وهناك

من يمتلك القطار كله، ابتداء من العربة الأولى إلــى العربــة الأخيرة.. باعة شاى.. أكواب من الشاى المغلى على صــينية، يتحركون بها و يقفزون فوق الركاب النائمين.. باعة "الحاجة الساقعة " ودقاتهم على جرادل الصاج، وهناك من يبيعون ماءً فقط.. كان الكوب منذ خمسة وعشرين عاماً بتعريفه.. خمــسة مليمات.. نصف قرش.. هناك باعــة " الــسميط والبــيض "، الغريب باعة الملابس، فهم لم يقسّموا القطــار إلــى عربــات ولكنهم قسّموا الخط من أوله إلى آخره تقسيماً جغرافياً، بمجرد تحرك القطار من مصر يظهر من يبيع جوارب، ومن الجيــزة حتى الواسطى من يبيع " بُلَغْ " وشباشب، وبانتهاء الواســطى ينادى الباعة على الملابس الداخلية من كلسونات وفانلات.. ثم هناك الجلاليب.. حتى قنا حيث تبــاع الطــواقى.. إذا دخلــت القطار عارياً تنزل منه بكامل هيئتك!.

الظلام خارج القطار.. والمنــازل العاليــة قريبــة الــشبه بعمارات القاهرة تحجب الرؤية، إلا أن تكييف القطار البــارد يشعرك بآدميتك، ويدفعنى لتذكر رحلات الماضى.. كنت أستقل القطار ثلاث أو أربع مرات على الأقل فى الشهر، كان يسمى فى ذلك الحين بــ " المجرى "، ست أو ثمانى رحلات شهرياً، رحلة أول الشهر غالباً فى المجرى، وبــاقى الــرحلات مــع المهمشين فى عربات الدرجة الثالثة، حيث ينام المتعبون منهم أسفل المقاعد وفى الممــرات وفــوق الأرفــف المخصــصة

للحقائب.. أثناء العودة من سوهاج إلى القاهرة تكون الفرصة أكبر في العثور على مقعد، أما من القاهرة للصعيد، فالقطار يحجزه بلطجية بالكامل.. لا تجلس على مقعد إلا بعد أن تدفع خمسين قرشا في الظروف العادية.. وفي المواسم وقبل الأعياد ترتفع الإتاوة إلى جنيه أو اثنين، أكثر من قيمة التذكرة الفعلية التي تحصلها هيئة السكك الحديدية، مما شجعها فيما بعد على رفع قيمة التذكرة!.

القطار يشق مراكز الواسطى ويقترب من بنى سويف ولم يظهر الكمسارى.. هذا الشخص المهيب الوحيد القادر على إيقاف القطار بصفارته، والقادر على القبض على أى راكب وتسليمه إلى الشرطة في المحطة التالية.. كان العاملون في السكك الحديدية من أثرياء موظفي مصر، كنا نسكن في منزل صاحبه سائق قطار.. متزوج من أربع نساء وله أربعة منازل في أربع محافظات.. كان أبى يقول: لو الشرع يجيز له لتزوج من خامسة وسادسة وسابعة، راتبه الشهرى لا يقل عن عشرين جنيهاً، وكان مرتب الجامعي في ذلك الحين لا يزيد عن اثنى عشرة. ويقول أبى: إن راتبه لايمسه، ولا يأتى ناحيته، يدخره كله ويشترى به منازل وبيوتاً ويعيش هو وزوجاته وأولاده من المكأفاة، فقد كان يحصل على تعريفة كاملة مقابل كل كيلو متر يقطعه، إلا أن المكافاة تلك مربوطة بالتزامه بالمواعيد ووصول القطار إلى محطته النهائية في موعده، رحلة سوهاج أو أسيوط

يتقاضى عنها ثلاثمائة قرش مكأفاة.. ثلاثة جنيهات في اليوم الواحد، يترك منهم لكن زوجة خمسين قرشاً لتدبرحالها.. أتذكره.. بدلة زيتي غاية في النظافة وحذاء أسود يلمع وعلى صدر الجاكت ثلاثة حروف متقاربة من بعضها.. عندما سألت أبي.. قال لي: سكك حديد مصر " س ح م ".. رجل ضخم الجثة.. عندما يلقى التحية في الشارع يقف له جميع الناس.. كنت أظن أن اسمه " اتفضل يا على أفندى "، من مناداة الناس عليه!، الطفولة مخزن آخر للذكريات، إلا أنها ذكريات عذبة!، تقل فيها درجة الملوحة والمرارة بفضل الترسيب.

ظهر الكمسارى.. نصف " اتفضل يا على افندى " في الحجم والطول،في بداية الأربعنات من العمر تقريباً، ليست عليه هيبة.. بدلته " جربانة "، و " حذاؤه وسخ ".. لم يعتدل له أحد في جلسته.. كل راكب أخرج تذكرته بتكاسل، وبقلم صغير خطَّ خطاً على طرف التذكرة، وبحث لنفسه في نهاية العربة عن مقعد شاغر جلس عليه يدخن بشراهة، المشكلة أن عربات الدرجة الأولى والثانية تنعدم فيهما الحميمية.. ولا تجد من يريد أن يحدثك ولا تجد من يشجعك على الحديث معه، ها هو الكمسارى، سأجلس بجواره نتجاذب اطراف حديث قد لا يرغب فيه، إلا أني أرغبه بغرض تمضية الوقت.. كما أنني بجلوسي جانبه سأتشجع على التدخين، فلم أشعل سيجارة منذ

تحرك القطار من القاهرة، خاصة أننى لم أرَ راكبـاً يُـدخن، فظننتُ فى بداية الأمر أن هذه العربة ممنوع فيها التدخين.

الأمور لم تعد كما كانت، الهيئة تعمل متعمدة على إفقار من يعمل بها وتريد التخلص مــن العمالــة الزائــدة.. المكافــآت تقلصت، هناك حد أدنى لصرف المكافآت، وجدول العمل دائما أقل من الحد الأدنى، فلا يتم الصرف، استبدلوا مكافأة الكيلــو متر بما يسمى حوافز كل ثلاثة شهور، إلا أنها ملاليم وكبـار العاملين فى الهيئة تصرف لهم الملايين، يقولــون إن الـسكة الحديد تخسر وأنا على استعداد لتأجير قطار لمدة عام بأى مبلغ يحددونه وسأكسب أضعافا مضاعفة.. تعلم لماذا؟، لأننــى لــن استغنى عن عامل أو سائق أو كمسارى.. سأســرح أصــحاب الياقات البيضاء والكــروش المنتفخــة.. الكمــسارى " بــربخ وانفتح"، ينفخ دخان السيجارة، ويلقى متاعبه ويبعثــر أســرار المصلحة!.

عمال السكك الحديدية من أكثر عمال مصر وعياً بالسياسة والحركة النقابية.. تاريخهم الطويل يشهد بذلك، عرفت التيارات اليسارية طريقها بينهم مبكراً، أول من هددوا باستخدام ســلاح الإضراب لرفع الأجور وتحسين ظــروف العمــل ونجحــوا، شاركوا فى الانتفاضات الوطنية ضد المحتل الأجنبى وعنــابر بولاق والسبتية كانت مفرخة للكــوادر الــسياسية والوطنيــة، الكمسارى يحكى بحرقة عما آل إليه الحال وإهمــال أعمــال

الصيانة عمداً وعدم حماية الكمسارية والسائقين من البلطجية والإتاوات المفروضة حتى على تعيين أبناء العاملين فى هذا المرفق الحيوى.

نقترب من أول مراكز المنيا.. أين أنت ياهانئ.. يا كفراوى.. يرن جرس تليفونى المحمول فى جيبى.. أهلاً.. أهلاً.. كأنك سمعتنى وأنا أفكر فيك.. أنا الآن فى القطار.. سأصل طهطا صباحاً.. كان من الممكن أن تكون معى وتستمع برحلة جيدة، إلا أنك تهربت، كعادتك فى المواقف التى أحتاجك فيها،الرحلة..رحلتك.. وستعود حتما بقصص وحكايات وقد تبخل فى نشرها بالجريدة، لأنها لا تدفع.. ويضحك الكفراوى ويستمر فى ضحكه.. حتى انقطع الخط وترن ضحكته فى أذنى.

بدأتُ أشعر بوطأة السفر وحيداً بلا رفيق، وأمعن النظر فى المثل القائل " الرفيق قبل الطريق ".. الطريق لا تهم صعوبته، إلا أن الرفيق يخفف من مشقة الرحلة.. انتقلتُ إلى البوفيه، عربة فى وسط القطار.. يقدم شاياً وقهوة ووجبات سريعة وبعض قطع الكيك الحجرى.. تعثرت فى واحدة منها عندما ظننت أن الخدمة بالبوفيه بمثل الأسعار المعلنة.. كوب من الشاى وقطعة كيك بخمسة جنيهات.. أسعار سياحية.. ثمنها بعيداً عن القطار وعن خط السكة الحديد لا يزيد بأية حال عن جنيه ونصف الجنيه،.. القطار يطوى الطريق.. يقف فى

مراكز عديدة.. يخرج الباعة السريحة ليبيعوا منتجاتهم لركاب القطار.. سكر جلاب فى أبو قرقاص منيا.. رومـــان منفلـــوط رغم انتهاء موسمه فى القاهرة.. الساعة تقترب من الخامسة.. النوافذ المغلقة لن تسمح بتسرب أذان الفجر، إلا أن المسافة من أسيوط إلى طهطا سوهاج لن تزيد عن ساعة.

بمجرد تحرك القطار من محطة أسيوط ظهـــر فـــى بدايـــة العربة كمسارى جديد مثل، " اتفضل يا على أفنـــدى " نفـــس الطول والعرض فى نهاية الخمسينات.. شعره أبيض فـــضى، البدلة الزيتى فى غاية النظافة.. حليق الذقن وكأنه عائد لتوه من عند الحلاق.. وقف فى بداية العربة يلقى نظرة شـــاملة علـــى الركاب، وأفسح ما بين قدميه وأخرج من جيبه السفلى دفتـــراً وقلماً.. لا أعرف لماذا تسمرتْ عيناى عليه، ربما ذكرنى بـــــ " اتفضل يا على أفندى " والذى كنت معجباً به وببدلتـــه أشـــد الإعجاب عندما كنت طفلاً صغيراً، وكانت حكايات أبى عنـــه تثير خيالى، فهو دائم السفر.. لا يظهر فى الشارع.. إلا مـــرة واحدة فى الأسبوع، كما أن حديث أبـــى عـــن ثرائـــه وغنـــاه وزواجه من نساء عديدات، جعلنى أسأل مبكـــراً مـــاذا يفعـــل الإنسان كى يصبح كمسارياً عندما يكبر؟.

لم يتجه الكمسارى الجديد إلا إلى الركـــاب الجـــدد.. مـــرَّ بجانبى ولم يسألنى عن التذكرة.. الخبرة بالفعل تقلل الجهد فى أداء العمل.. لم يقدم له الركاب التذاكر بتكاسل كما فعلوا مـــع

الكمسارى الأول، اعتدلوا فى جلساتهم وقدموها له بكل إجــلال واحترام.. يشكر الركاب ويهز رأسه بأناة وكأنّه أســتاذ فــى الجامعة.. توجه إلى راكب معنا فى العربة استقل القطار فــى محطة مصر.. سأله عن التذكرة ودار حديث هامس لم أتبينه، إلا أن الراكب احتد قليلاً، طلب منه الكمسارى الهدوء.. وطالبه بدفع فرق ثمن التذكرة.. هذه الجملة سمعتها.. فقد قطع نصف تذكرة وليس معه أى كارنيه من الكارنيهات التــى تبــيح لــه ركوب القطارات بنصف تعريفة، بعد جدال يمسك بزمامه جيداً الكمسارى الشبيه بـــ " اتفضل ياعلى أفندى "، يــدفع الراكــب فرق التذكرة ويعطيه إيصالاً ويشكره ويخرج من العربة إلــى العربة الأخرى.

ضوء النهار يفلق ظلمة الليل ويتسرب من الزجاج المزدوج لداخل العربة.. أمامى أقل من ساعة وإلى طهطا.. هل أنــزل فيها أو أستمر حتى سوهاج، ومن سوهاج أستقل ســيارة إلــى جهينة؟.. محطة سوهاج ومظلاتها الخشبية لها معــى ذكــرى جميلة، وقد كانت بداية رحلة ومرحلة كنت أظنها لن تنتهــى، كانت أصعب فترة أو هكذا اعتقدت فى بداية حياتى العملية، وبعد سنوات أدركت أنها كانت مجرد " بروفة " صــغيرة لمــا عشته بعد ذلك.. فى محطة سوهاج منذ ربع قــرن.. نزلــت.. ومنها شاهدت ما لم أشاهد من قبل.. وتعلمت ما لم أكن أتعلمه لو لم أذهب إلى هناك!.

رن جرس تليفوني المحمول مرة أخرى.. قرأت الرقم.. إنه منزلي.. يبدو أن زوجتي استيقظت مع الفجر وفكرت في الاتصال بي للاطمئنان على وصولي.. أنا على مقربة نصف ساعة لا أكثر من محطة طهطا.. سأنزل طهطا وليس سوهاج.. سأعود بأذن الله في قطار العصر من سوهاج والذي يصل القاهرة العاشرة والنصف.. الرحلة مريحة حتى الآن وأشعر أن عمري عاد للوراء.. وأنني رجعت إلى شبابي، الذكريات جميلة.. لم أنمْ في القطار.. غفوتُ فقط في بداية الرحلة.. مع السلامة!.

عندما هبطتُ إلى سوهاج منذ ربع قرن بعد رحلة مضنية قضيتها على قدم واحدة.. نزلت من القطار وأنا لا أتبين لون قميصي، فقد كان أزرق في أبيض " كاروهات ".. التراب حول الزرقة إلى سواد، والبياض إلى زرقة، فاتجهت إلى بوفيه المحطة لأغسل وجهي وكفيَّ وانفض ما بي من تراب.. البنطلون لم يتأثركثيرا، فقد كان من الجينز الأزرق.. ماركة كان يتباهى بها الشباب في ذلك الحين " إف يو إس ".. أسقطني القطار في المحطة الساعة الخامسة والنصف تقريباً، النهار يحاول أن يلامس الأرض والناس، إلا أن البشر الذين استقيظوا

مبكراً لم يرحبوا به بالقدر الكافي فتعلق ببعض أستار الليـــل.. مشقة السفر جعلتنى لا أتبـــين إذا كـــان فجـــراً أو ضـــحى أو صبحاً.. جلست فى البوفيه المفتــوح علـــى المحطـــة، علـــى الرصيف المقابل المتجه إلـــى بحـــرى، عـــدد مـــن الأفـــراد متناثرون.. يجلسون القرفصاء بجانـــب " قُفَـفْ " وأغـــراض أخرى.. وفى البوفيه لا يجلس إلا أنا وشخص آخر على طاولة منعزلة يبدو فى مثل سنى أو أكبر قليلاً، توجهتُ إليه.. أستعير منه عود ثقاب فقد انتهى ما معى من كبريت، وكنت قد اشتريت ثلاث علب سجائر، وعلبة كبريت واحدة من محطة مصر.

باغتنى بالسؤال.. تربية وتعليم ولا وزارة الصحة أو الإدارة المحلية؟، وكأنَّها الجهات الثلاث الوحيدة التى تقـــذف بأبنـــاء بحرى فى جوف الصعيد!.. تربية وتعليم.. طلب منى أن أجلس معه.. حتى يأتى قطاره الذاهب إلى " شندويل".. علمتُ منه أنها بلدة قريبة من سوهاج، يعمل بها طبيباً وأنه قضى فى المحافظة عامين، وفى انتظار المكلفين الجدد ليتم نقله إلى القاهرة.. بعدما عمل فى عدد من المجمعات الصحية فى قرى نائية، وشندويل تلك ترفيه مقارنة بغيرها من قرى ونجوع ســـوهاج اللعينـــة.. سبَّ ولعنَ الأيام التى جاءت به إلى هنا ونـــصحنى أن هنـــاك ثلاثة أماكن يجب ألا أذهب إليها بأية حال من الأحـــوال، وإذا اكتشفت فى المديرية أنهم " وزعونى " على إحدى هذه القرى، والتى تحولت إلى مراكز حديثاً، الأفضل لـــى أن أعـــود إلـــى

القاهرة.. طريقة نطقه لأسماء القرى تنم عن معاناة حقيقية وألم وفزع وإشفاق عليَّ بأن يحل بى ما حدث له!.

هذه القرى لن تجد فيها ما تأكله أو ما تشربه.. لـن تجـد سجائر لتدخنها.. لن تجد ناساً تحكى معهم أو تعيش بينهم.. لن تجد بشراً، فهم وحوش آدمية.. القتل عندهم لأهون الأسـباب، والسلاح فى أيديهم مثل الميداليات، قد يكونون مرغمين للتعامل مع طبيب إلا أنهم ليسوا فى حاجة إلى مـدرس وعـاد لـذكر أسماء الأماكن الثلاثة، أخرجت ورقة وأملانى.. جهينة وكتبتها " جوهينة " بحرف الواو، وأولاد طوق شـرق و " سـاقلته "، سألته كيف أكتب " ساقلته " تلك، أجابنى ؟أ/ ا؛ تكتـب كلمـة سأقتله!، جاء قطاره وجدته يـنهض.. يحتـضننى ويـودعنى وكأننى سأذهب إلى مكان لن أعود منه أبداً.. أول القصيدة ..!.

التليفون المحمول يخرجنى كرهاً من ذكرياتى، وكأنّه يعـزُ عليه أن يتركنى فى حالى.. يرن مرة أخرى، الـشاشة تظهـر رقم تليفون منزل أبى، فى الغالب إنها أمى، فقد تكون زوجتى التى لا تبتل فى فمها فولة قد أبلغتها أننى سافرت ألى سوهاج، ولم تنتظر حتى سطوع الشمس.. إنها بالفعل أمى: صباح الخير يا شاكر.. مراتك قالت إنك سافرت.. أنت فين.. فى القطـار.. كان مفروض تصطحب ابنك الكبير، احنا مخلفين العيال ليه.. عشان نستند عليهم فى ساعة زنقة، الأمر لا يحتاج إبناً كبيـراً أو صغيراً.. يوم واحد سفر وسأعود بإذن الله ليلاً.. لا داعـى

للقلق، فأنا على مقربة من الدخول إلى طهطا.. القطار الآن فى طما أول مراكز محافظة سوهاج.. " أشوف وشك بخيــر يــا أماه."

لا أستطيع أن أنسى المنظر العام لمحطة سوهاج فى هــذا الصباح الذى ظننته لعينا!.. عشرات من الغربان السود فــوق أرصفة المحطة الثلاثة وفوق أعمدة التلغراف، وعقرب دقــائق الساعة يتحرك ببطء قاتل، انتظاراً للخــروج مــن المحطــة، للذهاب إلى مديرية التعليم فى سوهاج.. مبنى نظيــف علــى الكورنيش ، وقفتُ أمامه بعدما عرفت مكانه، ثم بحثــتُ عــن مطعم لتناول الإفطار، والعودة مرة أخرى إلى مبنى مديريــة التعليم، بعد أن يصل إليه الموظفون.. شئون العاملين فى الدور الثالث، موظف يدعى فضالى، طمستْ السنوات بقيــة اســمه، حمداً لله على السلامة، يا مرحباً، يــا ألــف مرحــب، شــاى وسجائر، وأخرج من درج مكتبه صندوقاً من الكرتون به كعك وبسكويت، وأقسم بالله العظيم أن أتناول بعضاً منه، وقدمت إليه شهادة مؤقتة للتخرج وسجل الحالة الجنائية وصــورة البطاقــة الشخصية وصورتين، سألنى عن إقرار الذمة المالية وطوابــع دمغة ومهن تعليمية، ليس معى أى منها، أخرج من درج آخر من مكتبه كل ما يلزم، لصق الطوابع، قدمتُ له ثمنها، رفــض تماماً، فضالى هذا يبدو ملاكاً وليس موظفاً، سألته عن توزيعى أو المدرسة التى سأعمل بها، أخرج كشوفاً من مكتبــه، قلّــب

فيها، مدرسة جهينة الإعدادية ، أخرجت الورقة التى أملاني إياها الطبيب، لم أجد جهينة فى الورقة، كنت كتبتها "جوهينة"، بحرف الواو،على خيرة الله، أعد خطاباً من أصل وصورة مُوجَّهاً إلى ناظر مدرسة جهينة لعمل الاجراءات اللازمة لقيامي بالعمل، سألته عن بُعد المسافة من المديرية إلى المدرسة، أوضح لى أنها فركة كعب، أتوبيس سينقلني إلى هناك، والتذكرة بعشرة قروش، ارتديت حذائي والجاكت، ودخل القطار محطة طهطا ونزلت منه لأبدأ هناك صباحاً جديداً.

بكل ثقة توجهت إلى المقهى المواجه للمحطة، طلبت قهوة واشتريت الجرائد الثلاث اليومية، تفحصتها وأغلقت عليها الحقيبة، الوقت مازال مبكراً ولن أجد موظفين فى إدراة جهينة التعليمية، المدارس تبدأ مبكراً، لماذا لا أذهب إلى المدرسة أولا، ثم أتوجه للإدارة؟، المدرسة التى عملت فيها.. دفعت حساب القهوة على عجل، توجهت لموقف التاكسيات، التطور الطبيعى للأشياء، لقد اختفت تاكسيات زمان، كانت السيارات التى تعمل على خط "طهطا_ جهينة " ملاكى، جميعها سوداء وماركة فورد طراز عام ١٩٢٥ وما قبلها، المكان مكتظ بميكروباصات تويوتا وهيونداى، جديدة ومُعتنى بها، بعض السائقين كانوا مازالوا يغسلون سياراتهم، ركبت وانطلق الميكروباص، المسافة من طهطا إلى جهينة حوالى سبعة عشر كيلو متراً فى اتجاه الجنوب الغربى، كان التاكسى القديم يقطعها

فى خمس وأربعين دقيقة، حقول على الجانبين " علـــى مـــدد الشوف "، تغيرت الأمور، المنازل الأسمنتية على الجانبين بدلاً من أعواد الذرة وسنابل القمح وعيدان القصب، إننا بالفعل بلـــد " عبيط "، أقمنا المبانى على الأراضى الزراعية، وذهبنا إلـــى الصحراء نستصلحها!. حتنزل فين..؟، فى جهينة ؟.. نحن الآن فى جهينة، سأنزل عند المدرسة، لقد تغيرت المعالم تماماً، كان للقرى علامات أعرفها، اختفت.. كنت أعرف نزلة الحاجر من عنبيس، من الطلحيات، ذابت فى بعضها بخلطة أسمنية، أمـام المدرسة نزلت، وإليها مباشرة دخلـتُ، هــرج ومــرج بــين المدرسين، ظنُّوا أننى مفتش قادم مـــن القـــاهرة أو المديريـــة، عرفنى زميل قديم ارتمى على، أحضاناً وقـبلاتٍ، يـا أهــلا بالأستاذ المفتش شاكر لطفى، يا أهلا بك، وصحبنى إلى حجرة الناظر، كان زميلاً قديماً، يوسف الرمكى، الناظر فى دورة فى سوهاج، دورة تدريبية لمدة أسبوع، ولو كان يعــرف موعــد مجيئك لانتظرك.. قدمنى للمدرسين المتوجسين، الأستاذ شاكر كان زميلنا هنا فى المدرسة، وأصبح الآن مفتشاً فى الـــوزارة، نعم عملتُ هنا منذ ربع قرن إلا أننى لست مفتشاً، لقد تركــت التربية والتعليم وجئت إلى هنا لزيارة الأصدقاء وإنهاء بعــض الأوراق الخاصة بى، انفرجت الأزمة وزال التــوتر وتـــنفس المدرسون الصعداء. القرية التى تحولت إلى مدينـــة، مازالـــت تعيش أجواء الماضى، الأخبار فيها تنتقل بسرعة النـــار فـــى

الهشيم، في أقل من ربع ساعة، دخل المدرسة رجال يسألون عن الأستاذ شاكر لطفى، كنت مدرسهم عندما علموا بسبب الزيارة وهو الحصول على ختم النسر ألقوا علىَّ باللوم، لقد كان أى منهم يستطيع القيام بهذه المهمة بدلاً من سفرى وتعبى، تعبيرات صادقة وليست مجاملة، أخبرتهم أننى سأتوجه إلى الإدارة التعليمية ومنها إلى منزل الأستاذ مهدى الضبع، وسأغادر جهينة حوالى الساعة الثانية، لألحق بقطار الرابعة من سوهاج، طالب بعضهم أن أبقى يوما أو أكثر، كل منهم يصرُّ على استضافتى بما فيهم عضو مجلس الشورى كمال أبو عقيل، كمال محمد إبراهيم على أبو عقيل صاحب الوجه البشوش، لم تغيره الأيام ولا المسئوليات، إلا أن مسحة حزن لم أعهدها فيه كانت تغطى وجهه.

جئت هذه البلدة أول مرة غريباً.. لا يعرفنى أحد ولا أعرف فيها أحداً، نصحنى الأستاذ فضالى أن أستقل الأتوبيس وأوهمنى إنها " فركة كعب "، من سوهاج إلى جهينة وكانت سفراً، وصلتُ إلى هذا المكان، أمام المدرسة بعد انتهاء الدوام، أحمل حقيبة سفر كبيرة، مكتوب عليها بالبوية البيضاء، الحاج محمد محمد لطفى وحرمه، كنت قد استعرتها من جدى رحمه الله، حقيبته تلك كانت لا تنزل من فوق الدولاب إلا قبل موسم الحج.. أعطاها لى وطلب المحافظة عليها، وقفت أمام المدرسة، الباب مغلق، التلاميذ غادروها، المدرسون ذهبوا،

وإذا بشخص يرقبنى، اقترب منى، ســـألنى إذا كنـــت مدرســـاً جديداً، ضحك قليلاً، عرفتك من أول وهلـــة، إلا أن الحقيبـــة والاسم المكتوب عليها ضللنى، الحاج لطفى وحرمـــه، لـــست بمنظر حاج وليس معك حرمك، قدم نفسه، حسين عبد الـــرحيم سكرتير مدرسة محمد فريد المجاورة التـــى تـــم إعـــداد أحـــد فصولها كاستراحة للمدرسين الجدد، حمل الحقيبة وسار أمامى إلى الاستراحة!.

فضالى آخر صغير.. لا يمت بـــصلة للكاتـــب المـــصرى الشهير، بمجرد دخولى عليه وتعريفى بنفسى، وأننى قادم تـــواً من القاهرة، وقطعت مئات الكيلومترات من أجل ختم صـــورة ورقة رسمية لم تختمْ، قام من مقعده وشدَّ على يدى، رحب بى، طلب لى شاياً وأعطانى سيجارة، ونظر فى صـــورة اســـتمارة ١٣٤ع.ح، وختمها فى أقل من دقيقة واحدة، انتهت المهمة التى جئت من أجلها، اسمك معروف يا أستاذ، لقد عملت هنـــا مـــن زمن، إلا أن الناس مازالت تحكى عنك، المدرســـون الـــذين جاءوا بعدك كانت تؤرقهم مقارنة الأهالى والتلاميذ بك، فضالى الصغير موظف شئون العاملين ليس من تلاميذى، فأنا أعرفهم بالواحد وبالاسم، وبالعائلة وبالربع، جُهينة قبيلة عربية مقـــسمة إلى أربعة بطون، حسام الدين، أولاد أحمد، بنى رمـــاد، أبـــو خبر،فضالى الصغير الجديد من عنبيس،على مقربة سبعة كيلو

مترات من جهينة، إلا أنه أتى إلى نفس المدرسة بعـــد أن تـــم نقلى إلى القاهرة بعد سنوات.

هل تتخيل مشقة السفر، ومشاكل موظفى القاهرة وتكاســـلهم فى أداء مهامهم.. أصل الاستمارة مختوم، فـــلا داعـــى لخـــتم الصورة ولكنها " لكاعة موظفين ".. أثناء شربى الشاى حكيت له جزءاً من مشكلتى، والتى يصفها الناس بأنها " بسيطة "، قال لى: إنها تبدو بسيطة بالفعل، عندنا هنا فـــى الـــصعيد، وكان من الممكن أن ترسل الملف، إلى أحـــد أصـــدقائك هنـــا لاستكماله ثم يرسله إليك مرة أخرى، بسيطة بالفعل عندنا أمَّـــا عندكم فلا ، بسبب فرق التوقيت، مهذب فى حديثه، بين كلمـــة أستاذ وأستاذ يضع كلمة أستاذ، لقد أخطأ الطبيب الشاب الـــذى قابلته فى حق هؤلاء الناس، إنهم أكثر من بشر، وجدت بيـــنهم من صادقته ودامت الصداقة سنوات وسنوات، وعدت إليهم بعد عمر طويل، تغير كل شئ فى البلد إلا سلوكيات الناس الأصيلة ومنظومة قيم الاحترام.

ختم لى صورة الاستمارة ووضعتها فى حقيبتى وأخبرتـــه بقصة البحث عن القرار الوزارى الذى جاء بـــى إلـــى هـــذا المكان، سألنى، هل تحفظ رقمه وتاريخه، أجبت نعم، ســـألنى عن بعض الأسماء التى جاءت معى فى نفس القـــرار ونفـــس العام إلى جُهينة، أخبرته، أمر أحد العمـــال بإحـــضار بعـــض ملفات الزملاء القدامى، قلَّب فى الأوراق، لم يعثر على القرار

المطلوب، استأذن بأدب شديد أن أترك له يوماً أو يومين يبحث خلالهما عن القرار، كتب رقمه وتاريخه فى ورقة أمامه وكتب عنوانى فى القاهرة، ووعدنى بإرساله بخطاب بعلم الوصــول حالة عثوره عليه، أكد أن العملية بسيطة، وحتى إن ذهب إلــى المديرية التعليمية فى سوهاج، سيحصل عليه وسيقوم بإرســاله لى، أعطانى ورقة عليها رقم تليفونه، شكرته وانصرفت وكما قابلنى ودعنى بنفس الحب وحرارة اللقاء.

الساعة لم تدق الثامنة والنصف بعد، أنهيت عملى أو مهمتى لدى الإدارة، كان خبر وصولى قد سبقنى إلـى بيـت مهـدى الضبع، بمجرد أن صرخت عليه يا أستاذ مهدى جاءنى الـرد اطلع يا شاكر يا لطفى، لم أتعجبْ، فأنا أعرف القريـة التـى أصبحتْ مدينة، وعشتُ بها وأعلم قنوات الاتصال فيها وأدوات نقل الأخبار، أحضان وقبلات صادقة، لقد كان مهدى الـضبع صديقاً لكل المغتربين فى جهينة ، منزله مفتوح دائماً لهم، فى الشتاء داخل المنزل، وعندما يتحسن الجو، دكتان خشبيتان أمام المنزل عليهما " حرامات " من الـصوف المـشغول الملـون ووسائد، جاءوا بها من أخميم الشهيرة .

سألنى إذا ما كنت لا زالت أعشق العدس أو هجرت أكلـه بسبب الغنى أو المرض، فإذا بأطباق العدس توضع أمامنا على المائدة وبيض بلدى صغير، وإبريق كبير من الـشاى، وخبـز خرج فى التو واللحظة من الفرن.. أنهينا الفطور ونزلنا إلـى خارج المنزل، إلى الدكتين اللتين لم تتحركا من موقعهما منـذ ربع قرن، أقدام الدكتين مغروسة فى أرض الـشارع الـضيق بعدما ارتفع الشارع من نتاج مخلفات البناء، المنازل القديمـة كلها هُدمت، وأقيم بدلاً منها منازل بالحديد والأسمنت، سيارات

طرازات وأنواع، ماذا حدث لجهينة يا مهدى خلال السنوات الماضية، لم يجبْ وكأنه لم يسمعني، أعدت على مسامعه السؤال مرة أخرى، أجابنى باقتضاب: حدث لها ما حدث لمصر كلها!.نسيتُ الأوراق تماماً، فما جئتُ لأجله قد أنجز، ولم أجد فى الإدارة التعليمية ثعالبَ صغاراً ولا حيتان كباراً، نسيتُ هانئ الكفراوى ومارجريت، نسيت رحلة القطار ومكالمة زوجتى، جلستُ على الدكة أرقب الشارع، محلات ومكتبات ومطعم كبير أمامه شواية فراخ، يقوم عامل بتنظيفها استعداداً ليوم عمل جديد، محل آخر ليس ببعيد أمامه أقفاص مليئة بالدجاج الأبيض، سيارات ملاكى من كل نوع تمر أمامنا، يهدىء سائقوها من سرعتها لإلقاء التحية على مهدى الضبع، طلب منى سيجارة أعطيته العلبة، نظر إليها وتحرك من مكانه، أعرف أنه لا يُدخِّن، وقد كان الوحيد بيننا الذى لم يمسك سيجارة طوال حياته، وكان بعض زملائنا الصعايدة يسخرون منه بقولهم " رأس بلا كيف تستحق السيف ! ".. لابد من الكيف معسل أو سجائر أو غيرهما، عاد بعد ثوانٍ معه علبتان من النوع الذى أدخنه وألقى بهما بجانبى، تحية الصعايدة!.

يسألنى المهدى عن زملاء قدامى من بحرى عملوا معى فى جهينة، معتقداً أننى أراهم، أو مازالتْ العلاقة قائمة، كيف حال طه حسيب محمد، حسين عاكف إبراهيم عطية، ألا تراهم؟، وزملاؤك الذين كانوا معك فى الشقة، ألا تتصل بهم ويتصلون

بك؟، تغيرت الأمور يا مهدى كما تغيرت مصر وجُهينة، نسمع أخبار بعضنا البعض ولا نرى بعضنا، وحتى مكالمة التليفونات، هناك من يسأل نفسه قبل أن يدير قرص التليفون ماذا سيستفيد؟، إبراهيم عطية عاش فترة فى الكويت وآخرون ذهبوا لليمن، وهناك من يعمل فى مسقط رأسه بطوخ قليوبية أيام.. تنهد مهدى الضبع وتذكر بعض المواقف وإن غابت عنه بعض تفاصيلها.

فى أقل من ساعة كان أمام منزله، حشد من الأصدقاء القدامى وتلاميذى، يتحدثون فى السياسة وفى رواج الاقتصاد الكاذب والطفرة التى حدثت والسيارات الحديثة التى دخلت البلد والعمارات الشاهقة التى ارتفعت فى جهينة، وقد كان المنزل الذى أسكن فيه أعلى المنازل، أربع أدوار ومخزن بكامل أسفل العقار، كان مخزناً للبصل وكان البصل أهم مزروعات جهينة وما حولها، يتم تصدير أطنان منه إلى الخارج، أقاموا مصنعاً فى سوهاج لتجفيفه وتصديره أيضا، وجدتُ نفسى أسألهم، ما قيمة إيجار الشقة الآن فى جهينة، مائة جنيه، مائة جنيه؟!، هل يستطيع موظف مغترب أو مجموعة من الموظفين دفع هذا المبلغ؟، مرزوقة!. فى قاموسنا اللغوى كلمتان ليست لهما ترجمة، " مرزوقة " هذه، وكلمة " مستورة "!.

بعد أن قضيتُ عدة أيام فى استراحة المدرسين استأجر لى حسين عبد الرحيم شقة ثلاث غرف بأربعة جنيهات فى الشهر،

لا عقد ولا غيره، اتفاق شفوى، يُدفع الإيجار نهاية الشهر ولن أدفع قيمة استهلاك مياه أو كهرباء، شقة يمرح فيها الخيل، بعد أقل من أسبوعين وصل زميلان جديدان، أخذ كل منهما حجرة داخل الشقة بعد موافقة صاحب العقار، الذى فيما يبدو قد جعله سبيلاً من أجل المغتربين، فهو لا يريد إلا المخزن ولديه منزل آخر في غرب البلد، زميلاى فى السكن ـ ويعملان معى فى المدرسةـ مسيحيان.. شهدى شفيق اسكندس، ورأفت سامى جندى، الأول شديد التدين والالتزام والثانى مثل بقية الخلق.

جرس التليفون يرن، إنه هانئ الكفراوى، بمجرد سماع صوته انقطع الإرسال بسبب ضعف البطارية، أخرجت الشاحن وأعطيته لمهدى الضبع لوضعه على الكهرباء داخل المنزل، الحديث شيق والمواقف كثيرة، عامان دراسيان كاملان قضيتهما هنا، سألنى مهدى عن الأسرة والأولاد وأخوتى الذين يعرف أسماءهم، بسبب حديثى معهم من تليفون منزله، لدى أربعة من الأبناء، ولدان وبنتان، اثنان منهم فى الجامعة، كنت أريد أن أسأله عن طابور الأولاد والبنات الذين أعدوا لنا الإفطار وإذا كانوا أبناؤه؟، لأننى تركت البلد وهو لم يرزق بأولاد، قبل أن أسأله وصلنى الجواب، لدى خمسة " فوق رؤوس بعض "، الأول جاء بعد انتقال مجموعتكم كاملة من جهينة إلى مدن بحرى وهروب بعضكم من التربية والتعليم بأسرها!. سألنى مهدى الضبع عن زميل كان يدرس التاريخ

معنا، بمجرد ذكر اسمه انفجر الحاضرون فى الضحك، فهم يعرفونه " عز المعرفة "، خفيف الدم والظل وعيبه الوحيد أنه " مدمن لعب قمار "، كان شباب البلد كلهم يذهبون إلى شقته ويخرجون يستلفون " حق الدخان "، لم يكسبه أحد أبداً، فالكوتشينه تخصصه والسرقة أثناء اللعب هوايته، والغريب فى الأمر لا أحد يعرف أين ينفق ما يكسبه من القمار ليلاً، ففى الصباح يستدين من كل من يقابله، وإن لم يجد من زملائه من يلبى طلبه يتجه إلى التلاميذ ولكن بأسلوب آخر، مبتكر خفيف الدم.

حكى أحد الجالسين ــ وقد كان من تلاميذه ــ بعض نوادره، كان يدخل الفصل نائماً، فهو طول الليل يلعب القمار ولا يشرح الدروس أبداً، يطلب من تلاميذه تحضير الدرس قبل موعده ويدخل الفصل، يختار تلميذاً ليقوم بدور المدرس، ويجلس هو يغط فى نوم عميق، فى أحد مقاعد التلاميذ، جاءه مفتش، فظن التلاميذ أنه سيقوم بالشرح، ولن يستطيع النوم، فإذا به يستدرج المفتش لإيضاح نقطة ما ويجيب عليها المفتش، ليعطيه الطباشير ويقول مخاطباً التلاميذ: إن الأستاذ ليس مجرد مفتش تاريخ، ولكنه التاريخ نفسه وسيشرح لكم الدرس أفضل منى مرات ومرات، وذهب إلى مقعده المفضل فى نهاية الفصل، وقضى المفتش الحصة بأكملها يشرح ويسأل ويجيب عليه التلاميذ!.

فى نهاية الشهر وعندما يقل عدد المترددين على شقته للعب القمار، يلعب قماراً مع التلاميذ من نوع آخر، يعرض علـــيهم فكرة وهى من يجيب على سؤال، إجابة نموذجية، سيحصل منه على خمسة قروش، ومن لا يجيب يدفع قرشاً واحداً، فى البداية أعجبت التلاميذ الفكرة، وعندما تكررت مراراً وتكراراً أدركوا إنها لعبة، لا يحصل على الشلن إلا تلميــذ واحــد مــن شــق النصارى، إلا أن الأستاذ يرمى شباكه حوله ويأخذ من الـشلن ثلاثة أو أربعة قروش، تلميذ آخر كان من النابغين، لـم يثـر نبوغه الأستاذ وأثّر فيه عدم حصوله على قرش منه، ربما كان مصروفه كله، سأله عن الثورة العرابية وأحمد عرابى، أجاب.. سأله عن اسم أم أحمد عرابى، فنظر التلاميــذ إلـــى بعــضهم البعض، السؤال ليس فى الدرس ولم يعرف أحد اسم أم عرابى على الإطلاق، ذكر أى اسم، مضيفاً أن أهم شئ فى التـــاريخ أسماء الوالدين وصدقه التلاميذ الصغار!.

تحولت الجلسة كلها عن نوادر أستاذ التاريخ هـــذا، وكيــف كان كريماً يُنفق آخر مليم معه على ضيفه، ثم يطلب منه قرضاً صغيراً، لقد فعلها معى عندما أتيت إلى جهينة ودعانى لزيارته، أعد لنا عشاءً وكنا ثلاثة، جبنة بيضاء بالبيض، وبيض مسلوق وبلوبيف بالبيض، وفى نهاية العشاء أخرج كوتشينة، لم يجد من يلاعبه، وطلب منى خمسة جنيهات على سبيل السلفة وكيـــف أطلبها منه بعد أن أكرم ضيافتنا، بعد ثلاثة أو أربعة أيام مـــن

وصولنا إلى جهينة، جاء إلى استراحة المدرسين للتعرف على المدرسين الجدد، كنا اثنين أو ثلاثة، جلس معنا ودخن كل ما معنا من سجائر، وأوضح لنا أن هناك معالم فى جهينة لابد من زيارتها قبل أى شئ، " غرزة عزوز " ، و " منزل مفتش الصحة " والذى يرأس فى نفس الوقت المجموعة الصحية بالبلدة.

قهوة عزوز أو غرزته ليست أكثر من كوخ من الخوص وسعف النخيل، يقدم الشاى والقهوة ويبيع زجاجات البيرة ومن الممكن أن تفتح معه حساباً، وتدفع قيمة ما تشربه فى نهاية الشهر، أمام الغرزة نصف زير مدفون فى الأرض يستخدمه كثلاجة، يضع فيه زجاجات المياة الغازية والبيرة ولديه تليفزيون صوت فقط بلا صورة، إلا أن البعض يتابع عنده مباريات كرة القدم ولا تعلم كيف؟، سألت مهدى الضبع عن مفتش الصحة، ترحَّم عليه، لقد مات، طبيب من مدينة مجاورة، جاء واستوطن فى جهينة، قالوا إنه اشترى منزلاً، الدور السفلى عيادة، والحجرات الأخرى للسكن، من السابعة حتى العاشرة مساءً فى فناء المنزل، يلعب الطاولة مع أحد الأصدقاء، وفى الصباح عمله الرسمى، مدير الوحدة الصحية ومفتش صحة.

الأحاديث لا تنتهى، وأدوار الشاى تدور ومهدى الضبع يوزع سجائره التى اشتراها خصيصاً لضيوفه مثل هانئ الكفراوى، إلا أنه يلقيها عليهم، صاحبنا مدرس التاريخ، أوضح

لنا أن هذا الطبيب أهم من ناظر المدرسة بل أقوى منه نفوذاً، وإذا رفض الناظر السماح لك القيام بإجازة فهذا الطبيب يعطيك إجازة رسمية مرضية عليها ختم النسر، تضعها فى عين الناظر والإدارة والمديرية، يوم الإجازة بجنيه، ولا يستطيع أن يمنحك أكثر من أسبوع، ومازاد فهناك القوسسيون الطبى فى سوهاج واليوم هناك بجنيهين!.. قررت أنا وإبراهيم عطية ذات يوم السفر إلى القاهرة، ذهبنا إلى الطبيب فى عيادته ليلاً، دفع كل منا ثلاثة جنيهات ثمن إجازة ثلاثة أيام، فى الصباح توجهنا إلى المجموعة الصحية، دخل عليه إبراهيم عطية أعطاه ورقة عليها ختم النسر " نزلة شعبية حادة يحتاج راحة لمدة ثلاثة أيام "، عندما دخلت عليه أنا، نسينى، قال لى صحتك زى البمب، عدّ إلى عملك، طلبت منه الثلاثة جنيهات التى دفعتها بالأمس، تذكر وكتب لى ورقة مثل التى أعطاها لإبراهيم عطية!.

هذا الطبيب لا يستطيع أن يطلب رشوة من أهل البلد فركزجهده وعمله على المغتربين، وهناك سماسرة يحضرون له الراغبين فى إجازات مقابل المعلوم، ومقابل هذا الجهد المشكور يحصلون على إجازات مرضية مجانية، كان مدرس التاريخ الذى سلخ الجالسون جلده مُقامراً وسمساراً، وكان يبيع بيضاً ودجاجاً حياً ومذبوحاً، وأشياء أخرى مما يحصل عليه من التلاميذ وتزيد عن حاجته، كان خفيف الظل والدم، و" يفوت فى الحديد "، على حسب تعبير مهدى الضبع، عندما كنا

نتبادل الهموم ونشكو لبعضنا البعض، شكوت له من المفتش أحمد نصر أو نصر أحمد، لديه حلول جاهزة لكل المشاكل.

المفتش فى حاجة إلى دفعة، هو يأتى لزيارتك من المراغة ثم يعود إليها خالى الوفاض، ماذا يمنع إذا أخذت من الأولاد ثلاث فرخات " عتاقى " وأعطيت له اثنين بعد انتهاء الزيارة واحتفظت لنفسك بواحدة؟، وماذا يحدث إذا قمت بتوصيله إلى المراغة، وركبت معه التاكسى ودفعت له الأجرة، ثم عدت مرة أخرى إلى جهينة ؟، سيتغير الحال ويأتى إليك بشوشاً مسروراً يطمع فى هدية، لن تدفع أنت فيها مليماً واحداً!.

أول دروس الرشوة من مقامر ظريف.. العام الميلادى الجديد قادم على الأبواب ماذا لو قدمت للمفتش أجندة بها خمسة جنيهات، وعندما يفتح الأجندة ويعثر على النقود، تقسم بالله العظيم إنها من " حظه ونصيبه ولن تعود "، دروس مجانية لمن يريد أن يضع قدمه على السلم الوظيفى بثبات، إنها طريقة سيد أذى وخروفه السنوى!.

البطالة بين شباب القرية واضحة لكل ذى عينين، قهوة ليست ببعيدة عن منزل مهدى الضبع يجلس عليها عشرات الشباب والوقت مازال نهاراً لم ينتصف.. يحكى مهدى الضبع: كنتم تشتكون مر الشكوى من تعيين الحكومة لكم فى قلب الصعيد، هؤلاء الشباب بينهم حاصلون على شهادات جامعية

ودبلومات على استعداد للعمل فى أى مكــان، أهــاليهم علـــى استعداد لدفع أى مبالغ لتعيينهم، وصلت رسوم التعيين الجامعى إلى عشرة آلاف جنيه والدبلوم إلى سبعة آلاف، تذكرت رحمة الحكومة بنا عندما عينتنا مجاناً، وتقاضى الثعلب الصغير فـــى وزارة التربية والتعليم خمسين قرشاً فقط ثمنـــاً لـــصورة مـــن خطاب التعيين، بعض الأهالى يرفضون تقديم رشاوى، افتتحوا محلات لأبنائهم.. ولا بيع ولا شراء، المقاهى وحدها هى التى تعمل وبقية المحلات يجلس أصحابها أمامها مع أصدقائهم.

تحدث الشباب عن أشكال الرشوة الجديدة والفساد، يؤكدون أن أغلب من يتصدون لاستغلال حاجة الشباب من النـــصابين، والأفاقين مثل مدرس التاريخ، يتقاضون رشاوى ولا يفعلـــون شيئاً، الصدفة وحدها تذهب بهذا الشاب إلى هنا وبذاك الـــشاب إلى هناك، نصاب من بلدة مجاورة قضى حياته كلها فى القاهرة وعاد عندما بلغ سن المعاش يقولون له " الباشا "، اختار هذا الباشا الكليات العسكرية يتقاضى خمسين ألفاً من الجنهيات لمساعدة الطالب على النجاح فى الاختبارات، لا يتحرك مـــن مكانه ولا يساعد أحداً.. لديه جيش من المساعدين، مصداقيته عالية فى كل القرى المحيطة، فهو لا يتقاضى مليماً واحـــداً إلا بعد قبول الطالب، بعد امتحانات الثانوية العامـــة يهـــرع إليـــه أولياء الأمور يطمئنهم، يكتب فى كشوف أسماء الطلبة وأرقام تليفوناتهم ومجموعهم فى الثانوية العامة، لزوم الشغل، عشرات

- إن لم يكن مئات من أولياء الأمور والطلبة يلجأون إليه دون وساطة أو غيره، سينجح من المئات عشرات، تأتيــه كــشوف الناجحين قبل إعلانها بليلة واحدة، يتصل رجاله بأولياء الأمور، يقولون كلمة واحدة: مبروك، نحن في انتظار المعلوم ويجمــع أضعاف ثمن محصول البلاد كلها في خبطة واحدة في السنة!.

سألت عن مراكز القوة والنفوذ والثروة فــي البلــد، وهــل انتقلت من عائلات إلى غيرها أو مازالت في نفــس البيــوت، تردد الحاضرون في الإجابة على السؤال.. نظروا إلى بعضهم البعض ، هذه الأمور يصعب الخوض فيها.. فَهُمْ على استعداد لمهاجمة الحكومة وانتقاد أكبر مسئول، إلا أن الحديث في مثل هذه القضايا غير محمود العواقب، انبرى شاب يشرح، لم يتغير شئ، الأمور كما تركتها، إلا أن هناك من جمع بــين النفــوذ والثروة بفضل التعليم واحتل أبناؤه أعلى الوظائف، أصــبحت هناك عائلة تحتل مناصب القضاء والــشرطة وهمــا الأعلــى والأرقى في نظر الناس هنا، كانــت جهينــة فــي منتــصف السبيعنيات تشهد حراكاً اجتماعياً بطيئاً، يرقبه عامــة النــاس ويعلمون نهايته وتشارك فيع رؤوس العائلات عن بعد، وكنــا كمدرسين أقل إدراكاً لما يحدث لولا تطوع أحد أبنــاء القريــة لشرح ما غمض علينا.

العلاقات بين العائلات مثل العلاقات بين الدول فــي ذلــك العصر، هناك حروب باردة وهناك دعاية مضادة حول أصول

كل منهم وجذوره وأصول ثرواتهم، الكبار دائما لا يتـدخلون، هناك حروب بالوكالة يفتعلها صـغار العـائلات أو شـبابهم، وعندما تشتد المعارك يجلس الكبار، لا لحل المـشاكل، ولكـن لإلقاء منشور سياسي، اجتماعي اخلاقي، تظل القرية شـهوراً تحكي أن فلاناً قال وفلاناً رد عليه، وعلاناً قال له: هل تنـسى أصلك وفصلك؟، إذا كنت لا تعرف، أو ظننتَ أن مالك طمسه فنحن لدينا الدفاتر والشهود، حراك اجتماعي بطئ، إلا أنه يـنم عن تحرش واستعداد للقفز على منصات السلطة والنفوذ.

اللعب دائماً على من يخالف منظومة القيم الموضوعة منـذ قرون، ومن يتخطى هذه المنظومة يحفر لنفسه قبراً، شـاهدت بنفسي واحدة منها، جلست وسمعت واكتشفتُ أن هناك بـساطاً يسحب من تحت قدم شخص ما، يذهب إلـى آخـر، القـصة باختصار أن هناك مجموعة من المدرسين كانت تستأجر شقة، فإذا بصاحب العقار يأمر بإلقاء أشيائهم وأغراضهم في عرض الطريق، ويهدد من يحاول أن يدخل منهم المنزل بالقتل، السبب أن هناك من صعد إلى سطح المنزل بملابسه الداخلية لينـشر غسيلاً، وتفرق المدرسون كل منهم ذهب للإقامة مـع زميـل آخر، إلا أن البلدة كلها سمعت القـصة وتحـرك المنافـسون لصاحب العقار لعقد جلسة لمحاسبة المخطئ، تخوف المدرسون من الحضور، فقد تنقلب إلى معركة، حيث انقسم النـاس إلـى مؤيدين لصاحب العقار ووقف آخرون بجانب المدرسين.

ثلاثة أو أربعة أيام، تتحدث القرية عن المدرسين الذين ألقيت أغراضهم فى عرض الطريق، ولم يحمهم أحد وآخرون يرون أن المدرس الذى صعد بملابسه الداخلية قد أخطأ، إلا أن طريقة معاملة صاحب العقار لا تليق، خاصة وأنهم غرباء جاءوا إلى البلدة لتعليم أولادها، قيل إن مدرس الرياضيات هرب إلى بحرى ولن يعود، ومديرية التربية والتعليم لن ترسل مدرساً بدلاً منه، مما يعنى أن التلاميذ سيظلون إلى نهاية العام بلا مدرس رياضيات، الجلسات فى الطرقات تدور كلها حول هذه القضية التى تحولت إلى حرب أهلية مثل حرب لبنان التى كانت دائرة فى تلك الأيام، شخص واحد يلفُ على كل التجمعات، يؤيد فريق المدرسين مرة، وفريق صاحب العقار مرة أخرى، وينقل الأحاديث والمعلومات بتفاصيلها إلى ناس كبار لا يعلم أحد شيئاً عنهم، ظهر الشخص الذى لا يعلم أحد لمن يعمل فى المدرسة وطلب كل المدرسين والناظر لحضور " قعدة عرب "، بعد صلاة العصر لمناقشة قضية المدرسين، وتحجج ناظر المدرسة بعدم قدرته على الحضور.

بعد صلاة العصر، بدأ الناس فى التوافد، تلاميذ صغار وأولياء أمور، وجاء من يحضر المدرسين، يسوقونهم إلى المجلس، كلهم من بحرى، وقد ظهر الرعب فى عيونهم، خاصة وأن أحداً منهم، قد رفع صاحب العقار السلاح فى وجهه محذراً إياه أنه سيرسله إلى مصر فى صندوق ما لم يغادر

المنزل، تحدث الكبار: إن ما حدث من المدرس لا يليـــق، وإن خروجه بملابس داخلية فوق سطح منزل، يعلم أن هناك أسرة تقطنه عيب لا يقرونه، وإن ما فعله صـــاحب العقـــار أيـــضا مخالف لقيم وأعراف البلدة، فهم عرب يحترمـــون الغريـــب، ويغيثون المستنجد بهم ويكرمون الضيوف، وهؤلاء المدرسون ليسوا بغرباء بل أهل لنا جاءوا ليعلموا أبناءنا.. وتكهرب الجو عندما صاح أحد الجالسين بأن صاحب العقار لم يراع ذلك كله وماذا تكون سمعة بلدنا في البلدان المجاورة، طالبـــه صـــاحب العقار بألا يتحدث فهو ليس له في البعير أو النفير، هاجم الكبار صاحب العقار مؤكدين أن كل من فى " القعدة "، له الحق فـــى الحديث، صغيراً أو كبيراً.

هناك مسرح تم إعداده بإتقان على نار باردة هادئة وتخطيط محكم ، الغرض محاصرة صاحب العقار هذا، الذى لـــم يجـــد أحداً فى الجلسة يسانده حتى من أقاربه، وقف تلميذ صغير يشيد بمدرسه المحترم والذى غادر البلدة ولن يعود إليها، وإذا كـــان صاحب العقار قد طرد المدرسين من منزله فعليـــه إحـــضار مدرس رياضيات بدلاً منه، المدرسون في ركن فى حالة ذعر، ودخان السجائر معلق فوق رؤوسهم خوفاً من الـــصعود إلـــى السماء وصاحب العقار صاحب السطوة انكمش، فإذا به يـــأمر أحد أتباعه بالتقاط أشياء المدرسين، سراير من الجريد وبعض الأغطية والأوانى والكتب من عرض الطريق، وأدخالها إلـــى

الشقة مرة أخرى معرباً بأنه لم يسئ التصرف، ولكـن تعجـل فيه!.

ترحَّمَ مهدى الضبع على المارد الذى تحرك عندما ذكـرت اسمه، والذى أقسم أن يحمل بنفسه أغـراض المعلمـين إلـى منزله، فلديه دور كامل لم يتم تشطيبه بعد، سيقيم فيه المعلمون إلى نهاية العام الدراسى ولن يدفعوا مليماً واحداً لإيجاره وحسم الخلاف، وتندر مهدى الضبع على ذاكرتى ويحاول الحديث عن الشجار والمشاكل إلى الطرائف والنوادر، ذكرنى برحلة كـل مساء إلى غرب البلدة، حيث يقع المخبز الوحيد، فشراء الخبز عيب فلا يجرؤ أحد من أهل البلدة على الذهاب إلى المخبز فكل منزل يخبز خبزه، باستثناء المغتربين والذين " صاعوا " بدون خبز لمدة أسبوعين كاملين.

مشاجرة أمام المخبز، واحد العاملين يتلقـى صـفعة علـى وجهه يهتز لها الواقفون، المعتدى أحد رجال المجلس المحلى، والذى أعتاد أن يأتى كل ليلة بسيارة نصف نقل، عليها أرقـام حكومية لاستلام خبز سيده، والناس لا تعلم إذا كان هناك ثمن يُدفع للخبز أو أنه يحصل عليه مجاناً، ما يعرفه الناس أن خبز الباشا غير باقى الخبز الذى يباع، كان سعر الرغيف تعريفـة " خمسة مليمات " خبز مدعوم حددت الحكومة وزنـاً وسـعراً مقابل حصة دقيق تسلم أسبوعياً لصاحب الفرن بسعر مخفض، صاحب الفرن يوصى عماله بإعداد رغيف ضعف حجم ووزن

الرغيف العادى للباشا، أعد العمال الخبز الجيد وأعطـوه لنـا نحن المدرسين، وعندما جاء سائق البيه سـلموه مـن الخبـز العادى، ثار وهاج وانفعل وصفح أحد العمـال علـى وجهـه وكانت " عركة " دفع المدرسون ثمنها، أقسم صاحب الفرن أن يغلق مخبزه لمدة أسبوعين كاملين متوعـداً الباشـا ورجالـه، ومتحدياً كل القوانين، معلناً تحديه المباشر للمحـافظ شخـصياً عندما قال أمام جمع من الناس: لو أتى المحافظ إلى هنـا لـن أقوم بتشغيل الفرن قبل أسبوعين، ليتعلم الباشا الأدب وعلمـه وعلمنا الأدب.

المجالس المحلية تلك بغير سلطة حقيقية على أهـالى هـذه القرى والتى تدار بمفهوم القبيلة والعصبية، ربما تكون سـلطة المجالس على الموظفين والغلابة دون غيرهم وسرح صـاحب المخبز عماله، وأغلقه بالجنازير والأقفال مؤكداً أنـه إذا عـاد وفتح الفرن من جديد، لن تتم معاملة الباشا معاملة خاصة، بل سيأكل من خبز الناس مضيفاً: إن المعلمين لديه أفـضل مائـة مرة من هذا البِك، فقد جاءوا لتعليم أولادنا أمَّا البِك، فقد اعتقد أنه يرأس بلداً من الماعز، إلا إنهم ليسوا كذلك، وليفعـل مـا يريد!.

كان الطبيب الشاب مخطئاً بالفعل عندما قـال: إن هنـاك ثلاث قرى لن تجد فيها بشراً تحدثه أو طعاما تأكلـه أو حتـى سجائر تدخنها، فالناس هنا من خيرة البشر، على الفطرة، على

الحق، وحتى فى أزمة الخبز تلك، كانت شقق المدرسين يأتيها من جهينة ومن حولها خبز بكافة أنواعـــه، يحملونـــه إلـــيهم تلاميذهم وقد أعده الأهل خصيصاً للمدرسين، هذا خبز بلـــدى وهذا خبز شمسى وأنواع أخرى، منها الطرى ومنها ما يحتاج إلى شاكوش لتكسيره، وبرَّ صاحب المخبز بوعده ولم يفتحه إلا بعد أسبوعين رداً على الصفعة التى تلقاها عامله.

الأحاديث لا تنتهى والساعات تمر والقطـار المتجـه إلـى القاهرة يصل إلى محطة سوهاج فى الرابعة عـصراً، تبـارى الحشد فى استضافتى للغداء، ووعدتهم بزيارات أخرى قريبـة أطول ، وأصرَّ مهدى الضبع على مصاحبتى إلـى سـوهاج، استاجر سيارة من جهينه إلى سوهاج ماراً بالمراغة، ما طـرأ على الطريق بين طهطا وجهينة، حدث فـى نفـس الطريـق، بنايات على أراضٍ زراعية، منازل فخمة ،فيلات، مساجد ذات مآذن عالية للغاية تنطح السحب، مظاهر ثراء امتزجت بـسوء التخطيط وعدم الوعى.. كما تقابلنا ودعنى الضبع بالأحـضان والقبلات، دخلت المحطة أكدتُ حجز التذكرة وخرجت لأتناول غدائى فى مطعم أسماك أعرفه بالقرب من المحطة قبل النفق.

المدينة أيضا تغيرت.. عمارات ضخمة.. لافتـات بأسـماء أطباء ومحامين.. لافتات بأسماء وصور أعضاء مجلس شعب سابقين وحاليين، فنادق ضخمة، ولم تكن هناك سوى لوكانـدة واحدة متواضعة، اختفى محل الأسماك وسط التغييرات تلك، إلا أننى وصلت إليه.. سألت عـن صـاحبه.. البقـاء لله.. منـذ سنوات.. الأبناء الآن يديرونه بنفس طريقـة الأب.. أصـابع التطوير لم تصل المحل.. كل شيء على حاله.. أريكات خشبية

تسع الواحدة أربعة زبائن على الأقل.. الخبز فى مدخل المحل تختار منه ما تشاء وتختار الطاولة التى تجلس عليها، الطلبات فيما يبدو موحدة، لا مجال للاختيار.. كل ما يقدم سمك بلطى مقلى وسلطة خضراء وبصل صحيح، وحزم من الجرجير والسعر أيضا موحد، أربعة جنيهات للوجبة.

السمك البلطى من بحيرة ناصر، كان يباع منذ أزمان الكيلو الواحد بعشرة قروش.. عشرة قروش!، كان يصل القاهرة مثلجاً ويقبل عليه الأغنياء والفقراء سواءً، فجأة صدرت قوانين بمنع تهريب الأسماك من أسوان، الغرض تجويع الناس، ورفع سعر بقية الأنواع الأخرى لصالح فئة من الناس، القوانين عندنا تصدر ليس بغرض التنظيم وضبط إيقاع العلاقات فى المجتمع، تصدر لصالح فئة.. السمك كان يجفف فى الصعيد، وخاصة فى أسوان ليستخدم كوقود فى الأفران المنزلية، وعندما ارتفع سعره وقل وصوله إلى المناطق ذات الكثافة السكانية خاصة العاصمة التى يسكن فيها خُمس سكان مصر، ارتفع سعر سمك بلطى المزارع إلى ثمانية أو عشرة جنيهات، أول مرة أدخل فيها هذا المطعم منذ ربع قرن أيضا، لم أستطع إكمال السمكة التى قدمت لى وعند الحساب وقبل خروجى من المحل: عندك مائة وثمانون.. أخرجت من جيبى خمسة جنيهات وانتظرت الباقى.. عدّ لى أربعة جنيهات ونصف وأخذ يبحث عن

قروش.. أخبرته أن الحساب مائة وثمـــانون.. ابتـــسم.. مائـــة وثمانون مليماً وليس قرشاً.. الحساب كله ثمانية عشر قرشا!.

في المقهى المقابل للمحطة.. جلست انتظر القطار، سأتحرك من مكاني قبل وصوله بحوالى خمـــس عـــشرة دقيقـــة.. رن الهاتف.. أمي وليس الكفراوى: لا تنسى أن تـــشترى ملوخيـــة ناشفة وبامية مجففة وبعض الأشياء التى كنت تحضرها معـــك من الصعيد، أغلقت الهاتف وتحركت على الفور إلى الـــسوق المجاور، جمعت ما أستطيع حمله، توجهت إلى المحطة وقـــدم القطار، وألقيت بنفسي على المقعـــد " مفكـــوك " العـــضلات والأعصاب.. الرحلة مضنية.. والمهمة انتهـــت فـــى دقـــائق والأحاديث أعادت عجلة الزمن إلى الوراءِ لنعيش سويعات فى زمن كدنا نظن أنه إنتهى، وإذا به يتحرك فينا، ولا يتحرك فقط حولنا، القطار يتجه إلى بحرى.. الـــشمس تكـــشف الطريـــق والحقول والمبانى والناس.. الاستمتاع بالنظر إلـــى المنـــاطق المفتوحة المسطحة والخضراء ترفاً بالنسبة للقاهريين.. صفاء السماء وعدم وجود عادم سيارات أوضوضاء، إلا أن صـــوت عجلات القطار صادرت رغبتى فى النوم.

بعد المراغة وقبل دخول طما.. منحنى كبير، تظهر كنيـــسة مبنية حديثاً تسُدُّ عين الشمس، قبل أن أدقق النظر فيها والقطار يدخل المنحنى بعد تهدئة سرعته، مسجد ضـــخم يـــسُدُّ البقعـــة الباقية من شعاع الشمس.. كم تكلف بناء هذا الجـــامع وهـــذه

الكنيسة لا أحد يهتم، ملايين بالطبع وليس آلاف الجنيهات، الكنيسة تحجب رؤية المسجد من الناحية البحرية والمسجد يغطى على الكنيسة من الناحية القبلية، البُلهاء يؤكدون أنها وحدة وطنية.. مسجد أمام كنيسة والحقيقة تقول: إنه تنافس غير محبب يغذيه البعض من هذا الطرف أو ذاك، في الطرفين حكماء، إلا أن وجودهم لا يمنع ظهور الخبثاء، عدتُ بذهنى مرة أخرى لجهينة حيث كان تنافس الأثرياء فى الماضى لخدمة مجتمعهم.. تنافس حقيقى لا تغلب عليه المظهرية.. الأرض كلها مساجد، إلا أن العلاج والتعليم يحتاج أبنية وجدراناً.. محمود صقر فى جهينة فكر فى إنشاء مدرسة.. اقتطع جزءاً من أرضه.. بنى عليه المدرسة.. ذهب بنفسه إلى الإدارة التعليمية ومنها إلى الوزارة يخبرهم بأنه أقام من حُر ماله مدرسة إعدادية ثانوية وحتى لا يثير حفيظة الأخرين قال: إنه سيطلق عليها اسم مدرسة جهينة الإعدادية الثانوية.. وظلت يافطة كبيرة تحمل هذا الاسم، إلا أن الناس تصرُّ على إطلاق اسم مدرسة صقر عليها.. عندما توفاه الله.. كرمه الأهالى بإطلاق اسمه رسميا على المدرسة.. بنى المدرسة وأجَّرها لوزارة التربية والتعليم، أدخلتها فى خريطتها وزودتها بالمدرسين، وتخرج منها أجيال وأجيال وخاصة من البنات اللاتى كانت أسرهن تخشى إرسالهن لتلقى التعليم الثانوى فى طهطا المجاورة.

يدخل القطار بكامل سرعته إلى محطة طما يثير الغبار والأتربة ولا يتوقف بها.. تُوقفنى الذكريات.. تحت يافطة المحطة لدىَّ صورة مع مجموعة من الزملاء بينهم سيد بسيونى مدرس اللغة العربية.. هذا الهادىء الذى لا ينفعل وإن كان ينظر فى بداية الأمر إلى البحراوية بتوجس شديد، لقد تم ندبنا لأعمال مراقبة الامتحانات الإبتدائية والإعدادية بطما، واكتشفت مبكراً أن الحظر الاقتصادى والتجارى ليس اختراعاً أمريكياً، بل أقدم من أمريكا وأهلها، استخدمه أهل قريش ضد رسول الله واستخدمه أهل طما ضد المراقبين القادمين من جهينة.

فى أعمال الامتحانات يتحول المدرسون إلى عمال تراحيل يحملون حقائبهم، وينتقلون من قرية إلى مدينة ومن محافظة إلى أخرى، دون أن يسأل عنهم أحد، دون رعاية ودون حماية وعليهم تصريف أمورهم، لجان امتحانات الشهادة الإبتدائية تعقبها امتحانات أخرى للشهادة الإعدادية، وبعد أقل من أسبوع تعقد امتحانات الثانوية العامة، قبل الامتحانات يصل المدرس مرسوم أو قرار ممنوع الإجازات منعاً باتاً.. الاعتيادية منها والمرضية.. منع الإجازات الاعتيادية ممكن ولكن كيف يمنع المرضى؟، لا تُعتمد أثناء الامتحانات سوى الإجازات المرضية التى يمنحها القومسيون الطبى.. والتسعيرة معروفة.. اليوم من ثلاثة إلى خمسة جنيهات.. ولا داعى لمقابلة الطبيب على

الإطلاق.. فهناك شهادات مختومة لدى " التمرجى " والتمرجى ليس صبياً للطبيب ولكنه أهم منه، فى موسم الامتحانات، فى قلب الصيف، الشهادات الطبية تخلو من " النزلات الشعبية "، فهناك أمراض أخرى للامتحانات، تستلزم راحة تامة لمدة لا تقل عن خمسة عشر يوماً على أن يُعاود المريض الطبيب قبل انتهاء الإجازة.. الخمسة عشر يوماً بخمسة وعشرين جنيهاً على الأقل ومرتب المدرس فى ذلك الحين والذى قضى فى الخدمة ما لايقل عن عشر سنوات لا يساوى هذا المبلغ، فيذهب المدرسون مكرهين إلى أعمال الامتحانات، كل أمانيهم أن تنتهى على خير.

مجموعة مدرسين من جهينة انتدبوا للمراقبة فى طما.. أول مراكز سوهاج.. من بينهم سيد بسيونى الهادئ، طلب من المدرسين البحاورة ألا يذكروا أنهم من بحرى فهم من جهينة.. وجهينة لها صيت واسع فى الصعيد كله.. وطلب منا وبعضنا وافق ألا نلبى دعوات الأهالى لحضور مآدب الغداء أو العشاء.. فالدعوات ليست لوجه الله، " اطعم الفم تستحى العين"، المآدب لن تنتهى طول أيام الامتحانات مقابل أن يغض المدرسون بصرهم عن عمليات الغش الجماعى التى يتم تنظيمها على نطاق واسع.. ليس فى الصعيد وحده ولكن فى أغلب قرى مصر النائية.. الامتحانات مثل الانتخابات لها سماسرة يبيعون اللجان، هناك من يقبض وهناك من يأكل .

فى استراحة المدرسين قريبة الشبه بالملاجىء.. أسرَّة حديدية، ومراتب متسخة وبعد أقل من ساعة من وصولنا إلى طما، وصل أول سمسار، رحَّب بنا وامتدح جهينة ورجالها وذكر بعض الأسماء، فلديه الكثير من المعارف هناك، وطلب انتقالنا جميعا إلى دوار فلان والذى أعد مأدبة عشاء للسادة المدرسين.. اعتذر سيد بسيونى نيابة عنا جميعاً بأدب جم، شاكراً الدعوة ورافضاً الخروج من الاستراحة، بعد أقل من ساعة وصلنا السمسار الثانى.. أكثر قدرة على التفاوض والمناورة ويبدو أذكى، فهو يعرف أن أهل جهينة حريصون على سمعتهم وأن الدعوة لا علاقة لها بالامتحانات، إنه على استعداد أن يأتى بصوانى الطعام إلى هنا.. رفضنا أيضا إلا أن هناك من تسلل من المدرسين وخرج معه.

بعد صلاة العشاء، خرجنا نتجول فى طما، بلد صغير تتبعه عدة قرى منتشرة على شريط السكك الحديدية، حاولنا أن نشترى سجائر وعلب سلامون وبولوبيف ولم يبع لنا أحد.. حاولنا الجلوس على مقهى بسيط، تعلل صاحبه بأن ميعاد الغلق قد حان، عدنا من حيث أتينا.. ننتظر بدء أعمال الامتحانات وانتهائها ليعود كل منا بسلام.. لم يُسمح لأحد بالغش على الإطلاق ، ولم يساعد مدرس تلميذاً فى حل سؤال أو غيره.. اللجنة طبقاً للتعبيرات الدارجة فى ذلك الحين.. نار.. والامتحان لغة عربية ومن يرسب فيه فقد رسب فى

الامتحانات، انتهى اليوم ونحن نظن أننا حققنا نصراً على أهل طما، أو على الأقل سار اليوم كما يجب أن يسير.

في موعد الغداء لم نجد ما نأكله وما فعله أصحاب المحلات معنا في اليوم السابق، مارسوه بشكل أفظع بعدما سرت الأنباء في البلدة أن المدرسين القادمين من جهينة قد حولوا اللجنة إلى نار.. حصار اقتصادى وحظر تجارى.. والسجائر نفدت وضعاف النفوس تململوا وتحججوا، بأن تلبية دعوات الغداء أو العشاء لن تغير من الأمر شيئاً، إلا أنها قد تنقذنا من الجوع، تطوع أحدنا للذهاب إلى بلدة سلامون المجاورة، اشترى كل الاحتياجات.. سجائر.. علب سلامون وعلب بولوبيف وخبز وجبنة وبيض، كيف انتقل الخبر لأهل البلد ، لا أحد يعلم، إلا أننا كنا نتشكك في زميل معنا.. كان يخرج وحيداً من الاستراحة ثم يعود قبل النوم، ولا أحد يعلم أين يذهب خلال هذه الساعات .

علمَ كبار القرية ومخططوها أن معركتهم خاسرة، وكأنهم في معركة عسكرية.. قدروا فيما يبدو أن الهجوم أفضل وسائل الدفاع.. وفي اليوم التالى هجموا على اللجنة بأسلحة وأساليب جديدة أول مرة أشاهدها وأسمع عنها في تاريخ الامتحانات.. في لجنتى وزعت أوراق الأسئلة وأوراق الأمتحانات، وشجعت التلاميذ على البدء في الحل.. أطفال صغار أكبرهم في الثانية عشرة، إلا أن وجوههم ليست وجوه الأمس، عيونهم فيها شيء

من الاستخفاف بى وبالامتحانات.. لم يكتب أحد منهم حرفـاً.. كل ينظر إلى ورقة الأسئلة ولم يلتفت يميناً أو يساراً، ولم ينظر أحد منهم إلىّ.. لقد دخلوا اللجنة دون إلقاء تحيـة الـصباح.. أطفال.. ظننت أنهم أطفال، عشر دقائق مرت دون أن يكتـب أحد اسمه على ورقة الإجابة، مررت عليهم تلميذاً تلميذاً طلبت من كل واحد منهم أن يكتب اسمه ورقم جلوسه وإذا رغب فى تسليم الورقة خالية من الإجابة لن أمانع!.

الـسؤال الأول.. إجابـة الـسؤال الأول، وبـدأ التلاميـذ يتسارعون فى الكتابة.. صوت ميكروفون موجه إلى المدرسة.. هناك فيما يبدو مدرس قام بتسريب ورقة الامتحانـات ويقـوم بحلها على الهواء مباشرة، إجابة نموذجية ويطمئن التلاميـذ، سأعيد عليكم إجابة السؤال الثانى، أهرع إلى النوافذ أغلقها، إلا أن الصوت يصل التلاميذ وينظرون إلـى بعـضهم الـبعض وينظرون إلىّ، وعلى شفاههم ابتسامة كلهـا بـراءة جعلتنـى أضحك من الغيظ.. ناديت على مشرف الـدور، طلبـت منـه إحضار رئيس اللجنة ليتصل بالشرطة ليمنع هذا التهريج.. جاء المشرف وجاء رئيس اللجنة واستمر الميكروفون فـى إذاعـة الإجابات النموذجية، والأطفال يكتبون ولا يكترثون بمحـاولتى للشوشرة على الصوت القادم من الخارج.. وانتهى اليوم!.

فى الاستراحة.. لم نعرف الهدوء.. هناك من وصـف مـا حدث بأنه تواطؤ.. اشترك فيه رئيس اللجنة مـع الأهـالى..

وهناك من أكد براءة الرجل، والذى هبط مباشرة إلى سكرتير المدرسة من أهالى طما وطلب منه الاتصال بالشرطة، وكان السكرتير يفعل ما يطلب منه، إلا أن الخدمة التليفونية سيئة.. واستمرت محاولات الاتصال بالشرطة إلى أن انتهى اليوم.. ظننا أن رئيس اللجنة سيذهب بنفسه إلى الشرطة لإبلاغها أو إبلاغ المديرية التعليمية بما حدث، إلا أن مركز الشرطة لم يكن بعيداً عما يحدث.. فأهل البلد جميعهم حكومة وأهالى شاركوا فى هذا العمل الجليل من أجل إنجاح أبنائهم.. واستمر الميكروفون إلى أن انتهت امتحانات الإبتدائية والإعدادية، وعند خروجنا من البلد ودعنا التلاميذ بإلقاء الطوب والحجارة.. وهنا.. ظهرت الشرطة برجالها وسياراتها لتحملنا إلى خارج البلدة وصورة سيد بسيونى لم تفارق مخيلتى وهو يضع يده على كتفى تحت يافطة " محطة طما ".

يرتج القطار ارتجاجاً وكأنَّ عجلاته ستخرج من القضبان، إلا أن الجالس فى المقعد المقابل لا يكترث بالاهتزاز العنيف، ولم يهتم.. رجل فى بداية الستينيات، يقلِّب فى أوراق معه ثم يعيد ترتيبها ليدخلها فى حقيبة، ثم يعود ليفتحها ويقلب فى الأوراق مرة أخرى، ببلادة شديدة حاول أن يتأكد من صحة عنوان معه.. هيئة كهرباء الريف فى العباسية مصر، لأول مرة يذهب إليها، لقد كلفه أخوته بالمضى قدماً لمتابعة أوراق توفى والده دون أتمامها، وحمل الرسالة بعده أولاده، كل منهم

يقطع شوطاً ثم يُصاب بالملل ويصطدم بالروتين، ويقسم بـــألا يعود مرة أخرى إلى هيئة كهرباء الريــف، يعطـــى الأوراق لأخيه الذى يليه على أن يستكمل بقية المشوار، وقد جاء الدور عليه، فهو قادم من إحدى قرى مركز البلينـــا ومعـــه الأوراق والمستندات التى تقول إن هيئة كهرباء الريف اقتطعت جـــزءاً من أرضهم الزراعية، واقتلعت عدداً من النخيل لمـــد خطـــوط كهرباء الضغط العالى.. وحتى الآن ليست هناك مشكلة.

فتح قضيته معى ودون مقدمات تطاير الشرر من عينيـــه، عندما أخبرته بأنه ليست هناك مشكلة ولا أعلم ماذا كان يفعـــل معى إذا كنت استخدمت لفظ هانئ الكفراوى بأنها " بـــسيطة ". هناك قوانين تنظم عمليات نزع الملكية الخاصة أو جزء منهـــا تحت ما يسمى بالمنفعة العامة، وهناك لوائح تنظيميـــة لهـــذه القوانين وكيفية تحديد التعويض وماشابه ذلك.. ولـــيس هنـــاك أيضا مشكلة.. المشكلة أنهم اقتلعوا النخيـــل ومـــدوا أســـلاك الكهرباء منذ أربعين عاماً وحددوا التعويض اثنى عشر جنيهـــاً عن النخلة ومائة جنيه عن قيراط الأرض.. والكهرباء جـــاءت من أسوان إلى كل مكان فى مصر.. مرت الكهرباء على البلدة فى أسلاك معلقة فى الهواء يربط بينها أبراج من الصلب على قواعد من الأسمنت المـــسلح، وليـــست هنـــاك مـــشكلة إلا أن الكهرباء لم تدخل البلدة إلا بعد عشرين سنة، ولم يتسلموا مـــن التعويض مليماً حتى الآن.. موظفون انتقلوا إلـــى رحمـــة الله

وآخرون انتقلوا إلى أماكن أخرى والعائلة تدور فى الـــدواوين الحكومية من البلينا إلى سوهاج إلى هيئة كهرباء الريف فــى القاهرة.. عندما أخبرته أن التعويض سيصرف بـــإذن الله ولا داعى للقلق، انتابه القلق وظنَّ أننى معتوه وتوقف عن الحديث معى، والقطار يطوى الأرض والشمس " تلملم " أشـــعتها مـــن السماء وتتهيأ للرحيل وتوقف القطار فـــى أســـيوط وبمجـــرد تحركه ، تحرك الراكب ليجلس فى مقعد بعيداً عنى!.

بعد فترة ذهبت إليه.. أخبرته أن لى صديقاً سيحل له هـــذه المشكلة، نظر فى عينىَّ متوجساً، فأهل الصعيد الذين يتحذرون من بعضهم البعض، حذرهم من أهل بحرى مـــوروث قـــديم، النصابون لا يأتون لهم غالباً إلا من بحرى، والنـــشالون فـــى رأيهم لا يمرحون إلا فى بحرى والنصب على الـــصعايدة " حواديته " كثيرة تحتاج كتب لتدوينها.. لم تمنعنى نظراته فـــى الاستمرار، صديقى هذا سينـــشر مـــشكلتك فـــى الجريـــدة.. سيخاطب وزير الكهرباء رأساً ويحكى له عن عذاب مـــواطن، بل عذاب أسرة بأكملها، مات عائلها وقد يمـــوت الورثـــة دون الحصول على حقوقهم، وطلبت الكفراوى على المحمول: طبعاً فى القطار.. سأصل الليلة.. ونذهب غداً إلى مارجريت.. لا.. انسَ هذا مؤقتاً ، فأنا فى حاجة إلى ثلاثة أيام راحة على الأقل ولم أتصل بك بخصوص هذا الشأن، معى رجل طيـــب مـــن البلينا، لديه مشكلة فى مصر.. كلمة " رجل طيب "، تبدو أنهـــا

لم تعجب الرجل، فهى بداية عملية نصب كما يظن.. استمرت عيونه تخترق عيونى أثناء حديثى، ليتبين مناطق الصدق والكذب.. هذا الرجل المفروض أن يصرف تعويضاً من هيئة كهرباء الريف منذ أربعين عاماً.. لا ليس هو ولكنه أحد الورثة!.

وأنهيت حديثى مع الكفراوى، أعطيت الرجل عنوان الجريدة واسم هانئ الكفراوى، وطلبت منه أن يأتى للجريدة قبل ذهابه إلى هيئة كهرباء الريف، ولا يذهب إليها إلا بعد نشر مشكلته، وسيجد لها – بإذن الله – حلا، فأنا قد أتيت من القاهرة إلى سوهاج للحصول على ختم النسر، وكنت أظن أن المهمة لن تنتهى وحصلت على الختم فى أقل من ربع ساعة، وها أنا أعود فى نفس اليوم إلى القاهرة.. الرجل فيما يبدو لا يصدق كلامى.. سألنى بغتة عن تكلفة النشر فى الجريدة، فهو يريد معرفة نهاية المطاف، وإذا كنتُ أُلقى عليه شباكى أو أننى صادق ولست نصاباً.

الجريدة تنشر " مشاكل الناس " مجاناً، وهناك صفحة يومية مخصصة لهذا الشأن والأستاذ هانئ الذى حدثته فى التليفون يتبنى مشاكل الناس كأنها قضاياه، ويعمل – بإخلاص– على إيجاد حلول لها.. سألته هل يطالع هذه الجريدة وهذا الباب، أجاب باقتضاب: أحيانا.. إلا أنها مشاكل متفق عليها.. ثقته فى الجرائد وما تكتبه الصحف معدومة فهو يرى أن الجرائد

لاتكتب إلا ما يُملى عليها، وكل ما ينشر بها " كلام لا يودى.. ولا يجيب "، وحتى أنهى موقفه المتردد والمتوجس.. حسمت الأمر.. لن تخسر شيئاً بنشر مشكلتك تلك فى الجرنال و "الميه تكدب الغطّاس ".

انفرجت أسارير الرجل، بدأ يحكى على سجيته ويسخر من قيمة التعويض وغباء أخوته، اثنا عشر جنيها تعويض النخلة الواحدة، فى الستينات كان مبلغاً والقيراط عندما حددوا تعويضه بمائة جنيه كان ثروة، الآن المائة جنيه لا تشترى حذاءً جيداً ورفع طرف جلبابه لأرى حذاءً بالفعل يزيد ثمنه على مائة جنيه ، النخلة " أم اتناشر جنيه " تشترى اليوم اتنين كيلو بلح ومش زغلول.. إلا أنه لم يفصح عن عدد النخيل أو القراريط التى انتزعت من أسرته للمنفعة العامة، واقترب القطار لدخول ديروط.

(١٩)

ديروط المحطة وديروط الشريف.. يفصل بينهما " شـريط القطر " وإذا بى أنطق القطر بـ " الجطر" مثل أبناء الـصعيد عاوده التشكك، لقد قلت لى إنك مـن مـصر، إلا أن لهجتـك صعيدية وتساءل عن مسقط رأسي بالضبط، أخبرته أننى عملت بالصعيد فترة وتنقلت فى قراها ومدنها، إما للزيارات أو العمل، وقد جئت لديروط منذ ربع قرن أثناء امتحانات الثانوية العامة مراقباً منتدباً من محافظة سوهاج، عادت علامات الألفة إلـى تقاطيع وجه الرجل، لقد مكثت فى ديروط، مـا يقـرب مـن أسبوعين، فترة امتحانات الثانوية عرفت محلاتها وشـوارعها ومطاعمها وحتى فندقها الوحيد الذى يطل على البحر، وجلست مع شبابها وبعض أعيانها، وأتذكر القرشية تلك العائلـة التـى كانت تمتلك الجزء الأعظم من ديروط قبل الثورة، واحتفظـت بنفوذها بعد الثورة، وعادت بقوتها مـرة أخـرى بعـد رفـع الحراسات فى السبعينيات. عندما أتوقف عن الحكـى يحثنـى الرجل على المضى قدماً ويسأل المزيد من الأسئلة فقد وجدنى تسلية، ووجدته أنا فى المقابل رفيق قطار مسلياً أيضاً.. " ناس ديروط وعرين "، ناس مصر كلها من قبلى إلى بحرى ومـن شرقها إلى غربها أصبحوا " وعرين "، صعوبة الحياة وضـيق الرزق أضاعت صفاء قلوب الناس، مشاكل الدنيا أفقدتهم الثقة

فى بعضهم البعض " ولاد الحرام ما خلوش لولاد الحلال حاجة"، الكلام البسيط الطيب مس فى قلب الرجل وتراً، مساحة الأمان غطت وجهه، اعترف بتشككه فيَّ ، فى البداية ظنَّ أننى نصاب ، ضحكت، أشرت إلى علامة الصلاة فى جبينى ومررت بإبهامى وسبابتى على ذقنى، قلت له: السنوات والعمر، هل هذا منظر نصاب؟، أصابه الحرج، قلت: إن ولاد الحرام ماخلوش لولاد الحلال حاجة، لا تؤاخذنى، النصابون هذه الأيام منظرهم محترم، ونصاب درجة ثانية مكيفة، غير نصاب درجة أولى، وغير نصاب درجة ثالثة، وكل منهم له أدواته وأسلوبه.

السنوات فيما يبدو أمدت الرجل بالحكمة فهو على المعاش، عمل فى كل مشروعات مصر الكبرى، إلا فى حفر القناة وبناء الهرم، عمل فى السد العالى فى شبابه وانتقل للعمل فى مصنع السكر فى كوم إمبو ثم انضم إلى كتيبة العمال الأولى فى مصنع الألومنيوم، فى نجع حمادى، كانت زوجته وأولاده فى البلد، فى رعاية الجد والجدة والأعمام والأخوال، تركوا له حرية الحركة، والبحث عن الرزق، سافر مع من سافروا إلى ليبيا، من أجل استكمال الطابق الثانى فى منزله، وعاد دون أن يضع طوبة واحدة، يعترف بأن القرش فى مصر بمائة قرش، تأتى بهم من الخارج، لا تصدق أن " البركة انعدمت "، الناس لم تعد " ناس "، الرحمة نزعت فيما بينهم والطمع زاد، كل

واحد يرغب فيما في يد أخيه، من أين تأتي البركـــة؟، يـــسأل وينتظر إجابة وعندما أتأخر في الرد عليه يستمر، المصاريف زادت ليس بسبب الغلاء، ولكن بسبب الطمع والجشع، والرغبة في تقليد الآخرين ، كل واحد يرغب في امتلاك سيارة أجرة أو ميكروباص، السيارات أصبحت مثـــل حبـــات الـــذرة، تقـــف مرصوصة في مدخل القرى وعدد الركاب محدود، الكل يقلـــد بعضه، مما أدى إلى وقف الحال ،كلام مضبوط!.

عرفت أن ناس ديروط ليسوا وحدهم الوعرين؟، سألته، هز رأسه، اقتنع أن الكل أصابه مس من الغيرة والحقد والحـــسد، الصعيد لم يعد كما كان، اتفقت معه في الرأي، هنـــاك أشـــياء تغيرت بالفعل، وهناك فيما يبدو ثوابت مثل الـــشجرة الطيبـــة أصلها ثابت وفرعها في السماء، ذهبنا إلى ديروط للمراقبة في امتحانات الثانوية العامة، بعد أسبوع واحد التقطنا فيه أنفاســـنا من محنة طما والحصار الاقتصادي، في ديروط الأمر مختلف، مدينة كبيرة وليست مجرد شارع أو شارعين، المراقبون أتـــوا من سوهاج ومن محافظة المنيا ورئيس اللجنة من قنا، رجـــل ضخم الجثة طويل عريض أسمر من طراز رجالات التربيـــة والتعليم القدامى وبوصف العامة رجل " بلاكار "، والبلاكـــار دولاب لحفظ الملابس ضخم من الحائط للحائط ومـــن الأرض للسقف، عقد رئيس اللجنة اجتماعاً مع المدرســـين وكـــان أول القصيدة كفراً، أخبر الحاضرين أنهم في ديروط ومن لا يعرف

ديروط فهى شيكاغو الصعيد، ومن يريد أن يتأكد فعليه التجوال فيها ليري الناس.

سيد بسيوني وإبراهيم عطية وأنا تغامزنا لبعضنا البعض.. يبدو أن الرجل باع اللجنة وقبض وكان هذا التعبير دارجاً بين المدرسين، حيث يبيع رئيس اللجنة أعمال الامتحانات مقابل مبلغ من المال ويترك التلاميذ يفعلون ما يرغبون ويمارسون جميع أنواع الغش الفردى والجماعى، وهو ما يسمى بالبيع الرخيص، وهناك رؤساء لجان يبيعون بالغالى، والغالى هو مساعدة التلاميذ على الغش المنظم المنهجي، حيث يتم الاتفاق مع مدرس المادة التى يمتحن فيها التلاميذ، تُسرَّب إليه ورقة أسئلة ويضع لكل سؤال إجابة نموذجية تمرر على اللجنة بأكملها، هذا هو البيع الغالى، سيد بسيونى يميل إلى أذنى قائلا " باعونا "، وأجيبه لا مشكلة، فنحن فيما يبدو بلا أهل ولا نَهِمُّ الوزارة من بعيد أو قريب، ويبدو أن الرجل " اشترانا ولم يبعنا" فهو يرغب فى حماية نفسه وفى حمايتنا!.

رئيس اللجنة يخطب فينا ويحشر فى حديثه تعبيرات تربوية، ربما يكون قد درسها أو التقطها من المفتشين المتحذلقين، خبط فى نهاية حديثه على المنضدة موضحا مهمتنا الأساسية فى الامتحانات فى أربع كلمات، وهب واقفاً تكاد رأسه أن تلامس السقف، مهمتُنا هنا " منع الغش وليس ضبطه "، التعبير أقرب إلى التعبيرات الأمنية البالية " منع الجريمة قبل وقوعها! "،

وانصرف المراقبون، كانت الشمس تغرب من المغيب والمدرسة ليست بعيدة عن النهر، تجولنا قليلاً في ديروط الشريف على النيل، وعبرنا المزلقان إلى ديروط المحطة، أنا وسيد بسيوني وإبراهيم عطية، الحديث حول طما وما حدث فيها لم يكن أكثر من بروفة وعلينا التعامل بلباقة حتى نخرج سالمين من هذه البلدة.

قلت لي: ناس ديروط وعرين، قالها الحاج نجاتي والذى سألته تواً عن اسمه، أعاد الجملة والتى أصبحت مقطعاً ملازماً في حديثه عندما أحكي له عن ديروط، في محاولة منه لاستدراجي في الحديث لقطع الطريق، خرج القطار من أسيوط كلها، دخل دير مواس، ويبدو أنه يسير الآن على أراضي ومراكز المنيا، الظلام أطبق، وعلامات الطريق اختفت، وعربة القطار امتلأت بدخان السجائر، وأصبح تأثير التكييف ضعيفاً، ماذا فعلتمْ مع رئيس اللجنة المرتشي؟، يسأل الحاج نجاتي وأجد نفسي أتقمص شخصية هانئ الكفراوي في دفاعه عن الفسدة والمرتشين، رئيس اللجنة فيما يبدو لم يكن مرتشيا، بل كان يرغب في خروجنا سالمين من ديروط، كان يرغب في عدم إثارة أي مشاكل من اى نوع، سواء مع التلاميذ أو أهاليهم، خاصة بعدما علمنا أنه يشغل منصب مدير مدرسة ثانوية في إحدى مدن محافظة قنا، ويأمل في الترقية إلى مدير إدارة قبل إحالته للمعاش .

قضينا الجزء الأعظم من أمسية هذا اليوم فى مقهى القرشى، كازينو على النيل، تمد يدك لتصافح الماء وتعبث بـــه، الـــدور الأرضى على مستوى سطح الماء تماماً فوقـــه أدوار علويـــة، لوكاندة، يشغل أغلب حجراتها الموظفون المغتربون، البلدة بها ثراء واضح وأموال ظاهرة، لم تكن السيارات بكثرة هذه الأيام الطرازات الحديثة لم تظهر بعد، إلا أن طرازات المرســـيدس القديمة والفورد العتيقة المعتنى بها تشير إلى ثراء أهلها، وفى ديروط المحطة محلات كثيرة، محلات صاغة ومجـــوهرات، محلات تبيع الساعات وأجهزة التليفزيون تبدو مهربة من ليبيا ، عندما كانت هى المصدر الوحيد للغنى والثراء، بعـــد جلـــسة المقهى والتجوال فى البلد اتفقنا على ألا نثير مشاكل، كان رأى إبراهيم عطية هو الغالب " اربط الحمار مكـــان مـــا صـــاحبه عاوز".

ربطوا الحمار؟.. يضحك الحاج نجاتى، نعم إلا أن مكانـــه رغم إطاعتنا للأوامر لم يعجب صاحبه رئيس لجنة الامتحانات القادم من قنا، الضخم الجثة!، اليوم الأول من الامتحانات لغـــة عربية، الطلبة أغلبهم من كبار السن أو الذين أدمنوا الرســـوب فى امتحانات الثانوية العامة عدة سنوات، إلا أنهـــم يريـــدون النجاح هذه المرة ولو " بالذراع "، والعنف، حظى وقدرى مـــع سيد بسيونى والذى لازمنى منذ وصولى إلى بلدتـــه جهينـــة، مدرس لغة عربية أزهرى، مؤدب هادئ، دخلنا ســـوياً لجنـــة

واحدة للمراقبة، الورقة الأولى فى اللغة العربية، وزعنا أوراق الإجابة وأوراق الأسئلة، ونظر سيد بسيونى بسرعة على الأسئلة وأخبرنى بأنها ليست بالصعبة، بل ربما يكون أسهل امتحان للغة العربية في الثانوية العامة منذ سنوات، كتب التلاميذ كبار السن أسماءهم وأرقام جلوسهم على أوراق الإجابة، براءة أطفال طما تحولت إلى نظرات نارية، أخرج تلميذ مطواة ووضعها على الطاولة، شاهده سيد بسيونى وأخبرنى، لم أنظر إليه ، نظرت إلى الشباك وطلبت من سيد بسيونى ألا ينظر إليه حتى لا يستفزه، دماء جهينة تغلى فى عروق سيد بسيونى وأنا لا أكترث، إلا بالعودة إلى القاهرة سالماً.

ناس وعرة يا حاج نجاتي، قلتها له بدلاً من يقولها هو، وبدأت حفلة الغش الجماعي، والتلاميذ غير مكترثين بوجودنا على الإطلاق، بالإضافة إلى مراقب الدور الذى يطل من حين إلى آخر ويرى الطلبة يتبادلون أوراق الإجابات، وكتب ومذكرات أحضروها معهم وكأنَّ هذه هي طقوس الامتحانات المتبعة، ويغلى الدم فى عروق سيد بسيونى وتحدث أزمة، طالبتُ التلاميذ بصوت عالٍ بأن من لم يلتزم بالهدوء ويدخل ما معه من مذكرات و" برشام "، سألغى له الامتحان وأطرده من اللجنة، وكأننى لم أقل شيئاً، كل شئ يسير على ما يرام، الغش مستمر والغيظ يقتل سيد بسيونى، وعدم مبالاتى يثير ضجره،

اقتربت منه اخبره ان مهمتنا منع الغش وليس ضبطه ونحن لا نستطيع يابو السيد منعه!.

ويدخل رئيس اللجنة البلاكار ويرى التلاميذ ويرى أكثر من مطواة على المناضد ويرى كتباً ومذكرات، ولا يكترث الطلبة بدخوله، وإذا به يتوجه إلينا بكل غضبه التمثيلى، يتوجه إلينا لا إلى التلاميذ: اللجنة سوق والطلبة تغش وأنتما تقفان خيال مآتة، لا جدوى منكما.. وقبل أن أرد عليه فرغ سيد بسيونى كل غضبه فيه: مهمتنا منع الغش وليس ضبطه ولم نستطع منعه وأنت رئيس اللجنة والطلبة أمامك.. أمنعه أو أضبطه أو أفعل ما تشاء، يصرخ فينا رئيس اللجنة والطلبة يتصايحون، ولم يشغلهم خلافنا ونقاشنا الحاد عن الاستمرار فى مهمتهم المقدسة، خرج رئيس اللجنة ولم يفعل شيئاً سوى التنبيه علينا بالمرور على مكتبه قبل مغادرة المدرسة!.

القطار دخل بنى سويف والحديث لم ينته عن ناس ديروط الواعرة، والقصة أثارت خيال الحاج نجاتى، كاد أن يشتبك سيد بسيونى بالأيدى مع رئيس اللجنة ومعه جميع مدرسى جهينة، اكتشف أن الأمر قد لا تسير فى صالحه، إذا حاول أن يتخذ إجراءً رسمياً، فنحن يد واحدة ، وقد نشهد عليه بأنه قد باع اللجنة وأمرنا بترك التلاميذ " على راحتهم "، تراجع فى تهديده بإلغاء انتدابنا لأعمال الامتحانات، وطلب منا أن نكون أكثر حزما وخطب فينا " لا تكن يابساً فتكسر ولا ليّنا فتعصر "،

وانتهت الأزمة بسلام وظل التلاميذ طوال أيـــام الامتحانـــات يمارسون نفس العمل، ونحن المدرسين نمارس نفس الطقوس، نجلس قبل المغرب في كافيتريا القرشي ونتمشى بعد المغـــرب فى الشارع الرئيسى ثم نعود بعد الاستراحة للنوم!.

هانئ الكفراوى لم يتركنى ، هناك نوع من الأصدقاء يطوق عنقك بذراعيه، طوال الوقت حتى فى الأحلام، هانئ الكفراوى منهم، التليفون يرن، أيوه يا أستاذ أنا فى الطريـــق بـــإذن الله والحاج نجاتى سيأتى إليك غداً فى الجريدة، وهو جالس أمامى الآن، انشر مشكلته وإذا وجدت حلاً لها غير النشر ساعده فهو رجل طيب ورفيق سفر ممتع، لن أتصل بك بعد وصولى إلـــى القاهرة، فأنا فى حاجة إلى ثلاثة أيام على الأقل لأســـتريح، لا، لن أذهب غداً إلى التأمينات فهناك ورقـــة أو مـــستند مـــازال ناقصاً، إذا أردت أن تذهب غداً إلـــى مارجريـــت بمفـــردك.. اذهب، أمَّا أنا فلن أظهر إلا بعد استكمال كافة الأوراق، سلام..

انتقلت إلى عربة البوفيه أنا والحاج نجاتى وتناولنـــا قهـــوة وتبادلنا العناوين وأرقام التليفونات، دخل القطار محطة الجيزة ودعته على أمل اللقاء.

(٢٠)

دخلت منزلى إلى السرير مباشرة.. بحقيبة السفر إلى صالة الشقة وبجانبها حقيبتان من البلاستيك ، مملوئتـــان بالملوخيــة والبامية الناشفة و" الكشك " الصعيدى وخليط من البلح.. لا أحد يوقظنى.. سأظل نائماً إلى أن أصحو براحتـــى.. التليفونـــات ممنوعة.. هانئ الكفراوى بالذات.. قولوا له إننى نـــائم ولـــن استيقظ قبل ثلاثة أيام.. خلعت ملابسى وألقيت أوامرى وألقيت بنفسى على السرير.. " لا مكان مثل البيت "، مثــل إنجليـــزى قديم قابل للتداول حتى الآن.. سألتنى زوجتى إذا كنت أرغـــب فى تناول العشاء، أبديت لها رغبتى بتركى لأنـــام.. لا أريـــد سوى النوم، بدأت فى الشكوى.. الواد الكبير لم يدخل البيت إلا قبل الفجر بقليل.. وعاد ورائحة الدخان تغطيه مـــن " راســـه لساسه ".. التدخين أصبح علناً، عندما كان يخرج مع أصـــحابه ليدخن.. جلس فى البلكونة وأخذ يدخن علناً.. أنت السبب.. بدلاً من أن تكون قدوة له.. كيف تقول له امتنع عن التدخين وأنت مازلت تدخن؟.. السيجارة بداية، ستجر خلفها أشياءً أخرى.. قد يدخن " حشيش " ، أو زفت " بانجو ".. الواد زميلــه مـــسكته الشرطة بسيجارة بانجو.. عملوا له محضراً فى الشرطة وتـــم تحويله إلى النيابة، لابد لك من وقفة مع الواد الكبير.. لم أعـــد أستطع التعامل معه.. تشكو وتحكى والنعاس يغلبنـــى، عنـــدما

أستيقظ.. سأراجع كل الأمور.. اغلقى الباب وراءك واتركينى أنام.. لا أحد يوقظنى على تليفون.. هانئ الكفراوى بالذات، أنا نائم.. بمجرد أن أغلقت زوجتى باب الحجرة وخرجت، شعرت بارتياح سرى فى كل أوصال جسدى.

فى الصباح.. استيقظت.. أشعر بآلام مبرحة فى عظامى.. ضلوعى وكتفى.. تناولت كوباً من الشاى وشددت الغطاء على جسدى لأعاود النوم.. شكاوى زوجتى تعرضها فى حلقات.. لا تكترث إذا كنت أستمع لها أو أظهر ضـيقى.. تـصر علـى الاستمرار.. البنت الثانية أخذت عشرة جنيهـات مـصروفاً.. قالت: إنها اخبرتك قبل أن تسافر وأنت وافقت.. فى الحقيقة لم تخبرنى ولم أوافق إلا أننى أريـد النـوم.. هـززت رأسـى لزوجتى، محاولاً أن أصرفها.. " هاشـوف موضـوع الـواد والبنت عندما أفيق.. دفعت أمس خمسين جنيهـاً، فقـد جـاء محصل الكهرباء بمجرد خروجك من الشقة، استهلاك الكهرباء أصبح ناراً .. ونور الشقة كله " مولع ".. والعيـال لا تـرحم وأنت لا تفعل شيئاً معهم.. وجلست على طرف السرير تحكى وتحكى، ودخلت أنا فى طبقات النوم العميقة.

التليفون يرن.. هانئ الكفراوى على الطرف الثانى يطلـب إيقاظى لسبب هام.. البنت الصغرى تحاول صرفه.. أبى عاد من السفر ليلاً وهو فى غاية التعب، وطلب أن نتركه لينـام.. قال: اتركونى أنام حتى ولو نمت ثلاثة أيـام.. الموضـوع لا

يحتمل التأجيل.. لابد من إيقاظه لأمر هام.. أنا أتحـدث مـن الجرنال.. التكنولوجيا الحديثة ساعدت البنت الـصغرى فـي إظهار مقاومتها الشديدة لهانئ الكفراوى حيث فتحت " الاسبيكر " الخاص بالتليفون، لتتحدث دون أن تمسك بالسماعة ولتسمعنى ما يقول هانئ الكفراوى.. خاصة بعدما لاحظت أننـي أتقلـب على السرير وشاهدتني بوضوح من فرجة البـاب المـوارب أيوه.. نعم.. قولي للأستاذ هانئ أنني سأكلمه، انقلي التليفـون إلى حجرتي.. صباح الخير وصباح النور.. أيـوه يـا أسـتاذ هانئ.. حمداً لله على السلامة.. لا تنسى اليوم الساعة الخامسة، الحفلة الخاصة بسيد أذى، فقد أحيل على المعاش وتم رفـض تجديد عمله لمدة عام، ودفعت لك اشتراك الحفلة كمـا قلـت.. الساعة الخامسة لا تنسى وهي فرصة نجلس بعدها سوياً لتحكى ماذا فعلتَ في الـصعيد.. سـلام.. التليفـون أداة مـن أدوات الإزعاج.. أمامي أربع أو خمس ساعات أستطيع أن أنامها ، ثم أذهب إلى السيد هانئ الكفراوى وسيد أذى.. وقـد كنـت أنـا صاحب اقتراح الحفلة، ليس حباً فيه ولكن رغبة مني في التأكد من مغادرته المؤسسة دون رجعة وتحرير العـاملين مـن أذاه وحقده واحتفالا برحيل فاسد مرتشٍ ليواجه الدنيا وحـده.. دون مكتب ودون كرسى!، يواجه الدنيا كما ولدته أمه!.

القاعة مكتظة بالضيوف الذين جاءوا يودعون سـيد أذى.. موظفون من شئون العاملين والحسابات وفراشون ومحررون..

تهلل وجه هانئ الكفراوى عندما لقينـــى.. أحـــضان وقـــبلات وكأننى غبتُ عنه شهوراً، أفسح لى لأجلس بجانبه وأتفحـــص وجوه الناس الذين يظنهم البعض أصدقاء ســـيد أذى ولكـــنهم ليسوا بأصدقائه، مجرد زملاء فى المؤســـسة، إلا أن أغلـــبهم بالفعل قد نال بعضا من أذى سيد هذا، وتعوَّدوا شـــأنهم شـــأن العاملين فى بقية المؤسسات، ألا يفصحوا عـــن آرائهـــم، وألا يكشفوا مكنون صدورهم، إلا لمن يأتمنونه، التجارب علمتهم.. والتقية أصبحت مذهبهم، إظهار غير ما تبطن أسلم الأســـاليب للتعامل فى مثل هذه المؤسسات، فقد تعلن رأيك صراحة فـــى شخص ما قد يكون عديم القيمة، فإذا بالأيام تجلسه على مقعـــد ذى نفوذ.. التسامح صفة غير موجودة، وإذا كان هنـــاك مـــن يتغنى بها.. وعندما يركب الوضيع ينكل بكل من حوله خاصة أصحاب الرأى المعلن ضده وخاصة الـــذين كـــانوا يعاملونـــه باحتقار أو عدم احترام.. التجارب المريـــرة علمـــت النـــاس الصمت والانتظار والرغبة فى التشفى.. وها هو قد جاء يـــوم سيد أذى.

هانئ الكفراوى يجلس على يمينى والقاعة فى انتظار ســـيد أذى، بالطبع هذه الاحتفالات لا يحضرها رئيس مجلس الإدارة أو كبار المسئولين بالمؤسسة، خاصة وأن ســـيد أذى ضـــئيل الحجم فى مكانته الوظيفية وليس من أصحاب النفـــوذ ونابـــه الأزرق لا يغرسه إلا فى لحم البسطاء، والآن قد خلع نابه ولم

تعد له أنياب زرقاء أو بيضاء.. ملت برأسى على من يجلس يسارى.. أبديت بعض ملاحظاتى حول غياب سيد أذى وخسارة المؤسسة له، وكان المفروض أن يمدوا له الخدمة لمدة عام على الأقل حتى لا تحرم المؤسسة من خبراته وخدماته، فإذا بالجالس على يسارى يسب سيد أذى بأبيه وأمه ويلعن القائمين على شئون المؤسسة، والذين تركوا مثل هذا الشخص كل هذه السنوات يعيث فيها فساداً، ويمد يده ولا يقدم خدمة إلا بعد تقاضى الأجر، وقد حول مكتبه إلى قطاع خاص.. فرحت وانتشيت لعثورى على شخص يشاركنى الرأى فى سيد أذى ويعلن هذا الرأى بشجاعة رغم عدم معرفته العميقة بى.

دخل سيد أذى القاعة.. أمامه رئيسه فى العمل وخلفه شاب أصغر سناً.. يتحرك سيد أذى ببطء، قدماه تحتكان بأرضية القاعة والمسافة بينهما أكبر مما اعتدتها.. لا أعلم سبب الربط غير المنطقى الذى غزا رأسى حول مشهد دخوله القاعة ومشاهد الإعدام فى الأفلام السنيمائية.. عيناه زائغتان.. ركبتاه أضعف من أن تحملانه.. وجهه الترابى زاد كلاحة، أجلسوه على مقعد فى منتصف الطاولة الرئيسية.. وصفق الحاضرون له باستثناء هانئ الكفراوى وأنا والشخص الجالس على يسارى.. أمام كل من حضر الحفل طبق كرتونى فيه قطعتان من الجاتوه وبجانبه زجاجة مياه غازية.. البعض بدأ يأكل دون انتظار للكلمات التى ستلقى فى الحفل، فقد دفع أغلبهم الاشتراك

الرمزى مكرها، وقد حان الوقت ليأكلوا بجزء من ثمـن مـا دفعوه!، ولعنة الله على سيد أذى.

هانئ الكفراوى يحاول السيطرة على أذنى، يحكى لـى أن أحداث اليومين اللذين غبت فيهما عن العمل، يحاول أن يعرف ماذا فعلت فى الصعيد.. وقصة الحاج نجاتى.. أخبرنى أنه قابله فى الصباح وأعطاه رسالة إلى موظف كبير فى هيئة كهربـاء الريف، يطلب فيه الاهتمام بالحاج نجاتى وأنهاء حاجته.. سألنى متى سنذهب إلى مارجريت، عطلنى عن الاستمتاع بمظهر سيد أذى وعيونه التى تخترق عدسة نظارتـه لتحاصـر الجـاتوه وزجاجات المياه الغازية الموضوعة أمام الناس، لقد كان يتمنى بالطبع بدلاً من إقامة مثل هذا الحفل أن يعطوه ما جمعوه مـن نقود.. فهو لا يشبع منها.. قيل إنه تسلم شيكاً لا تقل قيمته عن ستين ألفاً من الجنيهات، نهاية خدمة وصندوق الزمالة، إلا أنه لا يشبع.. خطباء يمتدحون سيد أذى وأخلاقه وتفانيه فى العمل وإخلاصه وإطاعته لرؤسائه، الأحاديث لم تخرج عـن نطـاق النفاق باستثناء طاعته لرؤسائه، هناك صـوت فـى مـؤخرة القاعة.. " الخروف.. الخروف "، الحروف واضحة والجملـة اخترقت آذان الحاضرين، ضجُّوا بالضحك واستمر المنافق فى ذكر مناقب سيد أذى واستمر هانئ الكفراوى فى ثقـب طبلـة أذنى بأحاديثه. على طرف الطاولة المقابلة، تجلس امرأة شابة سمراء لا نعرفها، إنها من خارج المؤسسة قد جاءت مع إحدى

صديقاتها.. تضع ساقاً على ساق بطريقة تنادى بها على عيون الحاضرين، لا أعلم كيف " فاتت " على هانئ.. وجهته إليها.. وضعته على الطريق الصحيح لأتخلص من كلامه.. قبل المهام الجسام.. يخلع هانئ الكفراوى النظارة من فوق عينيه، يخرج من جيبه " قطعة قماش " صغيرة، يصرُّ على أنها ليست قماشاً ولكنها جلد غزال يمسح بها النظارة ثم يضعها على عينيه.. أخرج جلد الغزال من جيبه وخلع النظارة من فوق عينيه ومارس هوايته واستمتعت أنا بصمته.. نسى فيما يبدو مارجريت، فهى نموذج الجمال الهادئ الذى أحبه أنا، بينما المرأة التى أمامنا فى الفئة التى يعشقها هانئ.. فئة الجمال الصارخ أو الصاخب أو ما أسميه أنا بالجمال الفاجر، لاحظت الشابة تهامسى أنا وهانئ عليها.. ابتسمت كمن تأخذ وضع الاستعداد للتصوير، بينما يتوالى المتحدثون عن مناقب سيد أذى وإذا بأصوات تنادى علي.. مطالبين بأن ألقى كلمة فى وداع أذى!.. أشد الناس حماساً فى طلبى يعرفون تماماً علاقتى بسيد وكراهيتي له.. كراهيتى لكل الفسدة والمرتشين، وتحول الطلب إلى هتاف.. الأستاذ شاكر لطفى.. شاكر لطفى.. وهانئ الكفراوى فى وادٍ آخر مع السيدة صاحبة الساقين.. يرسل إليها سهام إبليس!.

تحركت من مقعدى ولم يشعر بى هانئ، انتقلت إلى المائدة الرئيسية، وقلب سيد أذى أسمع دقاته، فهو يعلم موقفى منه وقد

واجهته من قبل، ولعنت أهله ومن جاء به إلى المؤسسة، إلا أنه للأمانة كان يكتفى بالانتقام الصامت، لم يرد على ولم يقدم شكوى مكتوبة ضدى.. اكتفى بتعطيل مصالحى حتى الآن وجعلنى ألف حول نفسى ما يزيد على ألف كيلو متر لختم ورقة ومازالت بقية الأوراق معطلة، وخاصة القرار الذى أخفاه عمدًا من ملف خدمتى.. فوجئ بى هانئ الكفراوى وأنا أقف على المنضدة الرئيسية.. المنصة.. أستعد لخطبة عصماء فى مناقب سيد أذى الموظف الذى أُحيل إلى التقاعد، وكأنه أُحيل إلى الدار الآخرة، رفع سيد رأسه لينظر إلى ولم يخفضها.. ظلت عيناه معلقتين بشفتى، وأكاد بالفعل أسمع دقات قلبه المرتجف!.

ماذا سيقول شاكر لطفى؟.. سؤال تحول إلى ضجر فى صدر سيد أذى.. لاحظ من يجلس بجواره تصبب عرقه.. انتزع منديلاً ورقياً من العلبة التى وضعوها على المنضدة.. وأعطاه لسيد.. خلع النظارة ومسح وجهه ورفع رأسه مرة أخرى إلىَّ.. ليرى وليسمع ماذا سأقول فيه: " ماذا أقول فى سيد أذى وأنتم جميعاً تعرفونه صامتاً.. صابراً.. لن أقول مكافحاً ولن أقول إنه كَان.. وكان.. وبين كان وكان توقع الحاضرون أن أقول إنه كان فاسداً ومرتشياً.. خَرِب الذمة وقليل الدين.. لن أقول فى سيد أذى سوى ما يقوله صديقى هانئ الكفراوى.. الذى يقول دوماً: إن الحياة تبدأ بعد سن الستين "، وأنت يا سيد قد بدأت حياتك الفعلية منذ أسبوع وأدعو

لك بالصحة والعافية وطول العمر، وألا يرزقنا الله بمثلك في هذه المؤسسة "، وعلا الضجيج والتصفيق، ونظر إلى سيد نظرة المسكين الممتن.. الشاكر بصمته بأنني لم أفضح أمره على الملأ وينتهي الحفل.

زميلنا الأستاذ شاكر لطفي.. الكفراوي يمسكني بيده ويقدمني للمرأة صاحبة الساقين السمراء المثيرة.. لا أعلم متى شبك خيطه معها ولا أدري كيف انتقل إليها.. واستمر في عملية التعارف.. إنها إبنة خالة الأستاذة فلانة، وقدمني إلى امرأة أخرى تقف بجانبها وهي تعمل معنا في المؤسسة وقدم دعوته الشهيرة.. فنجان شاي أو قهوة في مكتبي في الدور العلوي.. الدور الذي يلي هذا مباشرة.. لا داعي لاستخدام المصعد، السلم سهل، وإذا الجمع يتحرك إلى مكتب هانئ الكفراوي باستسلام غريب.. كأنّه يعرف المرأة منذ زمن.. يضحك معها وينكت وقد ذابت الكلفة والتكلف بينهما، بينما قريبتها التي تعمل معنا في المؤسسة تتعجب مثلي لسرعة التعارف والجو النفسي الغريب الذي هيأه الكفراوي على عجل.. المرأة من نفس نمط وطراز الكفراوي توزع الابتسامات وتتمايل أثناء الضحك، وتبدو أنها بلا مشاكل وبلا قيود.

لأول مرة يصرفني هانئ بلباقة وأدب بمجرد انتهاء شرب الشاي، طلب مني ألا أنسى المرور عليه في الغد ومحادثته ليلاً في التليفون للاتفاق على موعد، لمتابعة موضوع ضم الخدمة

وإحضار ما حصلت عليه من أوراق من الصعيد ، ألقيت عليهم التحية وانصرفت من المكتب.. مبتسماً بنفس طريقة هانئ الكفراوى الذى يظن من لا يعرفه بأنه " دون جوان " عصره وأوانه، وصاحب قدرات فذة فى التقاط النساء وإلقاء شباكه عليهن!.

انتهى زمن سيد أذى فى المؤسسة، إلا أن المؤسسة لم تنته بعدُ من أذاه، ملفات مفتوحة لم تغلق بعد، أوراق ضائعة، سنوات خدمة اختفت، أرامل يترددن على المؤسسة وعلى مكتب التأمينات لإنهاء مشاكلهن ومشاكل أولادهن، وبسبب غياب الأوراق أو المستندات لم يصرف لهن معاش.. فهل يأتى من يحل مشاكل سيد أذى أو على الأقل من لا يسير على دربه ويتعامل مع العاملين بحب، لا بحقد، ويؤدى عمله بإخلاص وتفانٍ دون رغبة فى الانتقام والتشفى؟.. قيل قديماً أن " بيض الأفاعى لا يفقس كتاكيت "، فقد عيَّنوا بدلاً من سيد أذى من هو أسوأ منه، عُرِفَ عنه الفساد منذ أن وطأت قدماه المؤسسة لم يورد خرافاً للرؤساء، بل تخصص فى توريد النساء والفتيات ويصر هانئ الكفراوى على أنه أفضل من سيد أذى، يعرف شغله تماماً، ولا يتكسب منه، أما توريد النساء فهى هواية مثل جمع الطوابع أو صيد الأسماك!.

انتظرت الكفراوى كما اتفقت معه فى التليفون على مقابلتــه فى مدخل المؤسسة لبدء جولة جديدة بحثاً عن سبل الحـــصول على القرار الوزارى ١١٢٥.. أهم ورقة مطلوبة لتسوية ملف التأمينات، أخبرته أن موظف جهينة وعدنى بإرسالها بالبريـــد بعد يومين أو ثلاثة أيام على أكثر تقدير، إلا أنه فــضل بــذل محاولة أخيرة مع موظف الحفظ فى وزارة التربية والتعلـــيم، أملاً فى كسب الوقت كما قال، من أمـــام المؤســسة اســتوقف سيارة أجرة، طلب من السائق التوجه إلى ضريح سعد.. ركبنا، سأل السائق إذا كان يعرف الطريق إلى ضريح سعد أو يصفه له، سخر السائق من سؤاله: أنا سائق تاكسى منذ عشر سنوات وأحفظ شوارع وسط وصدر وأرداف البلد، حتى الجيزة ومـــا حولها، لم يسلم السائق من سجائر الكفراوى الذى جلس بجانبه وأجلسنى فى المقعد الخلفى، أعطى له سيجارة وأشـــعلها لـــه، سأله: تعرف سعد باشا زغلول؟، السائق فيما يبـــدو مـــشغول بعطل ما فى صندوق الحركة بالسيارة، يدفع الذراع بعنف إلى الامام ويجيب:" سعد؟.. مين ما يعرفش سعد، هو الوحيد اللـــى فهم الفوله بدرى.. وقال مفيش فايدة !".

إذا أخطأتَ فى ذكر حديث أو آيـــة قرآنيـــة أمـــام هـــانئ الكفراوى.. لا يهتم ولا يكترث.. أما إذا أخطأتَ فى التـــاريخ

وأخرجتَ منه أحداثاً في غير سـياقها، تظهـر علـى وجهـه علامات الانفعال وكأنك " غلطتَ في البخاري.." سـعد باشـا زغلول قال فعلا مفيش فايدة، والعامة والدهماء أخذوا يرددون هذه العبارة مع كل مشكلة بلا حل ومع كل قضية معقدة، التفت الكفرواي إلى السائق قائلا:" سألتَ نفسك مفيش فايدة في إيه؟"، سعد باشا قال هذه الجملة عندما فشل معه الأطباء.. فشلوا فـي علاجه من مرضه الأخير وعندما أحس بقرب أجلـه وعـدم جدوى الأدوية التي حوله، والأطباء الـذين يتوافـدون علـى منزله.. قال لأم المصريين: صفية زغلول.. مفيش فايدة.. هذه الجملة ليست لها علاقة بالبلد.. لا ترددوا أشياءً لا تفهمونهـا.. وأمر السائق بالتوقف وأعطاه حسابه.

كأنني أرى ضريح سعد لأول مرة.. مبني علـى الطـراز الفرعوني تحيطه مساحات خضراء من جهاته الأربع.. سـور حديدي عالٍ بتصميمات عربية، المبنى على غير العادة معتنى به وفي غاية النظافة من الخارج، قيل إن المصريين اكتتبـوا فيما بينهم لتشييد ضريح يليق بالزعيم.. على الرصيف المقابل مبنى أخر.. وزارة الإنتاج الحربي، يفط من النحاس اللامعـة وحواجز طرق حديدية مدهونة بـاللون الأحمـر والأبـيض.. شرطة عسكرية.. أمامه مباشرة مبنى وزارة التربية والتعلـيم.. أبواب حديدية ضخمة، أسوار عالية تحـيط بـالمبنى.. حتـى الشبابيك عليها قضبان حديدية، وكأنَّ الوزارة عرضة لهجـوم

إرهابى، طلب الكفراوى أن يدخل وحده لموظف الحفـظ أو أن أصحبه إذا كنت أرغب، ورغم يقينى بفشل المحاولة مسبقاً، إلا أنه ابتسم متحدثاً عن شرف المحاولة، أكدت له أن الموظف قد يسلمنا القرار ١١٢٥ فى حالة واحدة وهى أن ندفع له ما يطلب دون مساومة وفى الحال.. سلم واستلم.. إلا أنـه حـاول أن يفهمنى أن خبراته أوسع من خبرتى ومعرفته بالناس أعمق من معرفتى.. طلبتُ منه ألا يذهب وحده وأن أذهب معـه لأتعلـم منه!.

وقفنا على رأس الموظف فى منتـصف الـصالة الواسـعة المتربة، رد التحية بعد ثوانٍ فأمامه أوراق وملفـات لا ينظُـر إليها أو يقلِّب فيها، إلا عند دخول أحد للسؤال أو الاستفسار عن شئ.. أحد الأساليب الوظيفية التقليدية لإضـافة هيبـة علـى موظف منسى ومهمل فى قبو مترب.. أعاد الكفراوى التحيـة على مسامعه، أغلق الملف ورفع رأسه ينظر إلينـا وكأنـه لا يعرفنى وكأننى لم أقابله من قبل.. " أيوه "، كلمة تنم عن عـدم الاحترام وعدم الاكتراث.. نطقها الموظف بعدوانية ظـاهرة.. انحنى عليه هانئ الكفراوى.. حدثـه.. أخبـره بأننـا جئنـا للحصول على القرار رقم ١١٢٥.. انفعل الرجل: " أنـا مـش عارف حكاية القرار ده.. كل الناس تسأل عنه.. فهو مثل آلاف القرارات غيره التى تصدر كل عام.. ولا أحد يريد أن يفصح لى عن سر هذا القرار.. مسح هانئ الكفراوى بكفه مقعداً أمام

المكتب وجلس عليه.. القرار ليس به أسرار والأستاذ شاكر لطفى - مشيراً إلىَّ- فى أشد الحاجة إليه لضم فترة خدمة سابقة عمل خلالها بالتربية والتعليم.. تجاهل الموظف أنه شاهدنى من قبل إلا أنه أكد ما قاله سابقا: القرار هنا والبحث عنه يحتاج بعض الوقت، ومن الممكن الحصول على صورة منه من الإدارة التعليمية التى كان يعمل بها الأستاذ أو تقديم طلب إلى رئيس الإدارة، والطلب سيحول إلىَّ، والكلمة النهائية لى.. ومن الآخر.. مائة جنيه للحصول على صورة هذا القرار.. خمسون قرشاً ترتفع إلى مائة جنيه بعد مرور خمس وعشرين سنة.. الرجل جاد فى طلبه وواضح فى فساده..الرجل يلعب فوق خمس برايز طبقاً لتصنيف هانئ الكفراوى، والذى أخرج من جيبه خمس برايز بالفعل - خمسون جنيهاً- وضعها على المكتب.. آزاحها بيده: مائة جنيه.. أنا لا أعمل وحدى فى هذا المكان.. الثعلب الصغير تحول إلى ذئب، تحول إلى حوت، لا يقبل المساومة وقد حدد سعراً غير قابل للتخفيض.

رنَّ جرس التليفون.. أبحث فى جيوبى عن مكانه، آلوه.. أيوه.. يا هلا.. يا جهينة.. صديقى على الطرف الآخر، يخبرنى بأنه عثر على صورة القرار فى ملف خدمة أحد الزملاء القدامى وقام بتصويره وختمه بختم النسر ويحدثنى من مكتب البريد، فقد قام بإرسال صورة القرار إلى عنوانى بالجريدة فى خطاب " بعلم الوصول "، سيصلنى بعد ثلاثة أو

أربعة أيام علي أكثر تقدير.. شكرته وودعته.. والتفتُ إلـى الموظف قائلا:" خسرت خمسين جنيهاً "، ومددت يدى أخطـف المبلغ الذى وضعه هانئ الكفراوى على مكتبه وسحبت بيـدى الأخرى هانئ للخروج من بحر الظلمات والرشاوى،" الأوراق ستستكمل خلال ثلاثة أو أربعة أيام ياهانى ".. " هانئ هـانئ وليس هانى.. يا شاكر.. يا لطفى!".. خلال دقائق، كنـا فـى جوف المترو مع موظفين وموظفات فيما يطلق عليه " سـاعة الذروة ".. الكل عائد إلى منزلـه يحمـل جرائـد أو فواكـه وخضروات.. سلة الكاتب المصرى القديم بتوزيع جديد!.

قطعتُ إجازتى وعدت إلى العمل انتظاراً لوصول الخطاب.. مر من الأيام ثلاثة.. ويسألنى هانئ الكفراوى متى سنذهب إلى مارجريت والخطاب لم يصلْ؟.. فى اليوم الرابع سلمنى الفراش إيصالاً من هيئة البريد للذهاب إلى المكتب المجاور فى شارع رمسيس لاستلام الخطاب، فرحتى بالإيصال لا تقل عن فرحة هانئ الكفراوى وسروره به.. نزل معى إلـى مكتـب البريـد واستلمت الخطاب بعد توقيعى، واطلاع الموظف المختص على بطاقتى الشخصية.. بيروقراطية عريقة منظمة ظهـرت فيهـا بمرور الأيام طحالب وفطريات أصـبحت غـذاء المرتـشين الأوائل.. الرسالة تحتوى على خطاب بخط اليد مـن موظـف الإدارة التعليمية بجهينة، يعتذر عن التأخير فى إرسال الخطاب ويعرب عن أسف بعض الأهالى الذين علموا بوصـولى ولـم

يتمكنوا من مشاهدتى أو لقائى ودعوة لزيارة البلد مرة أخرى.. كلام رقيق ومشاعر صادقة أثارت الكفراوى.

" يبدو أن الصعايدة كما تقول يا شاكر يا لطفى ".. فى الصعيد شئ مختلف، مثل البلح فى أعالى النخيل.. البلح هو الفاكهة الوحيدة التى لم يُعبثْ بعدُ فى صفاته الوراثية، وهو الفاكهة الفريدة فى نوعها، والتى لم تصلها بعد المبيدات أو الكيماويات.. الصعايدة فى الصعيد مثل البلح فوق النخيل.. وعندما يخرجون قد تختلف الأمور وقد تختلط، والتلوث قد يلحقهم مثل غيرهم من الكائنات.. الخطاب طويل.. السلام ختام.. مرفق طيه صورة من القرار ١١٢٥ بها اسم سيادتكم وتحته خط باللون الأحمر، وممهور بختم النسر من إدارة جهينة التعليمية.

خطف الكفراوى صورة القرار ولعن الرشوة والمرتشين واعترف أن الدنيا مازالت بخير، وأنَّ هناك من الناس من لم تفسد، وأعجبه تشبيه البلح والنخيل، وضحك ضحكته متسائلاً: ماذا يحدث لهؤلاء الصعايدة إذا جاءوا مصر، الرجل فى الوزارة رفض خمسين جنيهاً مصراً على مائة وموظف آخر لا تربطك به صلة يبحث لك عن القرار ويصوره ويتصل بك تلفونياً ويرسل الخطاب بعلم الوصول ويدفع من جيبه ثلاثة جنيهات على الأقل؟.. مازال فى هذا البلد خير.. أخذت منه صورة القرار..قرأته بصوت عال.

مدرسو لغة إنجليزية تابع الأمر

التنفيذى ١١٢٥ بتاريخ ١٣ / ٩ / ١٩٧٥

بعد الديباجة

يقتضى تنفيذ الآتى :

أولاً وثانياً وثالثاً..ما يهمنا أولاً: اعتباراً من ٨/ ١٩٧٥/٩ تاريخ اعتماد قرار لجنة شئون العاملين، يُعين السادة المذكورون وعددهم (٤٠٢٠) أولهم زين العابدين أحمد محمد، وآخرهم منصور رمضان عبد الله على، كل بوظيفة مدرس بالمرحلة الإعدادية بالجهة الموضحة قرين الاسم، بأول مربوط الفئة السابعة التخصصية، خصماً على الاعتماد الإجمالى بموازنة السنة المالية ١٩٧٥ بمرتب شهرى قدره.. ٢٥ج (خمسة وعشرون جنيهاً مصرياً) يُصرف إليهم من تاريخ تسلم العمل وخط أحمر تحت اسم شاكر محمد لطفى، وختم النسر.

هل تتذكر صديقك الذى جلسنا معه فى الأمريكين الذى تحدث عن الثعالب الصغيرة؟.. أسأل الكفراوى ويهز رأسه بالإيجاب، صديقك الفاسد الكبير فى رئاسة أحد أحياء القاهرة، لقد أعلن براءته من الفساد، وألقى بالتهمة كلها على الثعالب الصغيرة التى تسئ إلى أمثاله المحترمين، وهل تظن يا

كفراوى أن موظف الحفظ بالتربية والتعليم من الثعالب الصغيرة؟.. اتخذ الكفراوى وضع الاستعداد ولاحظتُ تغييراً فى نبرته وموقفه تجاه الفسدة وقال ما أضحكنى: الغابة مليئة بكل الحيوانات.. ثعالب وذئاب وأسود وفهود.. الكل يعمل فى تناغم محافظاً على ما يسمى بالتوزان البيئى.. هذا يتلذذ بلحم ذاك وذاك لا يقترب من هذا، إلا أن غابة الفساد، اتفق الكل على أن ياكل لحم الكل، يمارسون أدوارهم بالتناوب.. يأكله مرة وتأكله مرات!.

بدأ الكفراوى ينظر فى تاريخ الفساد وغلب عنه أن ثعلب التربية والتعليم الصغير لا يتركه الذئاب بأية حال يعمل وحده.. طرحت عليه أرقاما وحسابات.. فَغَر فاه بدهشة.. الحسبة بسيطة ياعم كفراوى.. القرار الواحد به تعيين ٤٠٢٠ مدرساً جديداً.. وإذا افترضنا أن بعضهم فقط سيدفع الإتاوة المطلوبة قديماً.. خمسون قرشاً.. ألف جنيه على الأقل دخل قرار التعيين الواحد لمدرسى مادة واحدة.. وإذا افترضنا جدلاً أن هناك مدرسى خمس مواد على الأقل فى الدور الأول، يعنى خمسة آلاف جنيه ونصفهم فى الدور الثانى بنصف المبلغ يصبح الإجمالي سبعة آلاف جنيه وخمسمائة، فالوزارة فى الزمن القديم كانت تقسم التعيين إلى مرحلتين.. خريجو الجامعة دور مايو، يتم تعيينهم فى شهر سبتمبر، وخريجو الدور الثانى يتم تعيينهم فى شهر ديسمبر أو يناير.. لقد كان سعر السيارة الفيات

١٢٨ تسليم المصنع فى ذلك الحين ١٧٠٠ جنيه، فهل الـذئاب ستترك الثعلب الصغير هذا ينعم وحـده بكـل المبلـغ وهـذا النعيم؟.. يهز الكفراوى رأسه موافقاً على كل كلمة أقولها لـه، ويكتفى بترديد " حسبى الله ونعم الوكيل ".

دع الفساد للفاسدين ولنتحدث فى المهم، غداً بإذن الله سنغلق الملف بعد تقديم الأوراق كاملة إلى مارجريت ونجيـة شـمس الدين، ونضم فترة الخدمة السابقة وينتهى الأمـر، شـعرت أن الكفراوى لا يرغب فى إنهاء الوضع ليستمر إلى ما لا نهاية.. نذهب كل عدة أيام إلى مارجريت.. لـيجلس معهـا ويحـدثها والحجة أن هناك ملفاً لصديق لم يُغلقْ بعد: قرأ ما يـدور فـى رأسى، ملفك سيغلق غداً، أمّا ملفى مع مارجريت فلـن يُغلـق على الأقل فى المستقبل المنظور، وضحك ضحكته، واسـتمر يحدثنى وعيونه تخترق صدرى: اليوم سـأقرأ الفاتحـة مـع مارجريت.. لم أصدق ما سمعته فهل أصابه مسٌ من الجنون.. وهل يفكر فى الزواج للمرة الرابعة وهو فى سن الستين وماذا عن ديانته وديانتها.. وهل أخبر ابنه وابنته برغبته تلك ومـاذا سيقول عنه الناس؟.

لا تذهب بعيداً.. انتـشلتنى جملتـه تلـك مـن أفكـارى السوداوية.. سأقرأ الفاتحة مع مارجريت لإنشاء مشروع خيرى إنسانى سوياً.. إنه يلاعبنى، فالزواج قد يكون مشروعاً إنسانياً إلا أنه ليس خيرياً.. لقد اتفقت مع مارجريت على تحويل شقة

الدور السفلى فى منزلى إلى جمعية اجتماعية، سنعمل سوياً على إشهارها وتسجيلها، وسنعمل فى مجال الخدمة العامة والعمل التطوعى، خاصة لكبارالسن وهناك جمعيات كثيرة مماثلة فى العديد من دول العالم تعتنى بالمتقاعدين والمحالين على المعاش، وربما أصدر جريدة باسم الجمعية تحمل عنوان " الأوائل "، أو" الرواد "، وهو نفس الاسم لجريدة تصدر فى إنجلترا تهتم بالشئون الاجتماعية والطبية والنفسية لكبار السن، ومكانك عندى محجوز ستعمل معي ولكن بلا أجر.. فالعمل كله تطوعى خيرى.. ما رأيك يا شاكر.. يا لطفى؟، أفكاره كثيرة وآماله عريضة.. لا يخشى الموت ولا يفكر فيه.. يرى ويؤكد أن أمامه على الأقل ثلاثين عاماً أخرى، فهو ينتمى لعائلة من المعمرين وهو يراهن طوال حياته على عوامل الوراثة .

المترو يهدئ من سرعته لدخول المحطة، قبل أن نهم بالنزول، أخبرني أن هناك موعداً مع مارجريت فى نادى التوفيقية وبعض عضوات النادى للإتفاق على صياغة القانون الأساسي للجمعية وأن الاجتماع فى الساعة السادسة وطلب منى الحضور لأننى من مؤسسى هذه الجمعية.. وتوقف المترو.. ومضى كل منا فى طريقه.

وضعنى هانى الكفراوى مؤسساً فى جمعية لا أعرف شـيئاً عن أهدافها غير الذى ذكره لى فى المترو، وعلى أن أستجيب لرغباته بلا مناقشة، وفكرة الجمعيـة تبـدو بالفعـل إنـسانية وخيرية، وطلب منى الحضور وعلى الالتزام والذهاب إلى نادٍ لم أدخله من قبل، ولا أعرف عنه سوى ما يقوله الكفـراوى، فهو يعتز بمصريته ويفتخر بعضويته فى هذا النادى العريق.. كان دائم القول إن هذا النادى تم إنشاؤها فى القـرن التاسـع عشر، وسُمى باسم الخديو توفيق وكان مخصصاً للعبة التنس.. معلومات الكفرواى التاريخية غزيرة وموثقة، فقد كـان مقـر النادى - بداية الأمر- فى شارع رمـسيس الحـالى، مكـان مصلحة التليفونات، ثم تم نقله إلى مركز الفتيات على النيل فى إمبابة بجوار نادى الزمالك والترسانة، وعندما أعيـد تخطـيط القاهرة مع بداية الثورة، نُقل نادى الزمالك والترسانة إلى ميت عقبة، ونُقل نادى التوفيقية إلى مقره الحالى فى شـارع أحمـد عرابى، أقيمت على ملاعب النادى أول بطولة عالمية للتـنس فى مصر وفاز بها لاعب تشيكى يدعي دروبنى، وسرعان ما حصل اللاعب على الجنسية المصرية ولعب باسم مصر وفاز ببطولة ويمبلدون فى أواخر الأربعينات.. كنت لا أعـرف أن لهانئ الكفرواى اهتمامات رياضية، وكنت أظـن أن اهتمامـه

محصور فى النساء .. عاشقاً وليس غازياً ، وفى السجائر والدخان ذواقاً شرهاً ، يدخن كل الأنواع الجيدة أو التى يعتقد أنها جيدة .

ميدان سفنكس المتجه إلى شارع جامعة الدول العربية، ولابد من الذهاب إليه بسيارتى المتهالكة التى أدفع نصف دخلى لإصلاحها، بالرغم أن التقسيط سهل امتلاك السيارات الجديدة وامتلأت بها شوارع القاهرة، سيارات من كل بقاع العالم ومن كافة الطرازات.. ارتديت أفخر بدلة وانتقيت أجمل رباطة عنق وبحثتُ عن زجاجة العطر التى أخفيها عن أولادى فى قاع الدولاب.. عمر الزجاجة لا يقل عن عشرين عاماً وهى آخر زجاجة عطر اشتريتها فى حياتى الراهنة.. اليوم موعدنا مع مارجريت وجمعية هانئ الكفراوى فى نادٍ أدخله لأول مرة.

أمام النادى وجدت مكاناً شاغراً لسيارتى، وجهنى منادٍ للسيارات، فقد أصبح على ناصية كل شارع منادٍ يحمل فوطه صفراء تقوم بتعيينهم عصابات منظمة مقابل أجر يومى أو أسبوعى.. تختار لهم الأماكن الشاغرة، تزرعهم فيها وتوفر لهم الرعاية والحماية.. التعيين يمر بمراحل، الزرع ثم المراقبة ثم افتعال مشاجرة لتثبيت المنادى الجديد، وإرهاب كل من يرغب فى اقتلاعه من مكانه، وخاصة من أصحاب المحلات المجاورة

أو أصحاب السطوة بالمنطقة!.. بعضهم يطلب من أصحاب السيارات الوقوف في أماكن ممنوعة، ويطلب منهم ألا يخشوا من رجال الشرطة والمرور، فهو يتعامل معهم ويعطيهم جزءاً من حصيلة دخله اليومي، إلا أنه في الحقيقة لا يكترث على الإطلاق إذا لصق أمين الشرطة مخالفة على زجاج السيارة.. كل منهم تعلم أن يحتفظ بزجاجة ماء.. يرفع المخالفة من على الزجاج ويمسح مكانها بقطرات من الماء.. وتدفع له في النهاية وتسجل عليك مخالفة من الناحية الأخرى، سألني منادى السيارات كم من الوقت سأمكث في النادي؟.. لقد حوّلوا الشوارع إلى جراجات تعمل بالساعة!.

توجهت إلى البوابة.. سألت الحارس عن هانئ بك الكفراوي.. أبلغني أنه ينتظرني بالداخل، فقد أصدر إليه تعليماته بوصول ضيف.. هذا الاحترام والاهتمام مثل كل شئ في بلدنا أصبح مدفوع الأجر.. فالكفرواي سخي، وكما يوزع سجائره لا يبخل على العمال والفراشين والحراس في كل مكان يذهب إليه ببعض نفحاته، انطلاقاً من مبدئه الراسخ " قروش قليلة تمنع بلاوي كثيرة وتسهل أموراً أكثر ".. نادى الحارس على أحد العمال وطلب منه أن يرشدني إلى مكان الأستاذ هانئ الكفراوي.. سرت بجانب العامل سألته إذا كان يعمل في النادي

منذ زمن طويل؟، أجاب بأنه يعمل فى الأمن.. كلمة "سكيورتى" أصبحت على لسان العامة من الناس، فلا وظائف شاغرة الآن، إلا فى شركات الأمن أو النظافة ، وألبسوا شريحة عريضة من شباب المجتمع قمصاناً زرقاء ورباطات عنق من نفس اللـــون، ووضعوا على أكتافهم شارات وهمية، وأمسك بعضهم مسدسات صوت بعدما تنازلت الدولة طواعية عن أدوارها الرئيسية فى حماية الأفراد والمنشآت، كما تركت من قبل التعليم للمــدارس الخاصة، والصحة للمستشفيات الخاصة.

بعد ثلاث أو أربع دقائق سيراً فى ممر ضيق يتــسع فـــى نهايته، كان يجلس الكفراوى ورفاقه، كوكبة من النساء، مـــن بينهن مارجريت التى وقفت على الفور عند مشاهدتى ومـــدت يدها بالسلام وأخذت تعرفنى بالحشد النسائى.. خمس نساء من بينهن المرأة ذات السيقان الأبنوس التى تعرف عليهـــا هـــانئ الكفراوى فى حفلة وداع سيد أذى!، من أصول الإتيكيـــت ألا تقف المرأة لتحية الرجل، بل ينحنى هو عليها لتحيتها إذا رغب فى مصافحتها، امرأة واحـــدة وقفـــت عنـــدما قـــدمتنى إليهـــا مارجريت.. الأستاذ شاكر لطفى.. صافحتنى بكلتـــا يـــديها.. وقفتها المتلهفة لفتت انتباه مارجريت.. مـــدام ناديـــة لبيـــب.. متفرغة للعمل العام والخيرى وجلس الجمـــع.. جـــاء مكـــانى

بجوار نادية لبيب لم أجد مقعداً شاغراً إلا بجوارهـــا وكأنهـــا حجزته لي مسبقاً، ويبدو أن أول القصيدة مع هانئ الكفــراوى أيضا كفر!. طريقة المصافحة بيني وبين نادية لبيــب أثـــارت الكل وليست مارجريت وحدها، هانئ الكفراوى نفــسه علـــق قائلاً: يبدو أنك تعرف مدام نادية، رغم أنك لـــم تعمـــل فـــي الكويت من قبل ، فقد قضت حياتها كلها تعمل في الكويـــت.. مستشارة في التربية والتعليم، وكأنني لم أسمع شيئاً.. لم أعلق وبدأ الكفراوى يتحدث عن مشروعه والذى كان يحلم به، وأنه بذلك يستطيع أن يعمل بالفعل عملاً خيرياً، وفي الوقت نفــسه يمارس عمله الصحفي عندما يصدر جريدة باسم الجمعية وقدم الثلاث نسوة الأخريات الجالسات، إلا أنني أحاول السيطرة على مشاعرى وأعصابي.. نسمات نهاية الخريف وبدايـــة الـــشتاء الجميلة والجو الخالي من الأتربة وشاعرية المكان وأضـــواؤه الخافتة لا تليق بالتفكير في جمعية للمسنين.. هـــذا المكـــان.. وعطور النساء الفواحة واعتنائهن بمظهـــرهن وأناقـــة هـــانئ الكفراوى، من الممكن أن يساهم في تأسيس جمعيـــة للمحبـــين والعشاق، خاصة وأن عيني مارجريت لم تبتعد عني وعن نادية لبيب، حيث أن قرون الاستشعار الأنثوى ساعدتها على التقاط أول نظرة بيننا وطريقة السلام وصمت الثواني الكثيف!.

تدور عيونى على الجمع وتتجمد نظراتى عندما تكاد تلامس عيون نادية.. أدير وجهى بسرعة محسوبة أو أظن أنها محسوبة حتى لا أثير فضول الجالسين، إلا أن مارجريت فيما يبدو فقدت الاهتمام بالكفرواى وأصبحت أنا مركز اهتمامها فى هذه الليلة.. تتحدث عن مشروعها الخيرى وعن الشقة التى يتبرع بها الكفراوى وعن كيفية إشهارها وعن المؤسسين.. خمس نساء ورجلان وهناك أيضا ثلاث نساء أخريات لم تساعدهن الظروف لحضور هذه الجلسة، وهى ترغب أن يصل عدد مؤسسى الجمعية إلى اثنى عشر فرداً، وأنها ستقوم بدور وكيل المؤسسين إلى أن يتم الإشهار وتشكيل مجلس إدارة مؤقت للجمعية ثم اجراء انتخابات.

استمع فقط.. لم أشارك فى الحديث.. ناوشنى الكفراوى.. مالى أرى صديقى اليوم أنيقاً إلا أنه ليس متألقاً.. أضحك وتضحك النسوة.. تضيف نادية لبيب: لم يكن على باله أن يقابل مثل هؤلاء الحسناوات ويستمر الضحك.. لم يكنْ يدور بخلدى على الإطلاق أن أقابل هذا الحشد، وحمدت الله أن المكان فى الحديقة بأضوائه الخافتة قد لا يساعد الآخرين على قراءة تعبيرات وجهى والتى أصيبت فجأة بالتكلس من إمعانى فى إخفاء مشاعرى، النساء الخمس لديهن خبرات سابقة فى

الجمعيات الخيرية باستثنائي واستثناء الكفراوى.. مدام نادية تتحدث عن الجمعيات الخيرية فى الكويت، وأهل الخير هناك والتبرعات التى تصل إلى مليارات الجنيهات.. تقول: عندنا فى " لكويت " وتبلع حرف الألف مثلما ينطق أهل الكويت اسم بلدهم، فى كل حى تقريباً جمعية خيرية .. الجمعيات عديدة والمشاركة الشعبية واسعة والدولة تشجع هذه الجمعيات، كما أن أهل الخير من الشيوخ والمسئولين لا يبخلون على هذه الجمعيات بالدعم والمساندة.

فى " الكويت ".. عندما كنت فى " لكويت " فى الجملة الواحدة تحشر لكويت حشراً، وأوضح لى الكفراوى أن مدام نادية قضت حياتها تقريباً فى الكويت، ومن هنا ربما تكون لهجتها قد تغيرت بعض الشئ.. هززت له رأسى وكأنه أضاف لى معلومات لا أعرفها، ولكن ما أعرفه أن من يقضى فى الخليج عدة سنوات، طالت أو قصرت لا تتغير لهجته إلا برغبته ومضى الكفراوى يتغزل فى لهجة مدام نادية ولهجة أهل الخليج.. الأحاديث تتشعب ولم يأخذ الكلام عن جمعية الكفراوى سوى دقائق.. يطلب بعدها أن نقرأ الفاتحة جميعا على أن نعمل سوياً وبإخلاص لإنشاء هذه الجمعية، ويصبح لها دور رائد فى حركة تنمية المجتمع، وتقرأ معنا مارجريت

الفاتحة إلا أن عينيها لا تنتقل إلا بين عيونى وعيـون ناديـة لبيب. وتسقط السماء نقاطاً ضئيلة من المطر على استحياء، طلب الكفراوى أن ننتقل من جلساتنا فى الهواء الطلـق إلـى " الكلوب هاوس " المبنى المغلق فى النادى.

بمجرد أن هممنا بالوقوف زاد رذاذ المطر، دخلنا مسرعين إلى المبنى بينما كان أغلب رواد النادى يغادرونـه.. صـالون المبنى فخم.. كراسي "فوتيه "وأرائك أنيقـة.. اخترنـا ركنـاً، توجهنا إليه.. تأخرت بعض الشئ حتى لا ألحق بنادية لبيـب، وحتى لا أجلس بجوارها.. أريد أن أجلس أمامها، أن أشاهدها بطريقة أفضل، فالضوء داخل المكان غير الإضاءة الخافتة فى الحديقة ومارجريت تقرأنى.. أجلستنى بطريقة مهذبة بجـوار نادية قائلة : هنا أفضل والأستاذ هانئ يجلس هنا.. لم نجـادل، جلسنا، أربعة فوتيهات وأريكـة، مارجريـت وصـديقة لهـا والكفراوى على الأريكة، وأنا ونادية على مقعدين متجـاورين متقابلين فى زاوية.. مارجريت أمامى تماما أنا ونادية، موقعها يمكنها من النظر إلينا وتفحص وجوهنا، كما أن جلستى بجوار نادية مكنتنى من مشاهدتها بالطريقة التى كنت أرغبها!.

السنوات لم تعبثْ بها كثيراً ومجتمع الوفرة فى الخليج زادها جمالاً ونضوجاً.. تضع ساقاً على ساق وتجلس علـى طـرف

الفوتيه وظهرها مستقيم، تعلمت فى الغربة - فيما يبدو- كيف تجلس وكيف تتحدث وكيف تنتقى مفرادتها اللغوية وكيف تختار ملابسها.. فى معصمها ما يزيد علـى نـصف كيلـو مـن المشغولات الذهبية، انسيال من العملات الذهبية عليها صـورة الملك جورج متراصة بجانب بعضها.. خاتم سوليتر ومحـبس ألماظ.. سلسلة ذهبية كارتيه ضخمة مجدولة بنهايتها مـصحف مرصع بالأحجار الكريمة.. علمتها الغربـة كثيـراً، علمتهـا الاكتناز وكيفية استعراض الثروة، علمتها اختيـار الألـوان، وعلمتها - وهذا الأهم- استخدام ما يليق بعمرها من مكياج.. الغلبة للألوان الداكنة إلا أنها تزيدها جمالاً ورونقاً.. أشارك فى الحديث وأكمل الصورة فى مخيلتى من حين لآخر وأقارن بين الماضى والحاضر، إذا نظرتُ ليدها وأصـابعها هـذه المـرة استكمل النظر إلى وجهها وصدرها فى المرة القادمة، أتمعـن فى كيفية استخدامها لأصابعها ويدها فـى التعبيـر وعيـون مارجريت مثل عيون الصقر لا تفارقنا وتكاد أن تنطق بمـا لا أرغب فى كشفه.. عيون مارجريت تخترق ضـلوعى.. تعـد دقات قلبى المتسارعة.

المكان المغلق.. القهوة والشاى ورائحة المطـر وحـرارة الأحاديث - وإن كانت تافهة - أضاف للجلسة نكهـة خاصـة

وضع عليها هانئ الكفراوى بعض توابله، تحدث عن العطـــور الفواحة، وأن الجمع قد جاء وكأنه ذاهب إلى حفل عرس وأشار إليَّ قائلا: إن شاكر لا يحب العطور إلا أنه تعطر هذا المساء ولا أعلم لماذا؟، ضحكت مارجريت.. لقد تحولـــت ضــــحكتها تماماً وأصبحت مثل ضحكة الكفراوى، مضيفة لمستمعيها أنها قابلت الأستاذ شاكر لطفى أكثر من مرة لتـــردده عليهـــا فـــى المكتب ولم ترهُ أبداً بهذه الأناقة، إلا أنها لم تـــشاهده أيـــضا.. واعتذرت قبل أن تنطق بالكلمة وطلبت العفو.. بأنها لـــم تـــره بهذه الكآبة.. وربما هناك ما يعكر صفوه فى هذه الليلة الممتعة، حاول الكفراوى أن يخفف من وقع حديثها قائلا: سبب الكآبـــة ربما يكون العطر، فقد استحم فيما يبدو الليلة بزجاجة كاملـــة!، مما أضاف عليه بالخصم نفقات اقتصادية جديدة.

تدخلت نادية لبيب فى الحديث وليتها ما تدخلت.. الأســـتاذ شاكر لطفى مغرم بـــ " الأراميس " منذ شبابه، ومازال بالرغم من ظهور أنواع جديدة، إلا أنه فيما يبدو يتمـــسك بماضـــيه.. وكانت المفاجأة، مفأجاة مارجريت والتى قفـــزت إلـــى ناديـــة واحتضنتها وهمست فى أذنها ثم عادت لمقعـــدها لتقـــول لهـــا وكيف عرفت أن عطره المفضل أراميس.. وأنه يستخدمه منذ سنوات؟.. لقد أدركتُ منذ الوهلة الأولى أنكما تعرفان بعضكما

البعض من طريقة السلام.. من تجنب لقاء العيون بالعيون، من طريقة حديث الأستاذ شاكر هذه الليلة، وإذا بهانئ الكفـــراوى يتلقف منها الكرة ، لم تتركه نادية لبيـــب يـــستمر.. قاطعتـــه: معرفتى بشاكر لطفى منذ زمن ولم تنقطع ، كانت أخباره تصل إلى فى لكويت باستمرار، وكنت متأكدة أنـــه يتتبـــع أخبـــارى ويتشوق إلى سماعها.. لقد كنا زوجـــين وصـــمتتْ وتجمـــدتْ ونظرتْ فى عيونى كأنها تطلب السماح والمغفرة لكشف هـــذا السر الذى أصبح من المستحيل أخفاؤه بعد اليوم!.

تعلقت بها عيون مؤسسى جمعية الكفراوى الخيرية وهـــى تحكى ببساطة ودون حرج، أخذت نفساً عميقاً واعتـــدلتُ فـــى جلستى أسمعها أيضاً، لقد أزاحت الحرج.. الأستاذ شاكر لطفى كان أول بختى ونصيبى!، الزواج الأول.. قـــسمة ونـــصيب.. تعرف كيف تختار الألفاظ، حديثها جرأنى على النظر إليها فى مساحات أرحب، وإن كنت أسمع دقات قلبى تزداد عنفاً.. ليست نادية الفتاة التى أحببتها وأنا فى الرابع والعشرين من عمـــرى، ولا الشابة التى تزوجتها وأنا فى السادسة والعشرين، ولا المرأة التى طلقتها وأنا فى الثامنة والعشرين.. امرأة مختلفة.. ثـــراء الخليج أعطاها الثقة، وجمال نهاية الأربعينات أضـــفى عليهـــا مسحة من الوقار والثقة لتستمر.. شاكر كـــان لا يـــستخدم إلا

الأراميس ومازال.. كان ضيق الخلق وكنت عجولة.. كان يرى أن مصر أجمل بلاد الدنيا وناسها أبر الخلق بغض النظر عن بعض المساوئ وعلى رأسها الفساد الذى كان يقلقه، وكنت أرى أن مصر ضاقت بناسها ولابد من الخروج منها، كان يؤكد أن من يخرج سيعود، فليس لنا بلد غيرها وها أنا قد عدت، وانفجرتُ فى البكاء لتحتضنها مارجريت وتأخذها بعيداً لتمسح دموعها وتصلح من مكياجها. لم تكن الأزمة.. أزمة نادية لبيب ولم تكن أزمتى، هانئ الكفراوى ترقرق الدمع فى عيونه وتحشرج صوته وارتعشت يداه.. تأسف لى أكثر من مرة بأنه هو السبب فى وضعى فى هذه المشكلة، وكان من المفروض أن يعرف الجمع بعضه قبل اللقاء أو على الأقل كان يجب عليه أن يعرض أسماء مؤسسى الجمعية على بعضهم البعض قبل الاجتماع، عادت نادية ومارجريت وإذا بالكفراوى يحاول إنهاء الجلسة على وجه السرعة محدداً الأسبوع القادم وفى نفس الموعد، لمتابعة بقية الاجراءات من إشهار الجمعية وتأثيث الشقة وكيفية الإعلان عنها واستقطاب أعضاء جدد.. عادت نادية وكأنَّ شيئاً لم يحدث.. أعادت هندامها ومكياجها.. أخذتنى عيونى إلى شفتيها.. لقد غيرت لون أحمر الشفاه من اللون الداكن الذى رأيتها به إلى لون فاقع.. كنت فى شبابى وعندما

كانت زوجتى، كنت أتشاجر معها عندما تستخدم هذا النـوع، ويبدو أننى لست الوحيد المتمسك بأراميس، بل هناك عـادات وألوان وعطور لا يمكن الاستغناء عنها مهما تقدم بنا العمـر. خرج الجمع من النادى.. كل فى طريقه.. مارجريت ورفاقهـا فى سيارة واحدة وأنا وهانئ سنعود فى سيارتى، أما نادية لبيب فقد توجهت إلى سيارتها.. مرسيدس حديثة.. بأربعة أرقام فقط مثل كبار المسئولين، علقت على رقم السيارة للتخفيـف ممـا حدث.. ابتسمت مؤكدة أن الرقم الجميل هذا لم يكلفها أكثر من ثمن تليفون محمول أعطته هدية لمن اختار لها الرقم.. مازالت السماء ترش قطراتها الخفيفة ويبدو أن نادية تعمـدت إطالـة وقفتها معنا تحت المطر لظنها أننى مازلت من عشاق الـشتاء، كنا أثناء الحب نجوب الشوارع.. لا نشعر بحر الصيف أو برد الشتاء.. كنا لا نشعر بالمطر إلا عندما نرى المارة وقد ابتلـوا بالمياه.. سألتنى عن المطر وهى تعلم أننى من عشاقه .. أكدت لها أننى أصبحت أكرهه.. لا أطيقه وإن كنـت فـى الحقيقـة مازلت أعشق رائحته.. مدتْ يدها بالسلام.. لـم تكـن لـدى الشجاعة بأن أطيل وضع يدى فى يدها.. مسكت هى يـدى .. ضغطت عليهـا وتواعـدنا أن نلتقـى فـى جمعيـة هـانئ الكفراوى ! .

ألقى الكفراوى بنفسه فى سيارتى.. لم ينطق طول المسافة بكلمة واحدة.. يشعل سيجارة وراء سيجارة، يسألنى أحياناً هل الدنيا بهذا الضيق والسوء أو أننا نحن أهل السوء؟ لا أطيق فلسفته وهو يعلم ذلك.. قبل أن نصل سألنى وهو يعرف الإجابة.. هل ستستمر معنا فى الجمعية أم أن ظهور نادية لبيب سيصرفك عنا؟، وقبل أن أجيب يستمر، لا مانع من وجودك معنا وأظن أن ما يجمعك بنادية قد انتهى رغم إحساسى بأن المشاعر الطيبة لا تموت.. المشاعر مثل جذور بعض النباتات، قد تختفى الأوراق والسيقان ويظل الجذر ينتظر.. ينتظر نقطة ماء ليعاود الإنبات من جديد ، لابد من مصارحته.. الاستمرار فى الجمعية غاية فى الصعوبة، خاصة وأن نادية تحاول قدر استطاعتها إنبات الجذور.. والحقيقة.. ياكفراوى إننى لست بالقوة التى تمكننى من المقاومة.. نصحنى بأخذ الأمور ببساطة كعادته ، موضحاً أن نادية لو رغبت فى الزواج الآن لتزوجت أميراً أو رجل أعمال مليونيراً، فهى لديها الكثير من المشروعات والعقارات ولا خوف على الإطلاق من الاستمرار معه فى الجمعية!.

هناك أمورٌ لا أعلم إذا كان الكفراوى يعرفها أو لا، رغم ادعائه الدائم بسعة خبرته.. المشكلة ليست فى الثراء وليست فى الزواج.. المشكلة قصة أول حب وأول زواج .. لقد تزوجت نادية فى الكويت أكثر من زوج واختارت برغبتها، إلا أنها اشارت إلى الزواج الأول على أنه قسمة ونصيب.. الزواج الأول فقط اعتبرته قدراً، وقد ساقت لها الأقدار وجمعية السيد الكفراوى مرة أخرى نصيبها الأول، والمشكلة أن فى عنقى زوجة وأربعة أولاد ومجرد التفكير فى الماضى اياً كانت حلاوته ومقارنته بالحاضر مهما كانت بشاعته.. يفتح الأبواب للهروب فى اتجاه واحد.. اتجاه الماضى.

قد لا استطيع الاستمرار معك فى الجمعية يا هانئ.. قلتها له قبل أن أوقف السيارة أمام باب منزله.. لم يفتح الباب ولم يهم بالنزول.. أغلق محرك السيارة بيده.. وهاجمنى.. فهو لا يريد بأى حال من الأحوال أن أنصرف عن الجمعية.. أنت ضعيف أو خائف.. يا شاكر يا لطفى.. ضعيف أمام ماضيك وخائف من أسرتك.. دخلنا فى السفسطة.. لماذا لا أكون خائفاً من الماضى وضعيفاً أمام أسرتى.. الحديث استمر مع هانئ الكفراوى أكثر من نصف ساعة فى السيارة، اعترفت له بضعفى وخوفى وقلة حيلتى وفشلى فى التعامل مع الموقف

المفاجئ.. لم أفكرْ أبداً أن تجمعني جلسة بنادية لبيب، شاهدتها من قبل منذ عدة سنوات في إشارة مرور..لم أتأكد أنها هي ولم تتأكد هي أنني شاكر لطفي، إلا أن الهزة الوجدانية تلك لم تـدم طويلاً، تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر وانطلقنا كـل فـي طريقه وكان هذا اللقاء.. كان الكفراوي يشعر بـي ويعلـم أن الواجهة الفولاذية تخفي وراءها ضفيرة من المشاعر المكشوفة والحساسة، إحساسه بهول الموقف جعله فيما يبدو ينهي الجلسة بتلك الطريقة ويحدد موعداً الأسبوع القادم، ليـرى إذا كنـت سأستمر معه في الجمعية أو أهرب من نادية لبيب ، طمأنته.. سأستمر معكم كأحد الأعضاء المؤسسين، إلا أننـي سـأتجنب الاجتماعات أو اللقاءات التي قد تحضرها نادية.. وربما هـي تفعل الشئ نفسه.. فتح باب السيارة وذكرني بضرورة الذهاب غداً إلى التأمينات وتسليم صورة القرار الأخير لغلـق الملـف ونصحني بأخذ الأمور ببساطة فلا شئ يستحق أن نعذب أنفسنا ولا أن نجلد ظهورنا بسياط الماضي!.

عدت لمنزلي وكأنني قطعت المسافة من نادي التوفيقية إلى حلوان ركضاً، جميع مفاصلي تؤلمني ، صداع يكـاد يقتلنـي، استقبلتني زوجتي لأول مرة دون قائمة مـن الـشكاوي ودون طلبات.. سألت عن سبب تـأخري والإرهـاق الـذي يكـسو

ملامحى؟، أخبرتنى أن طعام العشاء معد فى المطبخ وتركتنى لألقى بنفسى على السرير، وأغوص فـــى الماضـــى وأقلـــب صفحاته.. الدنيا ضيقة.. ضاقت الدنيا بما رحبت وأواجه نادية لبيب وجهاً لوجه، لقد كنت بالفعل كما قالت ضيق الخلق ومـــا زلت واعترفت هى بأنها كانت " عجولة "، إلا أن الأيام فيمـــا يبدو طوعتها.. كيف لم أسألها عن أبيهـــا وأمهـــا وأخوتهـــا.. المقابلة شئ.. والوقوف تحت المطر معها لعدة دقائق شئ آخر، لقد حاولت الطبيعة والسماء أن تذكرنى بشئ كنا نحبه ســـويا.. كنت أحب المطر ورائحته ومازلت، إلا أن العناد دفعنى لقـــول أننى لم أعد أطيقه وأننى أكره المطر وأيامه، كان من الممكـــن أن يكون اللقاء أفضل وأيسر وأبسط، إلا أننا لا نملك مفـــاتيح قلوبنا، ولا نستطيع أن نتحكم فى مشاعرنا أو توجيهها. مضى الليل أطول مما عهدت فى الليالى الـــسابقة.. بطيئـــاً ثقـــيلاً.. أغمض عيونى وأفتحها والنهار مختبئ والفجر أجل وصـــوله عمداً، لأظل أطول مدة مع نادية لبيب.. مع أيامنا.. مع ليالينا.. مع قصة حب قصيرة مفرطة فى مشاعرها وغبائهـــا.. كنـــت أحبها بالفعل ولم أشك لحظة فى حبها.. هل كان الخلـــيج هـــو السبب فى الفراق أو الجشع أو الرغبة فى الثراء، لقد تعلمـــت هناك ما لم أتعلمه أنا هنا.. وضعت يدها ببرود على المشكلة،

تعلمت البرود من قيظ الخليج.. كنت ضيق الخلق وكانت هـي عجولة.. الزواج الأول قسمة ونصيب وباقى الزيجات تحصيل حاصل.. ضاقت الدنيا بما رحبت وضاق صدرى بـالهواجس والمخاوف.. بالفعل هانئ الكفراوى علي حق.. أنـا ضـعيف وخائف.. الضعف يخيفنى والخوف يضعفنى!.

أثناء ارتداء ملابسى استعداداً للخـروج، جـاءت زوجتـى بكوب شاى الصباح وقائمة الطلبات.. طلبات المنزل وطلبـات الأولاد.. وطلبت منى أن أظهر لهم بعض الحزم، وإلا انفلتـت الأمور.. جلست أمامى بشعرها المنكوش وملابس النوم، لقـد زادت عشرات الأرطال منذ زواجنا، بينما نادية لبيب مازالـت محتفظة بقوامها، كانت نادية تستيقظ قبلى من النوم لم أرَ يوماً شعرها منكوشاً، وكانت تؤجل الحديث لما بعد الظهر أو بعـد العودة من العمل، أما زوجتى، فهى مغرمة بالبيانات الصباحية، قبل أن أخرج من المنزل تكون قد حشرت فى رأسى العديد من الموضوعات والأخبار، دائما ما أنسى بعض أغراضـى عنـد محاولتى الهروب من بقية طلباتها.. وضعت مصروف الأولاد على الطاولة وغادرت الشقة ، لا أعلم لماذا هبطت على رأسى مقارنة سريعة بين شقتى الحالية والواسـعة وشـقتى الـضيقة البسيطة التى كانت عش الزوجية الأول مع نادية.. مشكلة نادية فيما يبدو لن تكون بسيطة بأية حال، فقد انفجـر خـزان مـن

المشاعر الفياضة فجأة، والسبب جمعية السيد هانئ الكفـراوى الخيرية والتى جمع فيها نساء من شتات الأرض، ولسوء الحظ جاء بنادية لبيب أول حظى ونصيبى!.

من ميدان التحرير إلى مبنى التأمينات فى الألفى، لم يشغلنى غلق الملف وضم فترة الخدمة السابقة ، الشغل الشاغل.. حياتى السابقة.. تجاربى الماضـية.. أول عمـل.. أول حـب.. أول زواج.. لقد كانت أول القصيدة كفر ولا نريد أن تنطوى.. كيف آخذ الأمور ببساطة كما يقول هانئ الكفراوى.. السماء تمطـر وأحتمى بالمبانى.. المطر التعامل معه سهل.. ستجف الأرض حتما ولكن كيف التعامل مع الذكريات.. الماضى لا يجف ولا ينتهى، يتداخل عمداً فى الحاضر ويصعب الفصل بينهما ويلقى بظلاله على مستقبل غير منظور لا نرى منه شيئاً.. كيف أقابل مارجريت اليوم وماذا يحدث إذا فتحت موضوع نادية لبيب؟.. المطر حوّل الشوراع إلى برك مليئة بالماء والطـين.. أحـس بوطأة المطر وأحس بكراهيته بالفعل.. خطوات وأدخل المبنى وأنسى المطر وأتذكر الماضى كله وأجلس أمام الملف.. ملـف حياتى.. أول عمل.. أول حب وأول زواج وأول قرار.. كنـت أفتقد الخبرة وعندما اكتسبتها كان الوقت والعمر قد تسربا.

استقبلتنى مارجريت مهللة مرحبة.. استقبالها غير عـادى.. كانت تنظر خلف أكتافى ربما يكون هانئ الكفراوى ورائـى.. عندما أيقنتْ أنه ليس معى... أجلستنى وحكت لى: إنها قضت

الليل كله مع نادية لبيب فى شقتها المواجهة مباشرة لشقتها فى مدينة نصر.. حكت لى كيف بدأت علاقاتها بنادية والتى جاءت من الكويت منذ خمس سنوات واشترت الشقة المقابلة لها وعادت إلى الخليج مرة أخرى، ثم رجعت نهائياً العام الماضى فقط، وحاولت إغراءها ببيع شقتها وعرضت عليها سعراً سخياً إلا أنها رفضت فاشترت نادية الشقة الخلفية، وأزالت الحوائط وجعلتهما شقة واحدة على مساحة مائتين وستين متراً.. حمدتُ الله أنها تحكى عن علاقاتها بنادية ولم تقترب من علاقتى أنا بها، إلا أنها سرعان ما عادت إلى ما كنت أخشاه.. قالت إنها قضت الليل كله مع نادية، والتى لم ترها منذ معرفتها بهاكما رأتها الليلة الماضية ، وكيف أنها تماسكت فى النادى قدر استطاعتها ، إلا أنها انهارت فى المنزل ، واتصلت بطبيب مجاور واتصلت بهانئ الكفراوى ومرت الليلة على خير.. سألتنى نفس سؤال الكفراوى حول استمرارى فى عضوية الجمعية.. طمأنتها بأن الأمور ستسير كما خُطط لها وأننى سأبقى معهم.

أخرجت لها القرار ١١٢٥ من جيب سترتى ووضعته أمامها.. من بين الملفات المحفوظة أمامها استخرجت ملفى ونادت على نجية شمس الدين من مؤخرة القاعة، أخبرتها أننى لم أرها عند دخولى.. أشارت إلى موقع مكتبها، لقد غطت شعرها وارتدت " ايشارب " بعدما عادت من العمرة.. جاءت

نجية.. الابتسامة التى على وجهها أصــبحت أكثــر صــفاء.. تبادلت معها التحية.. أصبحت مما يلقون التحيــة ويــستقبلونها دون مصافحة.. أعتذرت لها وطلبت أن يتقبل الله عمرتها وأن يكتب لها حج البيت.. تناولت نجية الملف والقرار وانتقلت إلى مكتبها .. تقلبُ الأوراق أكثر من مرة.. تتفحص الأختام وتعيد ترتيب الأوراق والمستندات ومع كل ورقة تنظر إلى نظــرة لا أعرف كنهها وأغلقت الملف.. أدركت فى النهاية سر نظراتها.. سألتنى بتردد كيف حصلت على هذه الأوراق وقد كانت تظــن أنها لن ترانى ثانية بعدما أبلغتنى بالمستندات المطلوبة لتسوية الملف.. لم أرد عليها فى المرة الأولى وعندما ألحت لمعرفــة كيفية حصولى على المستندات، وأن الأمر انتهى وأن الملف تم إغلاقه وتمت تسوية الوضع.. لم أجد على شفتى إلا كلمة هانئ الكفراوى: إنها.. بسيطة!.

المعادى ــ القاهرة يناير ٢٠٠٠

محمد غزلان

* مساعد مدير تحرير جريدة المساء للشئون الخارجية .

* عمل فى مجالات التدريس والترجمة والتحرير والتصوير الضوئي والأفلام التسجيلية .

صدر للمؤلف :

- " لغز ماكسويل " امبراطـور الـصحافة البريطانيـة- "سيرة" على نفقة المؤلف عام ١٩٩١ .

- دليل التائه - رواية

- الخروج من بغداد - رواية - على نفقة المؤلف.. طبعة أولى ـ ديسمبر ٢٠٠٤ ، طبعة ثانية هيئة الكتاب ٢٠٠٧.

للمؤلف تحت الطبع :

- مذكرات عبده ريال ـ يوميات مصرى يعمل فى الخليج " رواية " .

- صمت الليالى وآبارالحزن ـ رواية .

- الواطي - رواية

ghozlanmisr@yahoo.com

